تاريخ

السيد سعيد

سلطان عمان

ومعه تاريخ الشعوب والأقطار على سواحل الخليج العربي

ألفه عام ١٨١٠

الرحالة الإيطالي فينزنزو

الملقب بالشيخ منصور

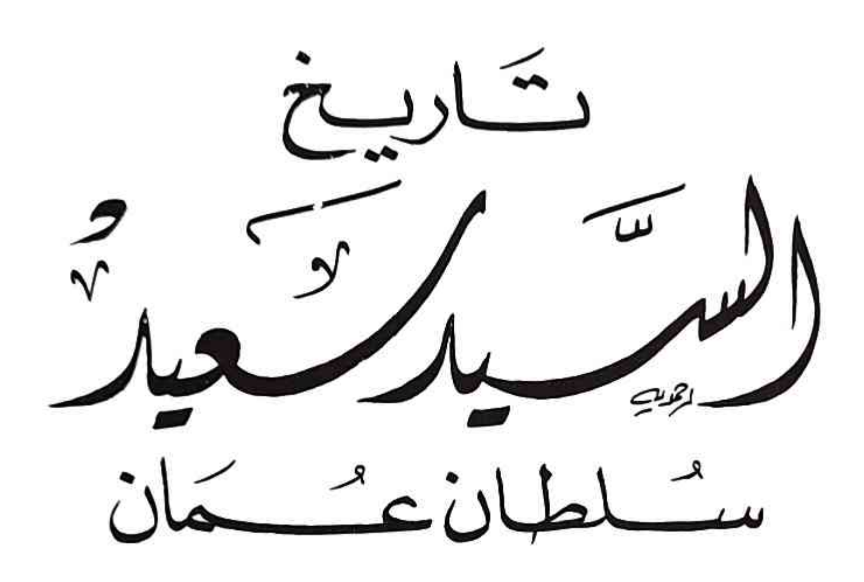
ترجمة

د. محمود فاضل

الدار العربية للموسوعات



تاريخ السيّد سعيد
سلطان عُمان



ومعه تاريخ الشعوب والأقطار
على سواحل الخليج العربي

ألفه عام ١٨١٠
الرحالة الايطالي فينززو
الملقب بالشيخ منصور

ترجمة

د. محمود فاضل

الطبعَة الاولى
١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

تجتاح بلاد الغرب منذ سنين ، موجة طاغية من الإهتمام بالعرب وتراثهم ، والإقبال على دراسة ماضيهم وحاضرهم ، والعناية بفهم حضارتهم وأوضاعهم ، ويرد ذلك ، في نظري ، إلى رغبة الغرب العارمة في التعرف على هذا المارد العربي الجبار الذي إنطلق بغتة ، وبكل قواه ، وربما بسبب ما تختزنه نفسه من قوى ذاتية أو بسبب ما يكمن في جوفه من طاقات مكنونة وثروات مخزونة ، فخرج من قمقم الإهمال والنسيان الذي ظل يسكنه إلى مجال الحركة الدائبة والنشاط الواسع ، مطلقا في العالم صيحاته المدوية وباسطا عليه ظله المديد وراسما ، شاء هو والعالم ذلك أم أبيا ، وعن علم وتخطيط أو عن جهل وتخبط ، خطوط سيره وحظوظ مصيره ، بل وشكله وكيانه وحضارته لما يستقبل من الأجيال .

وكان حظ بلاد عمان وأهلها من هذا الاهتمام ، وافراً ولا عجب في ذلك فإذا كان جهل العرب أنفسهم بتاريخ عمان ، وهي بلد من بلادهم ، فاضحا شاملا لا يسلم منه إلاّ نفر معدود ، فأحرى أن يكون جهل الغربيين به أشمل وأوسع ، وبالتالي أن يكون حظ هذا التاريخ من عنايتهم أوفى وأوفر ، عدا عن أن عمان ـ بمدلولها الجغرافي ، والتاريخي الأصليين ـ هي بعض مركز خزين الطاقة التي تلعب بمقدرات الشعوب وتقرر مصائرها حضارة وحياة .

ولذلك فلا عجب إن كثرت العناية بأمور عمان ـ بمدلولها الأكبر ـ وتعددت

الدراسات والأبحاث عنها ، ومنها الغث الكثير والسمين القليل ، وأن كان من الحق أن نعترف أن إهتمام الغربيين بعمان ليس بالأمر الجديد ، فقد كان لهم فضل السبق في هذا الباب على العرب أنفسهم الذين لم يعنوا بهذه البلاد ويهتموا بالمعرفة الوافية لأحوالها إلا منذ سنين قلائل لاتتجاوز عند أصابع اليدين إلا قليلاً في حين يرجع إهتمام الغرب بها إلى قرابة قرنين من الزمان .

فقد جاء على عمان حين من الدهر ، في النصف الأول من القرن الماضي ، قويت فيه شوكتها وأزدهرت تجارتها وذاع صيتها وأمتد سلطانها ، وصار لها مقام الصدارة والبروز في احداث وسياسة ما كان يطلق عليه آنذاك بلاد الشرق The Orient ولهذا أولاها الغربيون إهتمامهم ، وتولوا تاريخها بالدراسة والبحث ، واخبارها بالنقل والتدوين وتراثها بالتحقيق والترجمة ، فخلفوا لنا من ذلك نتاجاً غزيراً وفيراً يتسم غالبه - عكس المؤلفات الحديثة - بالأصالة والرصانة والنفوذ إلى دخائل الأحداث وأعماق الأمور .

ولا نريد هنا أن نعدد تلك الآثار أو نسميها ، وإنما نأمل أن ننشر في وقت قريب أن شاء الله دراسة أو كشفاً (بيبلوجرافيا) بالمصادر الباحثة في تاريخ المنطقة ليكون مرجعا ومرشداً للسائل . على أن طموحنا لايقف بنا عند هذا الحد فحسب بل يتعداه إلى أهداف أسمى ، وغايات أبعد وأصعب منالاً ومنها التعريف بمصادر التاريخ العماني قديمها وحديثها ، العربية منها وغير العربية .

وعلى ما في الكشف عن المصادر التاريخية والتعريف بها وتقريب بعيدها وتيسير منال نادرها ، من تبيان لوجهة النظر العربية ، ومن أثر كبير في نشر التراث القومي وخدمة الثقافة العامة ، وتعميم الوعي التاريخي العربي ، فهي وحدها لاتكفي لتكملة الصورة حق كمالها ، وفهم التاريخ فهما محيطا واسعا ، بل لابد معها من تعريف القراء بما كتبه الغربيون عن هذه البلد في غابر الزمان وحاضره .

وسيرا منا على هذه الطريق ننشر اليوم ترجمة هذا الكتاب الذي نرجو أن

يكون فاتحة سلسلة طويلة في هذا الموضوع والتي تشاء حسن الصدف أن يكون هذا الكتاب نفسه من أقدم ما نشر في أوربا ، لا عن عمان وحدها ، بل وعن البلاد العربية قاطبة .

وعدا عن قدم تاريخ هذا الكتاب ، فأنه يمتاز أيضاً بالغرابة والطرافة ، وإلى حد كبير بالجرأة والوقاحة ، فهو من تأليف رجل ايطالي ، يدعي الطب جاء إلى مسقط في أوائل القرن التاسع عشر ، فاصطفاه ـ أو هكذا يدعي ـ سلطانها السيد سعيد بن سلطان طبيبا خاصا له ، ثم مالبث ـ كما يدعي هو أيضاً ـ أن عينهَ قائدا عاما لجيوشه ، وهذه الادعاءات ، أو الأخير منها على الأقل يعوزه البرهان القاطع من سند موثوق أو رواية متواترة .

وقد استثقل السلطان سعيد ، أسمه الايطالي vinzinzo ويعني الظافر أو المنصور فعرّبه إلى الشيخ منصور ، فغلب عليه هذا اللقب وعرف هو وكتابه به منذ ذلك الحين .

وقد مكث الشيخ منصور ، في مسقط عاما وبعض العام ثم غادرها عام ١٨١٠م وبدأ بكتابة كتابه هذا عن تاريخ السلطان السيد سعيد أو بالأحرى عن تاريخه هو في عمان أو تاريخ رحلته إليها .

ولابد أن المتتبعين لكتابات الغربيين عن تاريخ عمان ـ ولاسيما الكتابات المعاصرة منها ـ قد مروا بقصة هذا الشيخ الايطالي الطبيب القائد أو سمعوا عنها الشيء الكثير وقد اعتمدت بعض هذه الكتابات قصة هذا الرجل واتخذتها مصدرا من مصادر تاريخ الفترة التي يكتب عنها فأقتبست منه واستندت عليه ، وهي في هذا قد شطت ـ في رأينا ـ عن حيدة المؤرخ ودقته في وزن مصادر بحثه ، وأنها جانبت التوفيق أو جانبها التوفيق في تقييم الكتاب ومؤلفه وتقديرهما حق قدرهما .

وإذا كنا نستطيع أن نجد العذر للكتاب الغربيين عن عملهم هذا بحسن نيتهم أو سوئها أو بجهلهم أو تحيزهم فإننا لا نستطيع أن نغفر ذلك لبعض

الكتاب العرب الذين اقتبسوا من هذا الكتاب واعتمدوه مصدرا من مصادر بحثهم في تقليد أعمى للكتاب الغربيين ونقل مباشر عنهم دون أن تتاح لهم فرصة الاطلاع عليه بل النظر فيه وقرائته . ولعلهم أن يشكروا لنا هذه الترجمة التي ستتيح لهم هذه الفرصة بعد لأي وطول إنتظار .

* * *

هذه بعض الأسباب التي حدت بنا إلى ترجمة هذا الكتاب ، وهناك أيضاً ، أسباب أخرى سنعرض لها بعد حين ، ولهذا وذاك فقد حق لنا أن نعرف من هو الشيخ منصور هذا ، وما حقيقة أمره وما الرأي في كتابه .

فهل كان رجلاً رحالة استهواه الشرق كما استهوى ويستهوي العديد من الأوربيين غيره فجاء إليه وطاف به وحاول أن ينفذ إلى سره وحقيقة أمره ، فقصرت به عن ذلك قدرته ووسائله فضلّ وتاه وتسكّع وخلط وتخبط ، أم كان دعياً نصاباً ضاقت به سبل العيش في بلاده فهجرها إلى الشرق وأتخذ التجوال فيه وسيلة ومهنة يتعيش منها ؟

أم أنه كان أخطر من ذلك وأخبث ، وكان عميلا فرنسيا ، كما كان يتهم بذلك مرارا وتكرارا في أكثر من بلد حل به ، على حد اعترافه هو نفسه بذلك ، وقد كانت فرنسا وقت ذلك في ذروة صراعها مع انكترا من أجل السيطرة على هذا الجزء من العالم ومنافستها على مناطق النفوذ فيه ، وكان نزاعها في عمان بالذات حادا وعنيفا فأرسلت هذا الرجل الايطالي إلى بلدان الشرق التي بدأ الانكليز يسعون إلى توطيد اقدامهم ونشر نفوذهم فيها ليرصد لها أعمالهم وينقل إليها أخبارهم ؟

وهل كتب الشيخ منصور كتابه هذا بدافع من ذاته ليسجل فيه معلوماته ومشاهداته ، أو أنه كان يهدف من وراء نشره إلى خدمة جهة أخرى استكتبته الكتاب ودفعته إلى نشره أو ربما كتبته هي وأختلقت له إسم الشيخ منصور وقصته لتخفي حقيقته وتضفي عليه مسحة من الصدق والحجية ؟ ولكن من هي تلك الجهة وما غاياتها ؟

هذه وغيرهـا أسئلة كثيرة تمـر في الذهن وتبحث عن أجوبة مقنعـة **لهـا** ، ونحن إذ نحاول اشباع فضول القارىء بالاجابـة عنها ، لا نجـد من نرجـع إليه ونستفتيه في أمرها غير الشيخ منصور نفسه فيما نشره في صلب كتابه أو في مقدمته من كلام عابـر أو مقصود ، ومـا أورده صراحـة أو **تلميحاً** . ومصـدرنا هـذا في الـواقع لا يشفي غليـلا ولا يقنع سـائلا ، لمـا يتخلل كتاب الشيـخ منصـور من غموض وأبهام وما في طريقته في سرد الأخبار من تشتت واضطراب ومافي اسلوبه من قصور وضعف ، عدا عن آفته الكبرى التي سنأتي على ذكـرها ، آفـة الادعاء والانتحال .

* * *

وبالرجوع إلى الشيخ منصور واستنطاقه أخبار حياته نفهم أنـه حين تخـرّج من الكلية الرومانية في روما ، رأى بلاده تعاني ، بسبب الاحتلال الفرنسي لها ، الذل والخضوع ويعاني أهلها التمزق والانقسام . وتجنبا لما قد تجره عليه ما يدعيه لنفسه من آراء تقدمية من المتاعب والخصومات ، فقد قرر الهجرة من وطنه طلبـا لراحة البال وسلامة العيش ، فترك ايطاليا إلى بلاد اليونان ثم عبر منهـا إلى آسيا الوسطى فألقى عصا التـرحال في العـاصمة العثمـانية ثم لم يلبث ـ بعـد قليل أو كثير من الوقت ـ أن خرج منها يضرب بأطراف الأرض .

ولا نعرف بعد هذا خط سيره بالضبط ، وإن كنا نعلم أنه طوّف في بلدان كثيـرة منها بغـداد في العـراق ، ومسقط في عمـان ، ومخـا من أرض اليمن ، ثم رحل إلى مصر وكردستان وايران ووصـل إلى اذربيجان ، حيث وقـع فيها اسيـرا بيـد الروس . ولعـل المطاف انتهى بـه إلى الهنـد ومنهـا عـاد إلى أوربـا ، حيث تعرض في رحلته هذه على حـد **قوله** « إلى أسوأ كـارثة في حيـاتي تركتني في أشـد حـالات العوز والفـاقة ، وعـلى شفا هـاويـة المـوت وحيـدا مهمـلا ومنبـودا من الجميع » .

ولكنه يذكر لنا طبيعة هذه الكـارثة التي تعـرّض لها ونتائجها ، انمـا يذكـر

أنها وقعت له « حين هبطت البرازيل في طريق عودتي من الهند إلى أوربا »[1] وهو أمـر ، من الناحيـة الجغرافيـة ، في غايـة الغرابـة حقاً ، إذ ليست البـرازيل من قريب أو بعيد على طريق الهند إلى أوربا إلاّ أن تكون هذه البرازيل بلداً آخر غير بلاد البرازيل في أمريكا الجنوبية .

ويبدو أن المؤلف كان يسجّل مشاهداته وتجاربه ومـا يقع لـه أو تحت بصره في هـذه البلدان في رسائـل يبعث بها إلى ايطاليا ، وقـد بلغت حوالي الثمـانين عدداً ، وكان يكتبها ، بطبيعة الحال ، بلغته الايطالية ، حتى إذا جاء « إلى هـذه العاصمة الكبـرى » ، وهو وإن لم يسمهـا فالقـرائن تشير إلى أنها مـدينة لنـدن ، احتاج إلى بعض المال ليدفع منه ما تحتاجه عملية بتر ساقه وعلاجها من نفقات .

ونحن لا نعرف ما حلّ بساقه وأين كان ذلـك ، بحيث أضطره الأمـر إلى بترها ، وكل الذي يذكره عن هذا الموضوع أنها « أصيبت من زمن طويل بمرض عضال من نتيجة الاهمال والارهاق » . ونحن لا ندري أيضاً إن كان قد أجـري العملية فعلاً أم منّ الله عليه بالشفاء فنجا منها .

وعلى كل حال ، فقد عـرض رسائله الثمـانين للبيـع على أحـد الناشـرين ليستعـين بثمنها عـلى دفع نفقـات العلاج . ومـع أن الشيخ منصـور قـد أرفقهـا بكتاب توصية من شخصية انكليزية مشهورة لتأكيد صحة أخبارها ، فـأن الناشر ردّها إلى الشيخ منصور بعد حين بحجة أن كلفة ترجمتها للانكليزية ستكـون من الجسامة بحيث لا يستطيع ريع بيع الكتاب بعد نشره ، الوفاء بها .

وهنـا خطرت لشيخنـا الايطالي فكـرة الاعلان عن رسـائله ، وفتـح بـاب الاشتراك المسبق بها ، وقد قام بذلك فعلاً ، ويبدو أنه جمع من وراء ذلك بعض المال لكنه لم يستطع الوفاء بوعده بنشر الرسائل ، إذ تعذرت مرة أخـرى ترجمتهـا لاسباب أسهب في شرحها في مقدمة كتابه هذا .

---

(1) From Persia i went to India, and having touched at BRAZIL in my way to Europe...

ولهذا نراه يستهل مقدمته هذه بالاعتذار للمساهمين بهذا الاشتراك عن عدم صدور رسائله المنتظرة للاسباب التي أطال في شرحها وأسهب ، واعداً أياهم بقرب صدورها بعد أن يتغلب على الصعاب والعوائق التي حالت ، حتى الآن ، دون ظهورها للوجود .

وكما أننا لا نعلم شيئاً عن تفاصيل رحلاته وخطوط سيره فيها ، فإننا لا نعلم شيئاً أيضاً عن تاريخ رحلاته هذه . فلا ندري متى ترك المواطن الروماني الدكتور فينزينزو أرض بلاده ايطاليا ، ومتى وكيف أنتهى به أو بالشيخ منصور (الذي صاره) المطاف في لندن مبتور الساق أعرج . ولكننا نعلم أنه وصل مسقط عام ١٨٠٩ ودون أن ندري من أين وكيف ، ولا ندري كيف تعرّف بالسلطان وأتصل به ولكننا نعلم أيضاً أنه لم يستقر بها إلاّ فترة قصيرة قد لا تصل إلى العامين ثم تركها إلى إيران ثم عاد إلى مسقط عام ١٨١٤ ، ولكننا هنا أيضاً لا ندرى كيف تمّت عودته ، ولا الغرض منها ، ولا مدة مكثه في مسقط ولا الجهة التي غادر إليها .

وليس جهلنا بأسباب تطوافه المستمر في البلاد بأقل من جهلنا بأموره الأخرى فهو لا يحدثنا عن دوافعه إلى هذا التطواف وأهدافه منه . وإذا كان قد برر لنا اضطراره إلى هجران وطنه بنفوره من الاحتلال الفرنسي لبلاده ، وما خلّفه فيها من آثار السيطرة والاستبداد وما خلفه بين أبناء الوطن الايطالي من فرقة في الرأى وتوزع في الولاء ، كادا أن يبلغا حد الفتنة والصراع المسلحّ ، فإن هذه الأسباب إن بررت هجرانه لبلاده ، فلا تبرر له إستمراره في الترحال والأسفار دون ما لبث أو استقرار في أي من البلدان الكثيرة التي زارها والتي يدعّي أنه كان يمارس مهنة الطب فيها بنجاح يدّر عليه المال الوفير وأنه كان موضع التقدير والاحترام من وجوه الناس وعلّية القوم فيها .

وقد يكون الرجل نصّاباً متجولاً ، دعيّاً ، ما أن يستقر بمكان ويكسب ثقة أهليه حتى ينكشف أمره ويفتضح ادعاؤه ، فيضطر إلى الرحيل عنه ، أو أن

يكـون تنقله السريـع من مكان إلى آخـر سعياً وراء هـدف معين وتحقيقـاً لغرض محدود .

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأنه كان يجمع الصفتين معاً ، فلا شك عنـدنا في أن تجواله لم يكن مجرد تسكع عابث لا هدف له ، بل أنه كان « ملتزماً » أو « ملزماً » برسالة يؤديها أو مكلّفاً بمهمة ينجزها ، ولكنه ـ على ما يبدو لنـا ـ كان في الـوقت نفسـه جهولاً مغـروراً كثير التبجـح والادعاء . لـه من حماقـة قومـه الايـطاليـين وتقلّبهم في المزاج نصيب كبير ، فكانت صفاته هذه تضيع عليه فرص النجاح في المهام المكّلف بها أو الاستمرار بأدائها .

وليس لدينا ـ بطبيعة الحـال ـ ما نؤيـد به قـولنا هـذا إلاّ بعض ما كتبـه في كتابه هذا من أخبار ، وإلاّ بعض الاشارات العابرة التي وردت فيه .

فأما عن إلتزامه بغـاية بعينهـا فنستدل عليه من اعتـرافه في مـطلع الفصل الرابع من كتـابه بـاضطراره إلى مغـادرة مسقط لشعوره بالخيبة في تحقيق ما كـان يرجو تحقيقه فيها من آمال . ثم يعود في الفصل السادس فيعترف ثانية أن حياتـه في مسقط ما كانت لتطاق أبداً لـولا التزامـه بتحقيق ما هـو ملتزم بـه من مبادىء وأهداف .

وإضافة إلى هذا فأنه يشير إلى إتهام الناس له بالعمالة للحكـومة الفـرنسية مرتين ، المرة الأولى في اليمن ويدعّي أنه كان الوكيل الرسمي للحكومة الفرنسية فيها ، والمرة الثـانية في مسقط حـين وشى به للسلطان أحـد الانكليز النـافذين ، بـاعتباره جـاسوسـاً فرنسيـاً ، كما نفى ذلـك الانكليـزى عنـه صفـة الـطب التي يدعّيها .

ولم يكتف صاحبنا بذكر هذين الحادثين فحسب ، وإنما أشـار إلى خدمـاته لفرنسا في طهران في مناسبتين أولاهما أثناء محاولة الحكومة الفرنسية عقد معـاهدة تجـارية بـين البلدين وكان كـما يدعّي يجـابه فيهـا السفير البـريطاني الـذي كان ـ بطبيعة الحال ـ يقاوم عقد هذه المعاهدة ويحبط جهوده . ومن غريب الصدف أن يصبح

هذا السفير صديقاً له بعد أعوام ، وأن يزكيه عند ناشر كتبه ، وأشار إلى المناسبة الثانية إشارة عابرة بقوله أنه استطاع أن يحقق للحكومة الفرنسية في طهران ما عجز عن تحقيقه الجنرال فلان ، وهو على الأغلب سفير فرنسا في طهران أو مبعوثها لها .

ولعل الرجل الانكليزي الذي اتهمه بإنتحال صفة الطب ، لم يعدو الحق في ذلك ، فالقارىء لكتاب الرجل الطبيب يعجب ولا شك من خلوه من كل إشارة تتعلق بتطبيق هذه المهنة أو ممارستها ، فالمؤلف لم يحدثنا أبداً عن حالة واحدة عالج فيها السلطان أو أحد حاشيته أو أهله ، كما لم يتحدث عن الأحوال الصحية في مسقط وعن طرق الطب ، والعلاج فيها . وهي واشباهها أمور يجب أن تجلب انتباهه ، وأن تكون موضع إهتمامه وأن تكون لها الصدارة على غيرها في كتابه ، إلا أن هذا الكتاب لم يذكر قضايا الطب والعلاج إلا مرات ثلاث فقط ، وهو في كل منها لا يزيد في معلوماته وطرق بحثه لها من معلومات الرجل العادي .

وكانت أولى هذه المرات هي عند كشفه على جمجمة أحد القتلى فوجدها « قوية صلبة مثل كعب الحذاء » ، فعزى سبب ذلك إلى شدة حرارة الجو ، وهو تعليل بدائي مضحك ، ما أظن أحداً يوافقه عليه أو يتصوّر صدوره عن رجل مثقف ناهيك عن رجل يدعّي أنه درس الطب وتخرج فيه .

والحالة الثانية هي عندما أرسله السلطان لمعالجة أحد عبيده ، فوجد العبد مصاباً بقرحة خبيثة في المعدة ، وبدلا من أن يحدثنا عن المريض ودوائه نراه يحدثنا عن استدارجه للمريض للحديث عن مقتل السيد بدر ابن عم السلطان .

والحالة الثالثة هي طلب السلطان إليه معالجة أحد رجاله المقربين الذي أصيب بطعنة رمح نفذت من ظهره إلى امعائه ، وحار طبيبنا فيما يفعل ، وظن الحالة ميئوساً منها فشد للجريح موضع الطعنة وتركه يلقى مصيره المحتوم ، ولكن الجريح كان أكثر من طبيبه رباطة جأش وقوة جنان ، فكان يهوّن الأمر على

الطبيب ويخفف من جزعه وأستطاع بصلابة ارادته وقوة بنيته أن يتحمل الصدمة ويصبر عليها حتى منّ الله عليه بالشفاء بين عجب الطبيب ودهشته .

ومن عجب أنه حين وشى الرجل الانكليزى الكبير بالشيخ منصور وأتهمه بانتحال صفة الطبيب لم يجد الشيخ ما يردّ به على هذا الاتهام وما يثبت به للسلطان علمه بالطب وتمرسه فيه إلّا الاستشهاد بشفاء هذا الرجل الذي لم يكن له ، بأعترافه هو ، يد بشفائه .

ولا ننسى هنا أن ساقه قد تعرضّت للبتر لأصابتها بمرض كان من نتيجة الارهاق والاهمال . وليس من السهل أن نتصور طبيباً يغفل عن ساقه ويهملها حتى تصل هذا الحد الخطر .

وهذا التهرب من ذكر الطب والتطبيب ، أو مجرد ذكره ذكر الرجل العادي غير الطبيب له ، يجعلنا نرتاب كل الارتياب في حقيقة ادعائه الطب ونصّدق ما نسبه إليه الرجل الانكليزى من انتحاله لهذه المهنة ، وحتى لو لم يرتب الرجل الانكليزى به فأن ظواهر قوله وتفكيره تجعلنا نرتاب في كونه طبيبا ، إذ كيف يمكن لقارىء عاقل أن يصدّق أن طبيبا أوروبياً علمي الذهن تبلغ به البلاهة إلى حد الاعتقاد بأن الثعالب في مسقط تشرب دماء الأسماك ، أو أنه رأى بعينيه أن رجلاً قد مسخ عنزا ، ورأى هذا العنز يتوسل إلى صاحبه ألّا يذبحه ، والأدهي والأعظم أن العنز كان يكلم رفيقه الذي غدا جزاره بلغة عربية فصحى . .

وعدا عن ادعائه للطب فما من مثل آخر أبلغ في الدلالة على حماقته وتبجحه من إدعائه تولي القيادة العامة لجيوش السلطان سعيد ، فلا جيوش السلطان كانت على حظ من حسن الادارة والنظام ، بحيث تتطلب تعيين قائد عام لها بالمعنى الشائع لهذا الاصطلاح في الجيوش الغربية أو الجيوش الحديثة عامة ، ولا كان السيد سعيد من ضعف الحيلة وقلة الدهاء بحيث يتورط فيعهد بقيادة جيشه ، ومن ثم مصير عرشه وحياته إلى أحد غيره ، طالما كان هو موجوداً على رأس الجيش هناك . فإن كان لابد له أن يفعل ذلك فالأولى أن يعهد بها إلى

أحد أقاربه أو وجوه قومه من رؤساء القبائل أو غيرهم . لا أن يعهد بها إلى الشخص مسيحي عابر في البلاد ، غير معروف الأصل والمنبت ولم يتعرف عليه السلطان إلّا منذ أشهر معدودات فقط .

وعدا عن هذا وذاك فليس فيما أورده الشيخ منصور عن هذا الأمر ما يفيد معنى تعيينه قائدا عاما لجيوش السلطان ، وكل ما قاله هو نفسه في هذا الصدد أن السلطان طلب مساعدته في هذه الحرب فأجابه الشيخ منصور باستعداده لذلك كل الاستعداد . . « ثم رحلنا . . وكان السلطان يقود اسطوله في البحر وأخوه سالم يقود الجيش في البر » .

وعدا عن كل ما تقدم فأن الشيخ منصور لم يحدثنا في قصته عن انجازاته فترة توليه القيادة العامة سواء من حيث التدريب والتنظيم في أوقات السلم أم من حيث التعبئة والتخطيط للحرب أو من حيث خوضه للمعارك وشق الصفوف . . وكل ما يذكره في هذا الصدد هو ثلاث مآثر قيادية تكشف بجلاء ووضوح عن مقدار ارتباكه أو غفلته أو جبنه أو الثلاثة معاً .

فالمآثرة القيادية الأولى كانت في نصحه للسلطان بأن يسبح الى أقرب قارب موجود للنجاة بنفسه من هجوم مباغت قامت به فئة قليلة من جند العدو فأوقعت في صفوف جند السلطان الهلع والأضطراب ، وبدلا من أن يصمد قائدنا ليجمع الصفوف ويعيد النظام ويستميت بالدفاع عن سيده السلطان نراه ينصح له بالهروب من المعركة ، وبطريقة مزرية ، هي أن يرمي بنفسه الى البحر ويسبح الى أقرب قارب ينجيه ، ولا ندرى كيف يتهيأ للسلطان أن يسبح في البحر وجند العدو تملأ المكان وهل يخلع ملابسه أمام جنده وجند عدوه فيكون هدفاً لسخريتهم وازدرائهم أم يقتحم البحر بملابسه فتكون النكتة أعظم والعار أكبر دون أن ينجيه هذا أو ذاك من نيران العدو أو ربما حتى من سيوفهم ، ولكن الأمر من ذلك أن يبقى الحادث حديث البدو والحضر والصديق والعدو وهي سبة لا يرضى بها العربي الشجاع فكيف يرض بها سلطان القوم وسيد البلاد .

وكانت مأثرته الثانية حين كان يسير وصديقه محمد بن هلال على رأس رتل من جنود البلوش فاشتبك في الظلام بما ظنه ربيئة أو كمينا للعدو . فأضطربت صفوف جنودهما وأختل نظامهم ووقع منهم العديد من القتلى والجرحى ، ومع أنه لم ينسب هذه المرة ، وخلافا لعادته ، لنفسه دورا ما في هذا الأشتباك السريع ، فالمهم أنه حين أسفر الصباح عن ضوئه لم يجدوا للعدو أو قتلاه اثراً قط ، مما دفعهم إلى الظن أنهم من شدة الخوف ، والأرتباك « كنا نقاتل بعضنا بعضاً وهي حال كثيرا ما تتعرض لها الجيوش العربية في حالات الأرتباك والفوضى » . والفقرة الأخيرة أفك وتبريز واعتذار .

وكانت ثالثة مواقعه الحربية حين أوعز له السلطان ، وهما في عرض البحر أن يخف الى نجدة قواته البربة التي أطبق عليها جيش العدو وأوشك أن يبيدها ـ بأن يذهب الى الساحل بزورقين مسلحين بالمدافع لقصف جيش العدو من الخلف بغية زحزحته وتخفيف ضغطه المتزايد على جيش السلطان .

ولكن المعركة انتهت قبل وصول قائدنا الى الساحل فلم يوفق الى فتح النار وهو بالمناسبة ـ وهذا أدعاء آخر . ضابط مدفعي ايضاً وأن لم يجرب كفاءته هذه قط . ولكن ما هو أفظع وادل على الجبن والخيانة هو تصرفه الآخر في اثناء هذه المهمة ، فبعد أن اكتسح العدو جيش السلطان ووقع فيه قتلا وابادة اقتحم بعض جند السلطان البحر للنجاة بأرواحهم من سيوف مطارديهم ونيرانهم ، فلمارأوا قاربي السلطان اتجهوا اليهما وتشبثوا بهما بأمل انتشالهم من الماء ، ولكن قائدنا الشيخ الدكتور الأيطالي لم يستطع أن ينظم هذه العملية وخاف أن يؤدى ازدحام قاربه بالناس الى غرقه هو فأخذ يدفع الجنود ويضرب على أيدى المتشبثين منهم بالقارب بحد سيفه فيقطع ايديهم « ونرمي بهم إلى البحر حيث تبتلعهم الامواج العاتية الواحد بعد الآخر ونحن ننظر إليهم » .

وليس هذا كل ما في الأمر فحسب ، بل الادهى من ذلك أنه لايدع فرصة تمر إلاّ واثنىٰ فيها على جيش عدوه وحسن تنظيمه ودقة خططه وشجاعته

واقـدامه ، ومـا قام بـه ضد جيش سلطان من أعمـال ينظر اليهـا بمنـظار الثنـاء والتقدير ولا يخفي اعجابه بها . وهو لم يدخر مدحاً وأكبارا الآ واضفاه على مطلق المطيري قائد هذا الجيش وأطنب في وصف مزاياه القيادية وسجايـاه الشخصية ، حتى ليظن المرء أنه مدفوع من الوهابيين لكتابة كتـابه هـذا لولا أنـه لم يتورع عن التهجم عليهم في بعض الأحيان كما سيأتي بيان ذلك بعد حين .

أن حقيقة أمر هذه القيادة ـ أن كان لها ثمة من حقيقة ـ لاتعدو في تقديـرنا اصـطحـاب السلطان للشيـخ منصـور في مـوقعتـين أو ثـلاث بـزعم أنـه طبيب السلطان وقد يستفاد من طبه ـ أن صح زعمه ـ في معالجة جرحى الحرب ايضاً ، أو أنه أراد أن يدس نفسه في هذه المعارك تحقيقاً لاغـراضه الخـاصة وبـاعتبار أن « كل أوربي هو أبو مدفع » ، أي خبير بالمدفعية كما يقـول هو ، فقـد استطاع أن يوحي للسلطان بأنه « أبو المدافع » فـأستخدمـه السلطان في معاركـه هذه لهـذين الغرضين المحدودين ، الطب والمدفعية ، وما نظنه كان على علم بأي منهما .

ومهما يكن أمر فأنه لم ينجح في ساحـة الحرب قـائداً كـما لم ينجح طبيبـاً ، والظاهر أن الأنكليز ، وكانوا حلفائ السلطان في معاركه هذه قد أحسّوا بشيء من أمره وأوجسوا منه خيفة ، فنرى أحدهم ، ويدعوه الشيخ منصور بـالمستر « هـ » ويقول عنه أنه ذو نفوذ كبير ، يكلم السلطان في أمره أثناء المعركة وينفي عنه صفة الطبيب ويتهمه بالعمالة والتجسس للفرنسيين ، وقد استمع السلطان لهذا القول وكتمـه في نفسه حتى إذا انتهت المعـركة استـدعى الشيخ منصـور وواجهه بهـذه الأتهامات فدافع الشيخ منصور عن نفسـه دفاعـاً يدّعي أنـه أقنع السلطان وأزال شكوكه ، فلم يعد من بعدها إلى ذكر الموضوع ثانية .

ولكن الواقع كما يبدو لنا أن امرءً بمثـل دهاء السيـد سعيد وحـذره وحسن فطنته وسـوء الظن من حسن الفـطن ، لا يمكن أن يزول شكـه من شخص مثل الشيخ منصور ويصفو له وده وأن اظهر له الصفح والعفران .

ومـا من شك في أن السلطان ظلّ يـراقب هـذا القـادم الغـريبـة اطـواره

ويتعقب اعماله ولعل الشيخ منصور أحس بذلك ، وأدرك أن السلطان يظهر له غير ما يسر وأنه ، على حد قوله « لم يعد يحترمني أو يستمع إلى نصائحي كما كان يفعل ذلك من قبل » . ولذلك فقد قرر صاحبنا الرحيل بعد هذا الحادث بوقت قصير .

وكان كلما استأذن السلطان في السفر إلى ايران استمهله السلطان واستبقاه حتى اضطر الشيخ منصور في الأخير الى الهرب من البلاد على ظهر مركب صغير دون أذن السلطان وعلمه .

رأى سفر وأن مما يبعث على الغرابة والعجب أن يقدم طبيبنا وقائدنا ومنصورنا على مثل هذه المخالفة لأوامر السلطان ، أو مثل هذا السلوك المخالف ولابسط قواعد المجاملة والأدب ، فهل لذلك من علاقة بوشاية الرجل الانكليزي به . لكن الأغرب من هذا أن لا ينجح الشيخ منصور في محاولته هذه ، فبعد اسبوعين من المغامرات والأهوال التي يدعيها في البحر ضد العواصف والانواء وضد القراصنة واللصوص اضطر إلى العودة إلى مسقط من حيث أتى ، وهرع من فوره إلى برزة السلطان ليروى له ما حدث ، ولكنه لم يرو لنا ما حدث له مع السلطان في هذه المقابلة إلاّ أن السلطان أمر بنقله إلى ايران على احدى سفنه .

وقد عاد الشيخ منصور الى مسقط عام ١٨١٤ لأسباب نجهلها ولمدة لانعلمها ، وكما أخفى علينا مؤلفنا طريق وصوله الى مسقط أول مرة وكيفية تعرفّه بالسلطان فقد أغفل هنا هذه المعلومات ايضاً ، فلم يذكر كيف قابل السلطان أو قابله السلطان بعد عودته هذه وكل ما نعلمه أن السلطان أمر له أن يذهب لرؤية بعض مدن عمان الداخلية مثل نزوة والرسناق .

ومن غرائب الشيخ منصور المدهشة أنه يحدثنا في كتابه عن الأحداث التاريخية في مسقط في فترة غيابه عنها بين عامي ١٨١٠ ـ ١٨١٤م أو على الأقل ما وقع له من احداث عامة أو خاصة .

* * *

وإذ عـرفنا بعض الشيء عن حياة الشيخ منصور فعلينا الأن أن نستكمـل معرفتنا به من خلال التعرف على كتابه .

وقبـل البدء في الكـلام عن موضـوع هـذا الكتـاب ، يقتضينـا الأنصـاف والأقـراربا لحق وواقـع الحال الى الأعتـراف بـأن نشر هـذا الكتـاب يستلزم منـا الأعتذار الجم الى جميع الأطراف الوارد ذكـرهم فيه ، لمـا تجنـى به المؤلف عليهم من باطل القول ومن افتراء على الحق وامعان في الضلال والجهل ،

ومـع أن المؤلف قد استهـل كتابـه بكـلام عن الأسلوب العلمي في تحقيق التاريخ وكتابته ونصح بوجوب ايثار الحقيقة التاريخية والأستهانة بكل جهـد يبذل في سبيل البحث عنها والوصول اليها ، كما نصح بوجوب التزام الصدق والأمانـة في النقل والرواية والتدوين . الا أنه لم يلتزم بهـذا النصح الـذي اسداه ولم يتبـع المنـهـج الذي أوص بـه ، ولا ندرى هـل حاول المؤلف حقـاً ما يـدعيه فـأخطأه السبيـل أو أخطأ هـو السبيل ، أم أنـه تقدم بهـذه الديبـاجـة من بـاب التبجـح والأدعاء الذين يسمان كل تصـرفاتـه ومهما يكن من أمـر ، فنرىٰ أننـا في النتيجة ملزمون الى الأعتـذار لا الى الأطـراف المعنيـة بهـذا الكتـاب وحسب ، بـل الى الحقيقة التاريخية التي يدعو مؤلفنا الى ايثارها لما ظلمها به وجنى عليها رزوّر فيهـا واضاف اليها واتقص منها حسب ما شاء له جهله وأوحى له به غـرضه المبيت أو ساقه إليه خياله السابح في ضباب احلام العظمة والغرور .

فـالكتاب كـما هو ظـاهر من عنـوانه هـو « تـاريـخ السيـد سعيـد سلطان مسقط ، ومعـه تاريخ الشعوب والأقطار على سواحل الخليـج الفارسي وبخـاصة الوهابيون » .

وفي هذا العنوان بالذات خطأ ظاهر ، فالوهابيون ليسوا شعباً مستقلاً وأنما هم بعض من الشعب العربي يجتهد اجتهاداً دينياً معيناً دعى إليه وأسسه الشيخ محمد عبد الوهاب فسمي اتباعه بالوهابيين نسبة أليـه ولكنهم يستنكرون هـذه التسمية ويسمـون أنفسهم أهل التـوحيـد ، ولعـل تسميتهم بـالسعـوديـين أفضـل واعم واشمل .

ومهما يكن شمول العنوان واتساعه ، فالكتاب في واقعه يبحث (أولاً) في بعض أخبار السيد سعيد وطريقة وصوله الى الحكم مع رواية اخبار بعض معاركه مع القواسم والوهابيين ، ثم ينتقل (ثانياً) الى سرد تاريخ الوهابيين وتاريخ ظهور المذهب الوهابي وانتشاره مع محاولة توضيح بعض احكامه ثم يحاول (ثالثاً) أن يذكر بعض تاريخ القواسم ونشاطهم الحربي في المياه الغربية .

أما ماخلا ذلك من أجزاء الكتاب فمجرد ملاحظات ومشاهدات للمؤلف نفسه عن جغرافيا البلاد وطبائع سكانها وبعض عاداتهم الأجتماعية وطرائق معيشتهم ، وما وقع للمؤلف من قصص وأخبار أثناء أقامته في مسقط . وهي في مجموعها معلومات سطحية تطغى عليها المبالغة والأوهام مما أعتاد الغربيون أن يكتبوه عن العرب .

ومن الطبيعي أن يتبادر الى الذهن ، والمؤلف يزعم أنه طبيب السلطان وقائد جيوشه وموضع ثقته وصداقته والكتاب - في عنوانه على الأقل - في تاريخ هذا السلطان أن يكون هوى المؤلف مع سيده السلطان فإن لم يؤثره بالمديح والأطراء فإن يتجنب على الأقل ، النيل منه والأساءه إليه بدون وجه حق ، ولكن مؤلفنا لم يكن كذلك قط فهو وأن لم يجرأ على مهاجمة السيد سعيد صراحة ومباشرة فأنه لم يدخر فرصة الا واستغلها للتعريض به من طرف خفي وتلميحا لاتصريحا .

والمشاهد في بداية الكتاب وفي خلاله أنه واضح العطف على كل من يقف في الصف المخاصم للسيد سعيد كالسيد بدر بن سيف والسعوديين وغيرهم ، وأضافة الى ذلك فهو واضح ايضاً في محاولاته للنيل من السيد سعيد والتقليل من شأنه .

وما كان لمؤلفنا أن يفعل هذا لولا تحيزه في طبعه ولوم في خلقه أو غرض في نفسه فإذا تركنا وجوب الوفاء وعرفان الجميل للسيد سعيد ، وهما ما يقتضيه الادب والخلق الكريم ، فانه ليس مما يستساغ لمؤلف مؤرخ مثل صاحبنا يدعّي الالتزام بالنهج العلمي وبالصدق والأمانة أن يطلق احكامه العامة على السيد

سعيد وهو لم يعرفه ولم يتصل به الا لفترة وجيزة لم تبلغ العامين امداً وفي علاقة لا نعرف في الواقع وعلى وجه التحقيق طبيعتها ومداها .

* * *

وكان السيد سعيد يمر وقت ذاك في احرج أوقات حياته واخطر ايام حكمه ، إذ لم يكن قد استعاد عرشه واستقل بالحكم الا منذ سنتين أو ثلاث فقط ، وقد اثقلت كاهله الهش وصباه الغض اعباه الحكم وصعابه وتضافرت على تهديد مركزه الجديد دسائس الطامعين في عرشه من أبناء بلاده ، وبينهم بعض من عمومته وخؤولته وابنائهم واطماع المغيرين على البلاد من خارج الحدود والراغبين في احتلالها واخضاعها لنفوذهم ، وهو بعد قليل التجربة والخبرة وفي مقتبل شبابه اذ لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد .

ولو لم يكن السيد سعيد امرءً موهوبا وعلى جانب كبير من الفطنة واللباقة وشجاعة القلب وهمة النفس ، لما أستطاع أن ينفذ من كل هذه الأخطار ويذلل هذه الصعاب ويتغلب عليها ، وأن يستمر في الحكم ستا وخمسين عاماً في عصر كثير القلق سريع التغيير ، وفي معترك تيارات سياسية دولية عنيفة وحروب خارجية مستمرة وفتن داخلية عارمة دائمة .

وكان السيد سعيد قد تولى الحكم وهو بعد فتى صغير . فقد أغتيل أبوه وهو في حدود الرابعة عشرة من عمره ، ومع أن أخاه سالما كان يكبره بعام وبعض العام فقد استقر الرأى على أن يخلف سعيد اباه في الحكم وأن يقوم أخوه سالم الى جانبه سنداً ومعيناً .

وكان أبوهما السيد سلطان بن الأمام احمد بن سعيد من خير الرجال بسطة في الجسم ومهابة في المحضر وصلابة في العزم وعلّوا في العزيمه وشجاعة في الشدائد ، وجرأة على افتحام الأمور ، كما كان من خيرهم حكمة وروية وحزماً وبعد نظر وحبا للعدل والأنصاف وترفعا عن صغائر الأمور ومظاهر الغرور . وعلى هذا وذاك فقد كان القائد المحنك والسياسي الفطن والحاكم القوي الذي تحتاجه البلاد في دورها الأنتقالي الذي كانت تمّر به . وكان السيد سلطان قد

وعى ابعاد هذا الدور وأدرك مداه ، فبدأ يسعى لأرساء بنيان دولته على اسس سليمة من الوحدة والعدالة تضمن لها من بعد طول البقاء ودوام الاستقرار .

ومشكلة عمان التقليدية والدائمة تكمن في فرقة أهلها وانقسامهم على بعضهم البعض إلى « امارات قبلية » تحاول الواحدة منهن أن تمد سيادتها على الأخريات وأن تخضعهن لنفوذها فإن لم تستطع الى ذلك سبيلاً آثرت الاستقلال والانعزال أو محاربة من يحاول الاعتداء عليها ، ولذلك فقد ظلت الحروب والفتن في عمان مستعرة مستمرة تطحن ابنائها وتدمر بلدانها ولا تترك وراءها إلا الخراب والبؤس والدمار .

وكان احمد بن سعيد بما اوتي من قوة الشخصية وحسن السياسة وما أبلى به من بلاء حسن في انقاذ البلاد من الأحتلال الفارسي قد استطاع أن يكسب ثقة أهلها وأن يجمع حوله كلمة أبنائها ، فأرتضته الأمة قائداً وزعيماً وبايعته أو بعضها ـ اماماً وحاكماً .

لكن ظروف الأمام احمد اضطرته الى تقسيم البلاد الى اقطاعيات أو امارات يوزعها بين ابنائه وبعض المقربين من رجاله ورؤساء القبائل فيستقلون بأدارتها وأيرادها ضمانا لولائهم له ، فاعاد بعمله هذا الأمور سيرتها الأولى فرقة وتطاحنا ، ولهذا فما أن رحل الأمام احمد عن هذه الدنيا حتى استجد النزاع بين ابنائه وتحركت من جديد الأطماع الكامنة في صدور الرؤساء والزعماء والتي غطى عليها لبعض الرقت وجود الأمام نفسه . فبدأوا يمالئون هذا الأبن من ابنائه أو ذاك في الثورة والأنتفاض ، أو أن يثوروا هم أنفسهم مستقلين ، وقد ساعد على هذا وذاك ضعف ابنه خلفه الامام سعيد بن احمد .

وقد قبع الأمام الجديد في الرستاق راضياً من الحكم بمظاهره ومن الأمامة التي لم يبايعه بها أحد ـ بأسمها . مما دفع بأبنه حمد الى تولي أمور السلطان وشوؤن العباد فصار الرجل الأول في لبلاده والمدير لشؤونها ولم يترك منها لأبيه إلاّ الاسم والمظهر فقط .

وكان احمد شاباً كثير الطموح واسع الحيلة قـوى العزيمـة وكان عـلى جانب كبير من التواضع وحسن الأدب ، فأستطاع بصفائه هذه أن يجمع على محبته أكثر ابناء البلاد كما استطاع بعزمه ودهائه أن يستخلص لأبيه بعض جهات البلاد التي استقل بها حكامها ، واهمهـا مدينـة مسقط التي اتخذهـا حمـد بعـد استخلاصهـا مقـراً له إلى جـانب الرستـاق مقر ابيـه ، وبهذا وضـع حجر الأسـاس في انقسام جديد للبنية العمانية الى قسمين عرفا بأسم الساحل والداخل ويقصد بـالساحـل مسقط ، وسـاحل البـاطنة ، أمـا الداخـل فيقيـه بـلاد عمـان . وسيكـون لهـذا الانقسام نتائج سياسية وتاريخية هامة في قابل الزمان ، ويضاف ليه انقسام البلاد انقساماً قبليـاً إلى النزاريـة والقحطانيـة أو الغافـرية والهنـائية وسيضـاف إليهما في مستقبل الأيام انقسام جديد هو الامامة والسلطنة .

وقـد استطاع حمـد أن يرضي أو يـرهب منافسيـه وعلى رأسهم اعمـامه ، فهابوه وخافوه ، وأظهروا له الـود والولاء وقبـع كل منهم في بلده ينتـظر نهايته أو ينتظر سنوح الفرصة المناسبة للنهوض والوثـوب ، وكانـوا كلهم كـذلك الا عمـه سلطان بن احمـد ، فقد ظـل ينازعـه الزعـامـة والسيـادة وظـل كـل منهـما يكيـد لصاحبه ، وكانا في واقع الحال ندّين في الطبائع والخلال .

وحـين توفى حمـد بمرض مفـاجيء لم يمهله إلا ايامـاً معـدودات ، انفسـح المجال أمام سلطان فجمع أعنة الحكم في يديه وأصبح الحاكم الفعلي في البلاد .

وقـد ظهرت في عهـد السيد سلطان مشكلة جـديدة سـترسـخ جـذورا في التاريخ العماني ، وسيقدر أن يكون لها آثار قوية بعيدة الغور في مستقبل البلاد . وهي مـا يمكن أن نسميها « ازدواجيـة الحكم » ونعني بهـا انفصـال السلطنـة عن الأمامة أو انفصال السلطة الزمنية عن السلطة الدينية .

إذ لم يحاول السيد سلطان الادعاء بالامامة أو المطالبة بها بل تركها مجرد لقب رسمي لأعيـه سعيد القـابع في الـرستـاق وأن لم يعتـرف بـه أحـد واتخـذ السيـد سلطان لنفسـه ولذريتـه من بعـده لقب السيـد ولم يكن لقب السلطان قـد انتشر

وذاع بعد، وزاد في حدة الفرقة والأنفصال أن السيد سلطان انتقـل كما فعـل قبله احمد بن الأمام سعيد الى مسقط وأتخذها عاصمة له ومقراً للحكم الجديد وظلت كذلك حتى يومنا هذا ، تاركاً أخاه سعيداً في الرستاق لايملك من الأمر شيئاً .

وكان لهذا الأنتقال الجغرافي آثار عميقة في زيـادة عزلـة عمان الـداخل عن السلطنة وابتعادهما عن بعضهما البعض ممـا أدى إلى توسيـع الصدع بـين الأمامـة والسلطنة وإلى نوع من الأزدواجية في الحكم التي سيظهر اثرها ويشتد مـع مضي الأيام ومرور الزمان ، حتى صارت البلاد ـ في آخر الأيام ـ تعرف بسلطنة مسقط وعمان ، وكأنهما قطران منفصلان وكان واقع الحال أن السلطان لم يكن يملك من أمو عمان ـ أي خارج مسقط ـ شيئاً .

كما أن هذا الأنتقال دفع بـالسيد سلطان إلى نـوع مما نسميه في هذه الأيـام بسيـاسة الانفتـاح التجارى والسيـاسي ، فأنفتحت مـدينـة مسقط أمـام التجـارة الأجنبية وعملائها وبالتالي أمام القوى الدولية المتصارعـة مما خلّف في بنيـة البلاد آثاره الأقتصادية والسياسية والأجتماعية .

وفي هذه المرحلة بالذات ، ولـربما بسبب مـا تقدم من سيـاسة الأنفتـاح ، دخلت عمان حلبة الصراع الدولي بين القوى الأوربية المتكالبة من أجل السيطرة على مياه البحار التي تقع على الطرق الذاهبة من أوربا الى الهند وكانت بريـطانيا وفرنسا بطلتي هذا الصراع القائم آنذاك .

وقد شهدت المنـطقة العـربية في هـذه المرحلة ظهـور حركـة سياسيـة دينية جديدة هي دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد، والتي سنسميها « الوهابية » من بـاب نسبتها الى مؤسسهـا دون أن يعني لك أي انتقـاص من قدر الحـركة أو مؤسسها أو تابعيها . وقد بدأت هذه الدعوة أول أمرها في بلد الدرعية من بـلاد نجد ثم اشتد أمرها وقوى عودها فأنتشرت دعوتهـا الى جميع ارجـاء بلاد الجـزيرة العربية عن طريق ، « رواج هذا الأمر بالنصيحة وبذل المعروف » على حـد قول مؤسس الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، « فأن لم يرج بذلك فبالسيف » . وإذ

لم « ترج » الدعوة بالنصيحة والاقناع فقد اندفع اصحابها إلى فرضها بالقـوة وحد السيف ، فكانت حروبهم مع مختلف بلدان الجزيرة العربية وكان لعمان النصيب الأوفى من ذلك إذ استمرت الحروب والغزوات بين أهلها والوهابيين سنيناً طوالاً .

وقد استعادت الوهابية في حروبها الطويلة مع عمان بقـوة قبلية نـاشئة هي قـوة القـواسم ، وكـانت هي الأخـرى بحكم الجـوار تنـاصب عمـان العـداء ، فأستمالتها الوهابية الى دعوتها ودفعتهـا معها في حـروبها ، وفي حـين كان نشـاط الوهابيين يقتصر على البـر فقط كان نشـاط القواسم الحـربي يمتد إلى البحـر والبر على حد سواء .

هذا سرد وجيز سريع للمشاكل التي كان عـلى السيد سلطان أن يـواجهها ويعالجها ، وقد أوشك بحكمته وفطنته وبشجاعته ورباطة جأشه أن يصل بها إلى حلول ثابتة صائبة لو لم تختطفه يد المنـون على حـين بغتة أثنـاء معركـة بحريـة في الخليج كان وراءها اعداوه القواسم والوهابيون .

وقد ورث ابنه وخلفه الصبي اليافع الصغير سعيد هذه المشاكل وكان عليه وهو في مثل سنـه الغض وقلة خبرتـه أن يعالجهـا ويخرج منهـا والبلاد الى شاطيء السلامة والنجاة .

ولم تقتصر مشـاكل السيـد سعيد عـلى ما اورثـه ابوه منهـا فحسب بـل أن غياب ابيه وغياب شخصه القوي ونفوذه الكبير ، خلق بحد ذاته مشاكل جديدة انضافت إلى المشاكل القديمة ولم تكن أقل منها حدة أو اخف خطراً .

فلم تكن وراثة الحكم وانتقاله من الأباء الى الأبناء أمرا شائعاً أو معترفاً به في بلاد العرب ، وإنما كانت العادة أن يستولي الحكم عند فراغه أقوى المطالبين به واقـدرهم على نيله « واطـولهم سيفا » من أبنـاه الحاكم الـراحل أو اقـاربه أو من العوائل المنافسة الأخرى .

هذا من جهة ومن جهـة أخرى فـما كان من مـألوف العـرب واعرافهم أن

يعهدوا بأمور الحكم والرئاسة في مجتمعاتهم الى الشباب من ابنائهم لمظنة الغرارة والطيش عندهم ، وانما كانوا يعهدون بها الى « شيوخ » القوم وكبارهم ممن عرفوا بالحكمة والكياسة والشجاعة والسياسة والقدرة الحقة على تصريف الأمور في حالة السلم وقيادة الصفوف في المعارك والحروب .

ولهذا وذاك فلم يكن من السهل على قادة القوم ورؤساء القبائل في عمان أن يرضوا بأنتقال الحكم وراثة من السيد سلطان الى ابنه ، وليس لهذا الأبن من البروز في أمور الحكم أو أدارة الحرب ما يؤهله لذلك أو يزكيه ، فهو ما زال حدثاً غرا لا يفقه من أمور الحكم شيئاً وليس مثله من يستطيع أن يقود سفينة الحكم في هذا الخضّم الكبير من المشاكل والأخطار ، وفي البلاد من قادتها وشيوخها من هم أحقّ بالحكم وأقدر عليه بل وفي عائلة الأمام أحمد ، من الأبناء والأحفاد ، من هم أولى بالوراثة أن كان لا بد منها وأجدر بها من هذا الصبي الصغير ، ومع هذا وذاك فكلهم طامع في الحكم ، متكالب عليه لا يدخر دونه جهدا أو وسيلة .

وهكذا تراكبت المشاكل وانطلقت الأطماع من عقالها وتحركت عقارب الأثرة والحسد وبدأت الأخطار تزحف على البلاد .

فتحرك السيد قيس بن الأمام ، عم السلطان الجديد ، في جيشه من صحار قاصداً احتلال مسقط والتربع على عرش السلطنة محل ابن أخيه ، وقد وصل في زحفه الى مدينة مطرح القريبة من عمان ، وهي اليوم ضاحية من ضواحيها ، واحتلها .

كما كان بدر بن سيف بن الأمام احمد ، وهوابن عم للسلطان ، يزحف ومعه جيش وهابي، على العاصمة مسقط للغرض نفسه . وإذ بدأت علامات الفتنة تطلّ برأسها على البلاد فقد تربصّ بقية الزعماء والروساء ينتظرون نتيجة هذا الصراع المثلث الأطراف ليخفّوا ، في نتيجته الى الأنضمام أو الأنقضاض على هذا الفريق أو ذاك بغية اقتناص حصصهم من المغانم والأسلاب .

وتجاه هذه المشاكل قديمها وحديثها ، وآجلها وعاجلها ، وتجاه حداثة عمر السلطان وقلة حيلته ، فقد بدأ عرشه يتزعزع من تحته ، وأوشك على السقوط والأنهيار لو لم يجد له عوناً ونصيراً في شخص عمته السيدة موزة بنت الأمام احمد التي نصبت نفسها وصية على ابن اخيها ونذرت نفسها لابقائه على عرش ابيه ، وكانت السيدة موزة قوية العزم ، صلبة في ارادتها مقدّامة حكيمة ، وقد ساعدها في اداء مهمتها اثنان من أقربائها هما السيد محمد بن خلفان والسيد محمد بن ناصر .

وقد عمل فريق الوصاية هذا على ضرب المتنازعين أحدهما بالآخر ، فاقنعوا السيد بدر بالتخلي عن أصحابه الوهابيين والقدوم ألى مسقط لتولي وصاية الحكم فيها والدفاع عنها ضد زحف عمه السيد قيس .

وسرعان ماتخلى بدر عن أصحابه وهرع الى مسقط فأفزع قدومه عمه السيد قيس فعاد ادراجه الى مقره في صحار مقابل تيسويات مالية بسيطة .

وما أن صفا الجو للسيد بدر حتى بدأ يتطلع الى الأنفراد بالحكم وابعاد أبن عمه عنه ، وكاد أن ينجح في مسعاه وينفرد في دست الحكم وحده لولا أنه أثار الشعور الديني عند أهل عمان بكثرة تقربه من الوهابيين وسماحه لهم بالتدخل - من قريب أو بعيد - في شؤون البلاد ثم بما أشيع عنه من اعتناقه لمذهبهم ورغبته في فرض هذا المذهب بالقوة على أهل عمان .

وقد بدأ السيد بدر يخطط لأنتقال الملك إليه والأستئثار به وأول سبيله الى ذلك هو بالطبع التخلص من سعيد وسالم ابني عمه . ولهذا فقد بدأ بالتفرقة بينهما ثم ابعادهما عن العاصمة ، فعين سالماً والياً على « مصنعة » وسعيداً على « بركا » وأمرهما الا يفارقا مركزي عمليهما الا باذن منه .

وقد شعر السيد سعيد أو أشعرته عمته وأوصياؤه ، بما يجول في خاطراين عمه وما يخطط له ، وأدرك أن الساعة ، ساعة يقضي عليه السيد بدر آتية لاريب فيها ، ولذلك قرر أن يعاجله بالضربة ليتخلص منه وينقذ نفسه ،

وليصفو له خالصاً عرش أبيه الذي أوشك على الضياع .

وقد نفذّ السيد سعيد خطته باغتيال السيد بدر عنه زيارة بدر له في مقره في بركا ، أو في قرية قريبة منها أسمها « نعمان » وبعد أن قضى على منافسه ، شخص السيد سعيد إلى مسقط حيث تولى مهام الحكم شخصياً وظلّ بعدها متربعاً على عرش بلاده زهاء خمسين عاماً .

وتختلف الروايات في تفاصيل مقتل السيد بدر ، وهي أمور قد تهمّ الروائي أو القصصي ، ولكن ما يهم المؤرخ منها أن السيد سعيد ومحمد بن ناصر أجهزا كلاهما أو أحدهما على السيد بدر ثم قتله أو قتلاه بعد مطاردة قصيرة في الحقول والبساتين ، وما يهّم المؤرخ أكثر من كل هذا هو المدلول السياسي للعمل وعواقبه .

ولسنا ممن يستطيع أن يقّر الأغتيال وسيلة من وسائل العمل السياسي ، وبالتالي فلسنا في سبيل الدفاع عن السيد سعيد أو تبرير عمله ، ولكن الأغتيال السياسي ـ شئنا ذلك أم أبينا ـ ومع الأسف الشديد ، كان وما يزال حقيقة واقعة ووسيلة متبعة في العمل السياسي في كل أرجاء المعمورة منذ أن عرف الناس الأجتماع والأنتظام ، ولذلك فلا لوم ولا تثريب على السيد سعيد على فعلته هذه من ناحيتها السياسية ، وما كانت السياسة لتعنى دائماً بمكارم الأخلاق .

هذه هي مجمل الأحداث التي حاول الشيخ منصور سردها في كتابه هذا ، ولكنه وقع منذ البداية في خطأ أساسي كبير جره الى سلسلة طويلة من الأخطاء المتوالية والروايات الكاذبة وبالتالي الى احكام قاسية لا مبرر لها .

وخطأ الشيخ منصور الاول هو اعتبار السيد بدر بن سيف ويسميه احياناً الملك بدر ، أخا للسيد سعيد بن سلطان ، وهو أمر ظاهر الخطأ والبطلان لا ندري كيف وقع به شيخنا المنصور وهو الذي يدعّي أنه حقق واجتهد في هذا الموضوع بالذات وكشف من أسراره وخفاياه ما لم يتيسر لأحد غيره ، وما أوصله الى

صلب الحقيقة في الموضوع . ومع ضخامة هذا الأدعاء وسعته فقد فاته أمر على غاية من الوضوح والبيان يعرفه كل أمرىء في عمان في ذلك الحين وحتى يومنا هذا ويدل عليه بكل بساطة ويسر اختلاف اسم « بدر بن سيف » عن اسم « سعيد بن سلطان » إلا أن يكون مؤلفنا لا يعرف معنى كلمة ابن ، وان ادعي معرفته للغة العربية ، وهو أمر سنعود إلى الكلام عنه ، فهل كان دكتورنا المنصور غافلاً أم مغفلاً إلى هذا الحد أم ؟ كان منعمداً لهذا الخطأ ليرتب عليه نتائجه التي يريدها وهي كون السيد سعيد قاتلاً لأخيه ، وهي الفكرة التي يحاول دوما أن يدسها أو يظهرها في ثنايا الكتاب .

وقد قدمنا القول أن المؤلف يحاول أن ينال من السيد سعيد دون أن يجرأ على نقده علانية كما لاحظنا أنه واضح العطف على السيد بدر كثير التمجيد له ولصفاته السياسية فهل لهذا صلة بعلاقة المؤلف المشبوهة مع الفرنسيين الذين كانوا والسيد بدر على تفاهم وود متبادلين . ولربما لو امتد به ـ أي بالسيد بدر ـ الأجل لعظم أمرهم في مسقط ، وكثر نفوذهم فيها ، وقد اسخطهم ، بطبيعة الحال ، غياب السيد بدر المفاجيء عن سدة الحكم وما تعرضت له خططهم من أنهيار فدفعوا الشيخ منصور الى كتابة كتابه هذا كجزء من حملة دعايتهم ضد الانكليز حلفاء السيد سعيد وأصدقائه .

وعلى كل حال ومهما يختلف الرأى في السيد سعيد واساليبه في الحكم والأدارة ، فمما لا شك فيه ولا جدال أنه كان حاكماً عربياً من أبرز الحكام العرب في عصره ، إن لم يكن ابرزهم على الاطلاق ، فقد كان أطولهم مدة حكم وأكثرهم ذيوع صيت وأخلدهم أثراً وابقاهم على الأيام ذكراً ، وكان هماماً باسلاً ومحارباً شجاعاً وسياسياً لبقاً وكان داهية في فنون الكر والفر ، والتقدم والتقهقر والمخاتلة والمكر والترغيب وهو ما يعرف بالدبلوماسية في لغة هذه الأيام .

وقد استطاع بصفاته هذه ، منتصراً مرات ومهزوماً مرات ومسالماً أو مناوراً

مـرات أخـرى ، وأن يتغلب عـلى مشـاكله وأن يحتفظ بملكـه في عمـان في وجـه خصوم عتاة أقوياء داخـل البلاد وخـارجها ، ومن ثم أن يـوسع ملكـه ويمده إلى الساحل الافـريقي الشرقي حيث أقـام هناك ملكـاً عربيـاً زاهراً ، كـان يمكن له الدوام والاتساع لو لم يوجس الاوروبيون منه خيفة فتآمروا عليه وتنـاولوه بـالهدم والتجزئة والاقتطاع ، ومع هـذا فلم يستطيعـوا إلى محوه سبيـلاً ، وانما جـاء محوه عـلى يد اقـوام آخرين منهم بعض العـرب أنفسهم قبل سنـين قلائـل من أيامنـا هذه [1] .

* * *

هذا ما كان من أمر مؤلفنا مع صديقه وسلطانه السيد سعيد ، أو كان هذا نصيب السيـد سعيد منـه ، فكيف كان أمـره مع الـوهـابيـين ، وهم المـوضـوع الرئيس الثاني في كتابه وما نصيبهم منه .

والأمر الأول الواجب تقريره هنا هو أن مؤلفنا شديد الأعجاب بـالوهابيين كثـير الإحترام لهم دائم الثنـاء عليهم ، والإعـلان عن حميـد سجـايـاهم وطيب خصالهم ، وهو فوق ذلك داعية متحمس لمذهبهم .

وإعجابه بالأمير سعود بن عبد العزيز إعجاب مطلق لا حـد له ، وكـذلك إعجابه بمطلق المطيرى القائد العام للجيش الـوهابي في عمـان رغم أن المفروض أن مطلق هو خصمه وقرينـه ، إذا صحّ قـوله ، بـأنه كـان القائـد العام لجيـوش السلطان .

ويغلو المؤلف في إظهار عواطفـه نحو الـوهابيـين غلواً يدعـو إلى الشك في خلوص نيته ، وبراءة علاقته معهم ويدفع إلى الظن الآثم بأنه كان مدفوعـاً منهم لوضع كتابه هذا لولا أنهم ـ على شديد إعجابه بهم وكثير تمجيده لهم ـ لم يسلموا

---

(١) كان لمحطة صوت العرب في القاهرة دور بارز ـ سيحكم عليه التاريخ ـ في تأليب سكان زنجبار ، العـرب منهم والزنـوج ، ضد سلطانهم حتى أنتهى الأمـر « بالثـورة » عليه وانتقـال الحكم الى يد الزنوج الذين وقعوا بالعرب تقتيلاً وتشريداً وبنسائهم غصبـاً وسبياً وبيعـاً في سوق النخـاسة بيـع العبيد دون أن يحرك المحرضون ساكناً ، غير الاعتراف السريع بالنظام الجديد .

من أوابد جهله أو غرضه .

ولا بد أن القراء يذكرون أن الدافع للشيخ منصور على إقتطاع هذا الجزء الصغير من مؤلفه الكبير والإسراع بنشره ، هو ـ كما يزعم ـ رغبته في تعريف العالم « بالملة المحمدية » ، و « بالوهابيين » الذين كثر الحديث عنهم بعد أن إنتشرت في العالم أخبار إحتلال جيوش محمد علي باشا للدرعية عاصمة الحكم الوهابي السعودي ، لذلك لا بد لمؤلفنا « أن يتعالم » في تاريخ الدعوة الوهابية وفي مضمونها وتعاليمها .

فأما عن تعاليم هذه الدعوة فقد إدعى أنه إلتقى بمبعوث للأمير سعود إلى مسقط فحادثه في شؤون مذهبه وفي شؤون أخرى أيضاً ، وقد نقل لنا في كتابه نص هذا الحوار وفيه ـ على ما يدّعي ـ الشرح الوافي للمذهب الوهابي ، والإيضاح الكافي له ، وما نستطيع أن نظنّ أن مبعوثاً للأمير السعودي يرضى بمجالسة رجل مسيحي ، بل مناقشته في شؤون الدين ، والمدقق في هذا الحوار يجده محض زعم وإختلاق ، كمزاعم صاحبنا الكثيرة وإنه لا يصمد أمام النقد والتدقيق .

ثم إنه « **تعالم** » ثانية فدبج يراعه « تاريخ الدعوة الوهابية منذ ظهورها حتى إنتشارها » وعرج على ذكر حياة مؤسسها الشيخ محمد عبد الوهاب ثم تاريخ علاقتها بالأمراء السعوديين في الدرعية ، ولم يدخر هنا وسعاً في الخلط الواضح والإختلاق الفاضح والزعم الكاذب والإفتئات الصارخ .

ولسنا هنا في سبيل التأريخ للدعوة الوهابية وإنتشارها وبالتالي لتاريخ الدولة السعودية ونشأتها ونموها ، ولا سبيل شرح تعاليم هذه الدعوة أو الإنتصار لها أو عليها ، فهذه كلها مواضيع يضيق بها هذا الكلام الوجيز ، وتخرج بنا إلى المؤلفات الواسعة والأبحاث الوافية ، ومع هذا فلا بد لنا من التنبيه إلى مواضع الخطأ والإختلاف فيما أورده الشيخ منصور عن هذه المواضيع .

فأما عن صميم الدعوة الوهابية وأركانها فقد نسبت إليها **أموراً** هي براء منها كل البراءة ، فمهما إختلف الرأي حول الوهابية فهي ـ إبتداء وإنتهاء ـ دعوة

إسلامية صادقة يشتط أنصارها في الدعوة إليها كما يشتط خصومها في عدائها . ولكنها مهما إختلفت عن المذاهب الأخرى عنها ، فيجمعها جميعها جامع واحد هو لباب الإسلام وعماد فكرته ، وهو الإقرار بالشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله والإيمان بأركان الدين الخمسة ، وما عدا ذلك فإجتهادات قد تختلف بين قوم واخرين ، والإجتهاد ـ كما تقول القواعد الفقهية ـ لا ينقض بمثله ، ولكن مؤلفنا ينسب إلى هذا المذهب ـ ظلماً وعدواناً وكذباً وإختلاقاً ـ بطبيعة الحال ـ أموراً كلها زور وبهتان ، يجل عنها الوهابيون . وهو في هذا يتصور إنه يمدحهم ويعلي من شأنهم ، وقد قيل من قبل : عدو عاقل خير من صديق جاهل . وقد وجد الوهابيون في الشيخ منصور صديقاً جاهلاً كل الجهالة مضراً كل الضرر .

وإذ يعود المؤلف إلى تاريخ الدعوة الوهابية وإلى ذكر سيرة مؤسسها الأول الشيخ محمد إبن عبد الوهاب وعلاقته بالأمراء السعوديين ثم إلى حروب الوهابيين من أجل نشر دعوتهم نراه يخلط في كل هذا خلطاً عجيباً غريباً ويأتي بقصص وأخبار لم يسمع بها من قبل ولم تأت بها الكتب والأسفار .

فقد ذكر أن الشيخ عبد الوهاب والد صاحب الدعوة كان في مدينة الحلة على نهر الفرات من أرض العراق حين رأى في المنام ما يبشره بقرب مولد إبن له يكون له شأن عظيم .

وقد ولد له هذا الولد الموعود في الحلة عام ١٧٥٧ م وسمّاه محمدا ، ثم يبدأ المؤلف بالخلط بين الإبن والأب فينسب إلى الأب التبشير بالدعوة الجديدة ونشرها بين الناس حرباً وسلماً ، فلما « مات الشيخ عبد الوهاب إنتقلت قيادة الدعوة إلى إبنه محمد » ، ولأنه كان أعمى فقد إستعان على أمور الدولة لا أمور الدين بعمه بالتبني المدعو عبد العزيز وجعله وزيراً له ، وقد إستطاع هذا الوزير أن يتابع إنتصارات العم الراحل ، ثم خلفه بعده إبنه سعود الذي مات عام ١٨١٤ فخلفه إبنه عبد العزيز (والواقع إنه عبد الله) القائد الحالي للوهابيين .

وهذا كله ، كما هو واضح ، جهالة وخلط ، ولسنا نريد أن نصحح للمؤلف أخطاءه الكثيرة ، ولكننا نكتفي بالسرد الموجز للحقائق التاريخية البارزة في هذا الموضوع فيتبين للقارىء جهل المؤلف وخلطه .

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العينية من أعمال نجد ، وهي بلدة قريبة من الرياض ، من جهة الشمال الغربي منها وذلك عام ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان بن علي وينتهي نسبه إلى آل مشرف من بني تميم ، إمرأً معروفاً بسعة العلم والتقوى وكان وقت ولادة إبنه قاضياً على المذهب الحنبلي في العينية في نجد . وقد نشأ الولد وترعرع في هذه البلدة ، وما أن تجاوز سن الطفولة حتى ظهرت عليه علائم الفطنة والنبوغ ، فأخذ يدرس العلم على مشايخ البلدة وفقهائها ، فأكمل بغيته منه وهو لما يزل في سن الصبا ، ولمّا بلغ سن الشباب رحل إلى الحجاز وبلاد الشام ينتهل العلم من مشايخ تلك البلاد ، ثم أرتحل ثانية إلى بعض بلاد الإسلام ومنها البصرة ، وهناك من يقول أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد تجاوزها إلى بغداد فكردستان ثم بلاد فارس ، وهناك من ينفي عنه ذلك ، فلمّا عاد إلى نجد بدأ يدعو إلى دعوة التوحيد ، وهو الأسم الذي يطلقه على دعوته وإنما سميت بالوهابية بعدئذ نسبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه .

ويروى في الأخبار أن والده لم يرض عن دعوته هذه ، وطلب إليه الكفّ عنها ولكن الإبن إيماناً منه بصواب نهجه وإستقامة سبيله إستمر عليها ولم يحد عنها .

وكانت نقطة التحول الكبيرة في تاريخ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي هجرته إلى الدرعية عام ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وهو في زهاء الثانية والأربعين من عمره . وكانت الدرعية آنذاك عاصمة أمراء آل مقرن ، وكان الحكم في بلاد نجد تتقسمه خمس إمارات أحدها الإمارة المقرنية وكان حاكمها وقت هجرة الشيخ إليها الأمير محمد بن سعود بن محمد بن مقرن .

وتعَرف الأمير على الشيخ وآمن بـدعوتـه وتعهّد لـه بحمايتـه والدفـاع عنه وحماية دعـوته ونشـرها ثم بـايعه « عـلى دين الله ورسولـه والجهاد في سبيـل الله وإقامة شعائر الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر » ، ودعا الشيـخ محمد بن عبد الوهاب للأمير « بالنصر والتمكـين » ، وكان هـذا الإتفاق بـداية حـركة سياسية دينية كبيرة غمرت أرجاء الجزيرة العـربية مـدة قرن من الـزمان وكلفتهـا الكثير من الضحايا والخسائر في الأنفس والأموال .

وإذ إستـطاعـت الـدعـوة الـدينيـة الجـديـدة أن تجـد لهـا سنـداً سيـاسيـاً وعسكرياً ، وإذ لم تجدِ « النصيحة » والأمـر بالمعـروف ، في رواج الدعـوة وإقناع الناس بها فلم يكن بدّ من اللجوء إلى القوة العسكرية لفرض الدعوة ونشـرها ، وهكذا بدأت حـروب الجهاد لنشر دعـوة التوحيـد ، كما يسميهـا مؤرخو الـدولة السعودية ، وإبتدأت في بلاد نجد أول الأمر ثم زحفت منهـا إلى أطراف الجـزيرة العربية كالعراق والحجاز وبلاد الشام وعمان . وحين توفي محمـد بن سعود عـام ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م ، خلفـه في الحكم إبنه عبـد العزيـز بن محمـد (١١٧٩ - ١٢١٨ هـ / ١٧٦٥ - ١٨٠٣ م) ، فسـار سيرة أبيـه في حمايـة الدعـوة الجديـدة ونشـرهـا بـالقسر والقـوة . وفي عهـده تـوفي الشيـخ محمـد بن عبـد الـوهـاب (١٢٠٦ هـ - ١٧٩٢ م) بعـد أن إطمأن إلى تـوطيـد أسس دعـوتـه وإنتشـارهـا ووجود من يحميها ويعمل على الحفاظ عليها .

وكـان قبل وفـاته قـد عمل عـلى أخذ البيعـة بولايـة العهد لـلأمير سعـود بن عبد العزيز ويقال أنه كان صهراً له فتولى الحكم بعد وفاة أبيه وعرف بالتاريخ بسعود الكبير وقد إستحق سعود هذا اللقب بجدارة وإستحقاق لما إشتهـر به من شجاعة وحكمة وبعد نـظر ، وما عـرف به من الحمـاسة الشـديدة « لنشر دعـوة التوحيد بـالحرب وحـد السيف ، وأخذ كـل من يعارضهـا برأي أو قتـال بالقـوة والعنف » ، وفي عهده (١٢١٨ - ١٢٢٩هـ /١٨٠٣ - ١٨١٤م) عمّت فتوحاته كـل بلاد العـرب وإنتشرت جيـوشه في أرجـائها كـافة من العـراق وحتى الحجاز وعمان ووصل التوسع والنفوذ السعودي - الوهابي في الجزيرة أبعد حدوده .

وقد فتح سعود الحجاز ودخل مكة والمدينة وأدى فريضة الحج مرات عديدة ولأن بلاد الحجاز كانت تتبع الأتراك العثمانيين فقد أثار سعود بعمله هذا غضب « خاقان البرين والبحرين » فعدا عمّا في عمل سعود من إنتهاك صارخ لسلطان الخليفة العثماني ، فقد كان الخليفة يرى في الوهابية خروجاً على تعاليم الدين الحنيف ، لذلك فقد أوعز إلى واليه على مصر محمد علي باشا بالزحف على بلاد الحجاز وإنقاذ الحرمين الشريفين من إحتلال الوهابيين لهما .

ولعل الخليفة العثماني لم يكن مدفوعاً في قراره هذا بشعوره الديني وحده - بل كان ينظر فيه إلى أهداف سياسية أخرى أيضاً . فإن وجود محمد علي في مصر وطموحه المتزايد وضوحاً نحو الإستقلال والإنفصال بها عن الباب العالي ، لم يكن مما يسر الخليفة ويرضيه ، ولهذا فلم يكن زوال حكم محمد علي عن مصر بأقل أهمية عنده من زوال حكم سعود عن الحجاز ، ولهذا فما من سياسة أجدى وأنفع من سياسة ترك الرجلين يقتتلان فيما بينهما ، فأيهما قضى على صاحبه كان الخليفة هو الرابح .

وقد وجدت رغبة الخليفة هوى في نفس محمد علي وترحيباً . فعدا عما تحققه لشخصه من إرضاء لمشاعر العظمة والغرور في نفسه ولطموحه إلى السيادة والبروز فأنها من الجهة العامة تنقذه من ضغط جيشه الموجود إلى جانبه ، وتلهي شعب مصر عما يجد في واقعه الأليم من فاقة وتعاسة بإنتصارات وهمية وأحاسيس دينية شد ما تطرب لها طبيعة هذا الشعب وتستكين إليها .

وعدا عن كل ما تقدم فإن السياسة المصرية منذ أقدم أيام الفراعنة وحتى أيامهم هذه ، تعتبر السودان ثم بلاد الحجاز وما يليها من بلاد اليمن وكذلك بلاد الشام . ولم تكن بلدان الخليج قد ظهرت بعد ، أهدافاً تقليدية ومنافذ للتنفيس كلما ضاقت الأحوال بالبلاد وساءت أمور المعيشة فيها .

ولهذا فقد أسرع محمد علي بالإستجابة لرغبة السلطان وجهّز حملته العسكرية الأولى بقيادة إبنه طوسون باشا عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م الذي سار

من السويس إلى ينبع فالمدينة المنورة ، ولكن قوة الدفاع عنها إضطرته إلى التقهقر ثانية إلى ينبع حيث كتب إلى والده في طلب المدد الذي ما أن وصل إليه حتى عاود الهجوم على المدينة فاحتلها ثم زحف منها على جدة ، فمكة المكرمة ثم الطائف واحتلها الواحدة بعد الأخرى وأجلى السعوديين عنها .

ولكنه لمّا أراد التوغل في الصحراء صوب بلاد نجد ، إلتقى به جيش الأمير سعود في معركة حاسمة قرب تربة ، فمني الجيش المصري بهزيمة نكراء وعاد قائده طومسون باشا إلى المدينة يستنجد أباه في القاهرة مدداً جديداً .

وإضطر محمد علي إلى التوجه بنفسه إلى الحجاز قائداً للحملة الثانية على رأس جيش جديد وافر العدد تام العدة ، ولكنه ما أن وصل المدينة حتى إنتهت إليه الأنباء بقيام إضطرابات في مصر تطالب بخلعه وإبعاده ، فقطع رحلته وأسرع بالعودة إلى القاهرة تاركاً إبنه طوسون في الحجاز ليتفاوض مع الأمير عبد الله بن سعود الذي كان قد خلف أباه سعوداً في الحكم عام ١٢٢٩ هـ - ١٨١٤ م وهو الذي يطلق عليه مؤلفنا إسم عبد العزيز .

ولم يكن عبد الله أقل من أبيه همة وشجاعة ولا أقل منه حماسة في نشر العقيدة وصلابة في الدفاع عنها ، لكنه كان يفتقر إلى ما كان عند أبيه من مرونة سياسية ودهاء .

وقد إنتهت المفاوضات بينه وبين طوسون إلى إتفاق للصلح بينهما على شروط معينة وقد حملها طوسون إلى والده في مصر واصطحب معه وفداً عربياً لينوب عن الأمير عبد الله بالتوقيع على الإتفاق بعد أن يحظى بقبول « جناب ولي النعم » أي محمد علي باشا .

وقد إختلف المؤرخون فيما حدث بعد ذلك فمن قائل أن محمد علي باشا رفضَ الإتفاق وبدأ الحرب مجدداً مع الوهابيين ، ومن قائل أنه شدد في بعض الشروط فرفضها الأمير عبد الله وتجدد القتال بينهما . ومهما تكن حقيقة الحال ،

فالمهم أن محمد علي أرسل عام ١٢٣١ هـ ـ ١٨١٦ م حملته الثالثة ضد السعوديين بقيادة إبنه (بالتبني) ابراهيم باشا .

وقد كتب لهذه الحملة النجاح ، فتمكنت ـ لأسباب عدة يرد معظمها إلى ضعف الجانب العربي لا إلى قوة الجيش التركي ـ من إحتلال الدرعية عام ١٢٣٣ هـ ـ ١٨١٨ م وأسر الأمير عبد الله وإرساله إلى القاهرة ومنها إلى الأستانة حيث لقي مصيراً مؤلماً ما كان يستحقه ، وما كان يليق بدولة الخلافة الإسلامية أن تعامل رجلاً مسلماً وأميراً عربياً كبيراً ، هذه المعاملة الشائنة التي تتنافى مع الشريعة السمحاء التي لا تجيز أسر المسلم كما لا تجيز قتل الأسير غير المسلم ، فكيف بأسر مسلم عربي سيد قومه ثم قتله . فلقد شهّر به في شوارع الأستانة أبشع تشهير وعذب في سجونها أقسى العذاب لحمله على التنصل من معتقده والبرء منه فأبى ذلك إباء مطلقاً بصلابة العربي وكبريائه ، وتحمّل الامه صابراً محتسباً حتى أمر الخليفة بقتله فقطعت رأسه ومثّل بجثته .

ولم يكن فعل ابراهيم باشا بنجد وبأهلها أقلّ فظاعة من فعل سيده السلطان التركي بالأمير عبد الله ، فقد كان ابراهيم باشا طائشاً مغروراً وبه صلف وحمق[١] فعاث في البلاد نهباً وسلباً يحرق الحرث والنسل ، ووقع بأهلها تنكيلاً وتقتيلاً حتى ضج الناس منه بالشكوى فوصل خبر فعاله إلى أبيه فأسرع يطلب إليه العودة إلى مصر في الحال .

ولا نريد أن نمضي إلى أكثر من هذا الحد في سرد الأحداث التاريخية التالية لهذه الفترة فليس ذلك من شأننا ولا يدخل في نطاق بحثنا هذا . وإنما أردنا من سردنا الوجيز والسريع أن نضع الأحداث والوقائع التي أوردها مؤلفنا في كتابه هذا في إطارها التاريخي الصحيح ليتبين القارىء مدى الخطأ والخلط والإختلال

---

(١) بلغ به الأمر بعد ذاك إلى خلع أبيه ، ويقال زوج أمه ، محمد علي باشا نفسه من الحكم بحجة الجنون وتولية نفسه حكم مصر . ولكن محمد علي ما لبث أن إستعاد عرشه ولكنه لم يجلس عليه طويلاً ، إذ وافته المنية وخلفه عليه إبراهيم باشا نفسه .

في الأحداث والأشخاص والتواريخ التي « تعالم » بها على العالم مؤلفنا الشيخ منصور .

* * *

ولعل القواسم كانوا أسعد حظاً من الوهابيين ومن السلطان سعيد ، ذلك لأنهم لم يحظوا بالكثير من مودة الشيخ منصور وصداقته وبالتالي - ولحسن حظهم - فلم يحظوا بالكثير من عواطفه الفياضة بالأفك والبهتان ، فهو لم يتعرض لتاريخهم إلا لماماً ولم يخلط فيه إلا بمقدار ما يتعرض له كل أوربي من خلط بين الأسماء المتشابهة والتواريخ المتقاربة ، إلا أن التجني الكبير الذي إرتكبه المؤلف في حق القواسم هو تعمد إلصاق تهمة القرصنة بهم ، وهي تهمة أكثر الغربيون من تكرارها وترديدها حتى ألفتها الآذان وإن مجتها الأذهان .

وتهمة القرصنة هذه خلقتها وهوّلت فيها ونشرتها بريطانيا ذريعة سياسية لتمكين قبضتها على سواحل الخليج وتأمين سيطرتها على المياه العربية المتحكمة في طرق مواصلاتها إلى الهند ، ولتبرير وجودها في المنطقة جمعاء ، وهذه التهمة لا تثبت أمام التحقيق الصحيح والتحليل العميق ، فما القواسم إلا بعضاً من قبائل عرب الجزيرة دفعتهم ظروفهم إلى السكنى قرب سواحل الخليج ، ومن المعروف أن الحروب والغزوات أمر شائع في الحياة البدوية العربية ، تغزو القبيلة القبيلة طمعاً في أرضها ومائها وكلأها أو إنتقاماً من عمل سابق أو غزوة سابقة ، أو دفعاً لإهانة لحقتها أو لأسباب أخرى متعددة ، وقد تتحالف القبائل فيما بينها فتغزوا الأحلاف بعضها بعضاً فتأخذ الغزوات شكل الحروب .

فالحرب قوام الحياة القبيلة والشجاعة والإقدام أول صفات العربي . والقواسم ، كما قلنا ، بعض من هؤلاء العرب إكتسبوا عادات الحرب والغزو ، فلما - سكنوا على السواحل وإندفعوا إلى إرتياد البحار وركوب الماء نقلوا معهم إلى سطح الماء ما إعتادوا عليه في البر من حروب وعزوات .

وكانت التجارة في المياه العربية آنذاك بأيدي الهنود والبانيان وهم بنظر الشريعة الإسلامية كفرة لم يسلموا ولذا وجب وضع السيف في أعناقهم . وكان

هؤلاء الكفرة هم المسيطرين على التجارة وأرزاق الناس والمستغلين الوضع لصالحهم كل الإستغلال ، فكان العرب بعامة والقواسم بخاصة يرون من حقهم ملاحقة هذه السفن ومصادرة ما فيها كسراً لطوق الإحتكار والإستغلال ، وإذ يقع أصحابها وتجارها في أيديهم فليس لهم إلا أن يدينوا بالإسلام ـ كما فعل بعضهم ـ أو يذوقوا الموت .

ثم دخل الإنكليز الميدان وهم ـ بحكم الشريعة الإسلامية ـ أهل كتاب ، فعليهم دفع الجزية إن كانوا في بلاد الإسلام فإن أبوا ذلك حقّ عليهم ما يحق على الكفّار . ولكن الإنكليز وقد أصبحوا أرباب التجارة والنفوذ وتعصباً منهم لدينهم وتعالياً منهم من الرضوخ لإرادة هؤلاء العرب المستضعفين لم يلتفتوا إلى مراعاة شعور سكان البلاد وأحكام دينهم أو إعطائهم نصيبهم من هذه التجارة الواسعة التي تعبر مياه بلادهم لإغناء الآخرين في حين يظلون هم يعانون المسغبة والفاقة بالإضافة إلى ذلك فإن أكثر ملاحي الإنكليز وبحارتهم كانوا من البانيان والهنود وطوائف وثنية أخرى . فلا عجب أن يحلّ بهم ما حلّ بغيرهم .

وقد أورد تاريخ القرصنة المزعومة خبر السيطرة على سفن تجارية إنكليزية لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، وبالغ في أمر ما وقع لسكانها من تعذيب وتقتيل ، فإن كان هذا هو كل نشاط القواسم وكل جريرتهم فما أقله من نشاط وما أضألها من جريرة .

لكن هذا التاريخ أغفل ذكر العدد الكثير من السفن الأجنبية الأخرى ، إنكليزية وهندية والتي أقامت علاقات تفاهم مع القواسم فظلت ترتاد البحر بسلامة وأمان ، كما عجز هذا التاريخ أن يذكر خبر سطو القواسم على سفينة عربية أو مسلمة أو قتل ملّاح مسلم ـ تعمداً ـ وإن كان على ظهر سفينة من سفن الكفّار ، ومع هذا وذاك فقد أورد تاريخ القرصنة المزعومة خبر أكثر من حادث واحد ، ذكر مؤلفنا الشيخ منصور إحداها ـ عفا فيه القواسم العرب عن بحارة مسيحيين ويهود ووثنيين بمجرد إعلانهم إعتناق الدين الإسلامي ـ وإن كان

سبب دخولهم الإسلام بهذا الشكل هو طلب السلامة والنجاة وليس العقيدة والإيمان .

ولنفترض أن خبر القرصنة صحيح ، وإنها وبأبشع صورها كانت مما يمارسه القواسم في مياه بحار بلادهم ، فهل كانوا في هذا ، القراصنة الوحيدين في تاريخ العالم لم يسبقهم إلى ذلك سابق ولم يلحقهم به لاحق ؟ الواقع أن التاريخ العالمي للقرصنة تاريخ كبير واسع يملأ ذكره المجلدات الضخام ولا يشغل القواسم فيه إلا مكاناً مهملاً صغيراً ، فقد كانت القرصنة ـ أي الغزو في البحر ـ شأنها شأن الغزو في البر عملاً شائعاً في كل مياه العالم في الشرق والغرب والشمال والجنوب كما كانت أعمال الغزو واللصوصية عملاً شائعاً في كل ركن من أركان المعمورة منذ أقدم العصور .

وليس أبلغ في الدلالة على مدى شيوع القرصنة في بلاد الغرب وبالغ أثرها على حياة الناس وتفكيرهم من دخولها إلى ثقافات تلك الأمم وصيرورتها مصدر الإلهام لكثير من أعمال الفن في الأدب والرواية والموسيقى والرسم وموضوعاً رائجاً من موضوعات الأفلام السينمائية في عصرنا هذا .

إذن فما هو السر الكامن وراء هذا التشهير الفاضح بالقواسم دون غيرهم ؟

إن سر الموضوع وعقدته يكمنان ـ كما قلنا قبل قليل ـ في حرص بريطانيا على الحفاظ على طريقها إلى الهند آمناً بعيداً عن تدّخل كل القوى ، سواء الدولية منها أم المحلية .

وقد بدا لها أن ظهور قوى عربية جديدة كالوهابيين في نجد والقواسم في الخليج والعمانيين على المحيط الهندي ، سيهدد هذا الطريق في نقاط عدة ، ويؤدي بالتالي إلى إرباك مواصلاتها والأضرار بتجارتها وإفساد خططها البعيدة للسيطرة على « طريق الهند » .

فمهما يكن الرأي في الوهابية أو عليها فهي في التقييم التاريخي القومي الصحيح ، وبصرف النظر عن محتواها الديني وعن عنف أساليبها ، حركة سياسية عربية طموحة تهدف إلى توحيد بلاد العرب كافة تحت سيطرتها ، وهذا ما يؤدى إلى صيرورتها قوة كبرى تهدد مواصلات الإنكليز وخططهم في المنطقة ، ولربما طمحت في مستقبل قريب إلى أن تمدّ بصرها إلى مسلمي الأقطار المجاورة ، وفي الهند منهم مئات الملايين ، وهذا ما يضاعف من خطر هذه الحركة العربية الجديدة ويستلزم الإسراع في القضاء عليها وتفتيتها .

ومن الجهة الثانية ، فقد أصبح القواسم قوة بحرية لا يستهان ببأسها وهي تزداد قوة ، ونفوذاً ، يوماً بعد يوم . وهي وإن تكن غير ذات طابع سياسي في أول أمرها فإن إتفاقها مؤخراً مع الوهابيين أضاف إليها بعداً سياسياً جديداً كما أضاف إلى الوهابية وجوداً بحرياً قوياً إضافة إلى وجودها البري وبهذا زاد الخطر ، وصار العمل على زواله أكثر لزوماً وبأسرع وقت ممكن .

لكن القضاء على قوتي القواسم والهابيين سيترك عمان ، التي بدأت نهضتها الجديدة حديثاً ، سيدة الموقف في المنطقة ، وهي الأخرى لا تؤتمن على مصير المنطقة . وإذ لا قبل للإنكليز بمواجهة هذه القوى العربية جميعها مرة واحدة ، فقد عمدوا إلى سياستهم التقليدية ، سياسة فرق تسد ، ففرقوا بين هذه القوى وأثاروا ريبة بعضها بالبعض الآخر وضربوا بعضها ببعض ، يساعدون هذا على ذاك ، حتى إذا قوي أمره وإشتد ساعده تركوه إلى خصمه يمدونه بالقوة والمدد ليقف في وجه حليفهم السابق وهكذا إنتهى الأمر إلى إضعاف هذه القوى وتفتيتها وتمكين سيطرة الإنكليز على أكثر أجزائها .

* * *

وبعد ، فهذا ما كان من أمر مؤلفنا الشيخ منصور مع أصدقائه ومعارفه ، لم يسلم أحد منهم من الطعن به والإساءة إليه ، ولم يدخّر فرصة إلا وأعلن لنا فيها عن جحوده وجهله وغبائه ، وعن إدعائه ، في نفس الوقت ، العلم والمعرفة

وبذل الجهد في التحرى عن حقائق الوقائع والأحداث وإلتزام الصدق والأمانة في سردها وتدوينها .

ولرب سائل يسأل هنا - وعن حق - إذن فما ضرورة ترجمة هذا الكتاب ونشره وهو على هذا القدر من التزوير والإفتراء أو على الأقل من الجهالة والإدعاء ؟ .

ونحن وإن كنا قد قدمنا الإعتذار إلى كل من يتناولهم هذا الكتاب بالذكر والحديث لما عسىٰ أن ينالهم ما فيه من خلط وإفتراء فإننا لن ننتحل الأعذار هنا لتبرير إختيار هذا الكتاب والإقدام على ترجمته ونشره وذلك لسبب واضح وبسيط هو أننا نرى ذلك ضرورة لازمة وأمراً واجباً ليطلع أبناء أمتنا العربية على كتاب نادر الوجود معدوم الأثر كثر الكلام عنه والإستشهاد به ، وقلّ من قرأه أو عرف عنه شيئاً ذا بال ، والأهم من هذا هو ضرورة إطلاع أبناء هذه الأمة على وجهات نظر الآخرين عنهم مدحاً كان ذلك أم ذماً ، وحقاً كان أم باطلاً ، ليتعرفوا على حقيقة رأي الناس فيهم وليتعرفوا طرائق تفكيرهم ومقومات ثقافتهم .

فليس عاراً أن يكتب عنا الآخرون ما يشاؤون ، ويشاء لهم جهلهم وغرورهم ، أو ما ينضح به غرض نفوسهم أو هوى قلوبهم ، فلا بد لكل أمة طويلة التاريخ عريقة في القدم عراقة أمتنا العربية ولها مثل مركزها الجغرافي ودورها الحضاري أن يكثر حسادها والطامعون فيها والحاقدون عليها والمتربصون بها الدوائر ، ولا بد أيضاً لمثل هذه الأمة العريقة أن يكثر الكاتبون عنها والباحثون عن أحوالها عبر تاريخها الطويل . وأن يكون بينهم الصديق الصدوق والعالم المنصف والخصم اللدود والحقود المفتري الذي يتعقب الأخطاء والعيوب ويتسقطها فإن لم يجدها إختلقها إختلاقاً ووضعها وضعاً . ثم الجاهل المتخبط الذي قد تحسن نيته ولكن تقصر همته عن إدراك المرام فينزلق إلى مهاوى الخطأ وخطل الرأي . وبعد هذا كله فلا بدّ في تاريخ مثل هذه الأمم أن تختلط

الحقائق بالأوهام وتمتزج الوقائع بالخيال وتشتبك العقائد بالأساطير وقد عرف تاريخنا العربي في كل أدواره نماذج من هذه الأنماط ، فكان الشعوبيون والمستعمرون والمستشرقون والمستعربون ثم جاء المستخلجون ، والمستنفطون ، إلا أن كل هؤلاء لم يؤثروا شيئاً في بنية هذه الأمة العربية لعراقة جذورها وصلابة عودها ولم يقللوا من دورها المعطاء فكراً وحضارة للدنيا جمعاء .

فليس العار ، كما قلنا ، أن يكتب عنا الآخرون ما يشاؤون ، فهو أمر لن يضيرنا في شيء وليس لنا - في الواقع - إلى منعه من سبيل . وإنما العيب كل العيب والضير كل الضير أن نتجاهل هذه الأقوال ونثور بها ونغلق دونها العيون والآذان لأن تجاهل الأمر لا يزيله والثورة عليه لا تنفيه ، عدا عن أن هذا وذاك سلوكان طفوليان غير بنائين وهما أدل على الضعف وقصور الحيلة منهما على القوة والثقة بالنفس .

والأمم كالأفراد لا يثور منهم بالكلام ويضيق به إلا ضعيف العزم واهن الهمة أو البليد العاجز عن الحيلة المرتاب في قدرته وقدره . أما من كان قوياً في شخصه عريقاً في حسبه واثقاً من نفسه واسع أفق المعرفة والإدراك وافر القدرة والطاقة فإنه لا يجد في النقد واللوم بل حتى في الإفتراء والهجاء مهما قسى وأشتد ، ما يستوجب الثورة والهياج وإنما يجد فيه ما يدفعه إلى العمل السليم والرد البناء .

وإذ خرجت أمتنا - بحمد الله - من عصور الضعف والإستكانة واستعادت ثقتها بنفسها وإعتدادها بتراثها وقدرتها على إداء دورها التاريخي ورسالتها الحضارية وإذ تجاوزت طور طفولتها الفكرية والسياسية إلى دور النضوج والرشد والإدراك الواسع والوعي الصحيح ، وخلّفت وراءها مشاعر الخوف والتعصب وضيق الأفق ، فقد آن لها الآوان أن تنظر في أقوال الآخرين عنها بوعي وإدراك ، وإن خالفوا بأقوالهم آراءها ومشاعرها وافتروا على تاريخها وتراثها ، وأن تعمل بنفس هادئة وصدر واسع وفكر ثاقب على نفض الغبار عن

تراثها وتنقيته من شوائب الهدامين والحاقدين وبعثه من جديد هدى للناس ورفداً للفكر العالمي وحجراً يلقم كل من يريد بها سوءً من أمثال صاحبنا الشيخ منصور .

وأخيراً ، وكما قلنا في صدر الكلام ، فقد كثرت الإشارة إلى هذا الكتاب والإستشهاد به والإقتباس منه عند بعض المؤلفين العرب وغالبهم ، كما قلنا من قبل أيضاً ، لم تكتحل عيناه برؤية صفحات هذا الكتاب وإنما هو النقل والتقليد . وأكثر من هذا وذاك وبسبب الجهل والمحاكاة فقد إتخذ هذا الكتاب وبعض محتوياته أداة إتهام أو دفاع في نزاع دولي شهير بين بعض الأشقاء العرب فكانوا يقتطعون منه ما يوافق هواهم غافلين عن بقية ما فيه مما هو ضد مصلحتهم وهواهم ، حتى إكتسب هذا الكتاب قيمة ليس له وقدراً لا يستحقه ، فأي ضير في تقديم هذا الكتاب إلى القراء العرب بكامله ليعرفوه على حقيقته وليعرفوا ما كانوا فيه يعمهون . .

* * *

وبعد فقد رافقنا الشيخ منصور في أطول صحبة ممكنة لنا معه على بعد الزمان والمكان وسايرناه في هذه المسيرة الطويلة الغامضة ، نحاول أن نتعرف على أحواله وأن نستنطقه أخبار رحلاته ودخائل حياته ، فهل كشف لنا الشيخ منصوراً وكشفنا نحن بعضاً من هذا أو ذاك ، وهل نستطيع الآن أن نجيب على ما أثرناه من أسئلة في أول هذا الكلام وأن نعرف من هو الشيخ منصور أو ما كانه أو من كانه ؟

فهل هو رحالة عابر حاول النفوذ إلى الحقيقة فاجتهد وأخطأ ، أم أنه دعيّ نصّاب يتعيش من التسكع والتجوال أم أنه عميل لجهة ما يتنقل بأوامرها وعلى حسابها أم أنه كان هؤلاء كلهم مجتمعين في شخص واحد ، أم أنه ما كان أصلاً ؟

ما أظن أن صحبتنا الطويلة للشيخ منصور في حله وترحاله وفي تفكيره وأعماله قد كشفت لنا سراً أو حلت لنا لغزاً بل ولعلها زادتنا حيرة وشكاً في

حقيقة أمره ، حتى ليغتلي إرتيابنا في حقيقة أمره إلى حد القـول بعدم وجـود مثل هذا الشخص مطلقاً وأن الشيخ منصور وقصته وكتابه هي كلها من إختلاق جهة مـا أرادت أن تقول مـا قالتـه وأن تنفث سمومهـا وتشفي غليلهـا وراء ستـار من السرية والكتمان فخلقت الشيخ منصور وجعلته بطل قصة موضوعة تافهة السرد ضعيفة الحبك تقوله ما تريد هي أن تقول .

ولا يخلو إرتيـابنا هـذا من دليل أو أكـثر يؤيده ، فـإننا نـلاحظ أن المؤلفين المعاصرين لتلك الفترة من الذين زاروا مسقط وتعرفوا على سلطانها السيد سعيد من أمثـال جيان وكـورانيز وغيـرهما لم يـذكروا الشيـخ منصور في عـداد حـاشيـة السلطان سعيد ، رغم إهتمامهم بجميع تفاصيل الحياة في القصر العمـاني ، وما كـانت شخصية طبيب أوروبي في بـلاط السلطان سعيد بـالأمر الـذي يفلت عن المشاهدة والإهتمام ، وأكثر من هذا فإن التقارير البريطانية لم تذكر شيئاً عن هذا الرجل وكان وجوده جديراً أن يثير إهتمامها لقربه من السلطان وميله الواضح إلى أعدائهم الفرنسيين وخاصة وأن هذه التقارير كانت تسجل بـدقة ومثـابرة كـل ما يقـع في بلاط السلطان من أحـداث جليلة أو تافهـة ويومـاً بعـد يـوم ، بـل إنها سجلت فعلاً وجود طبيب فرنسي عند السيد سلطان والد السيد سعيد .

وأما الجهة الخالقة أو المختلقة فهي لا تعدو أن تكون فرنسـا نفسها لجـأت إلى هـذه الوسيلة في حـربها الـدعائيـة ضد إنكلتـرة وضد السلطان السيـد سعيد الذي إحتل عرش عمان بعد إغتيالـه حليفها السيـد بدر ، وكـانت خسارتهـا له إفساداً لخططها في السيطرة على المنطقة عن طريقه .

وعلى كل حال ، وسواء وجـد الشيخ منصـور وعاش حقـاً أم إختلق أمره إختلاقاً فهو على الحالين وفي إدعائه وجهله وغبائه ، لا يعدو كونه رائداً تقـدم به الزمن لطبقة من الوافدين الذين ابتليت بهم هذه المنطقة من قديم الـزمان ، ومـا تـزال تعج بنمـاذج من أمثالـه أو بمن يبزونـه أشواطـاً في الدعـوى والإحتيال وفي اللعب عـلى الحبال وأكـل المال السحت وإستحـلال الحرام ثم التـظاهر بـالعفـة

والتقوى وبعلم ما لا يعلم من شؤون الكون والأفلاك ، ولعل سوء حظ الشيخ منصور وجريرته أنه سبق الزمان وجاء قبل الآوان فإنكشف سره ، وافتضح أمره ، وإلا فلو تأخر به زمانه وجاء هذه الأيام لوجد له مرعىً خصباً وزملاء وصحباً من مستخلجي أو مستنفطي هذه الأيام ، ولعاش في أمن وهناء ولأضاف إلى إدعائه بمهنة الطب وقيادة الجيوش وهندسة المدافع إدعاءات أخرى بعلم النفط والقار وعلم الإدارة والمال وفنون « البزنز والقومسيون » ولغة الطير والحيوان وربما كتابة الأدعية والحجابات وتنظيم حلقات الذكر والزار والمندل والتأليف في علوم الأولين والآخرين .

وإذا إنتهينا من موضوع الغرابة في الكتاب، فعلينا أن نتحرى الآن وجوه الطرافة فيه . والواقع أن الطرافة تسرى في ثنايا الكتاب وتترقرق بين سطوره ، فأخباره على غرابتها وإختلاقها وإدعاءاته على سخفها وبطلانها لا تخلو جميعها من المتعة والطرافة ، وخاصة حين يريد حملنا على تصديق أمور يعتقد هو بصعوبة تصديقنا لها كجلوسه للمفاوضة مع مطلق المطيرى قائد الوهابيين أو محاورته مع مبعوث الأمير سعود في شؤون العقيدة والسياسة والحرب ، أو حين يروي لنا قصصه الخاصة كخبر الرجل الممسوخ عنزاً ، والذي كان يتوسل إلى الجزار بلغة عربية فصحى أن يعفيه من الذبح أو قصة جاريته السوداء « طرنجة » التي كانت تخاف منه أن يأكلها أو غير ذلك من قصص الخرافة والمبالغة وهو في كل هذا القصص والإدعاء وحين يريدنا أن نصدق هذه الأقوال ، إنما يكشف لنا عن عقل غر وذهن ساذج يستحق معه لا لقب الشيخ منصور وإنما « لقب الشيخ عبيط » .

وتضفي لغته وأسلوبه على طريقة روايته مسحة من البساطة الحلوة والطفولية السمحة التي تحبب للمرء قراءة ما يكتب هذا الشيخ العبيط وتغفر له ما يتورط فيه عامداً أو جاهلاً من جسيم الأخطار والهنات .

ولعل الكتاب في لغته الإيطالية ـ إن وجد ـ لم يكن على هذا الشكل

البسيط اليسير وإنما صار إلى ذلك بسبب قصور الترجمة وضعف أداة المترجم .

وقد أسهب المؤلف ـ كما قلنا من قبل ـ في رواية قصة الترجمة وما وقع له فيها من نكسة بعد أخرى وإنتقالها من يد إلى أخرى حتى إستقرت آخر الأمر ، أو أستقر هذا الجزء منها الذي يمثله هذا الكتاب بيد مترجمها الأخير الذي أبى أن يفصح عن إسمه ، وإن إعتذر كاتب المقدمة سلفاً عن ضعف الترجمة وركاكة التعبير بسبب عدم تفرغ المترجم لها وإنشغاله الدائب بأعباء مهنته التي تطلب منه اليقظة والإستعداد طيلة الليل والنهار ، وصاحب مثل هذه المهنة لن يكون إلا من بوليس النجدة أو من أطباء قسم الحوادث ، وهذا ما يدفعنا إلى الظن بأن مؤلفنا الشيخ منصور ، إذا إعترفنا بوجوده ، قد أقدم ، بعد أن تقطّعت به السبل ، على ترجمة كتابه إلى الإنكليزية بنفسه أو لربما وضعه فيها أصلاً فجاء مهلهلاً ضعيفاً في لغته وأسلوبه . وفي مقدمة الكتاب ـ على وجه الخصوص ـ ما ينّم عن ذلك ، ويوحي به ، فكاتبها يتكلم عن الشيخ منصور ويشير إليه بضمير المتكلم طوراً وبضمير الغائب وبصيغة الماضي طوراً آخر .

فلغة الكتاب بسيطة سهلة بل وضعيفة متهافتة في بعض الأحيان ، ولهذا فلا يمكن أن تكون الإنكليزية اللغة الأصلية لكاتبها أو مترجمها ، وذلك لتساهله في قواعد الإنشاء الصحيح ، وفي قواعد النحو ، فلغة الكتاب لا تستقيم على قاعدة من قواعد النحو أو أسلوب من أساليب البلاغة والبيان وهي بعد ذلك لا تعترف بقواعد التنقيط وضوابطها أي حركات الوصل والفصل ، التي تحصر المعاني وتحددها وتبعث القوة والحياة في جمود الألفاظ وهي قاعدة من قواعد الكتابة الصحيحة في اللغة الإنكليزية .

وأسلوب الكتاب هو الآخر أسلوب سهل يسير يقرب من أساليب قصص الأطفال ، وقد ينزل أحياناً إلى مستوى الركاكة والضعف .

وكلام المؤلف متقطع غير متصل ، وأفكاره مبعثرة غير منسقة ولا متسقة ، فهو كثير التنقل ، سريع الإستطراد لا يستقر على معنى حتى يقفز إلى غيره من

دون تنبيه أو تمهيد ، أو حسن تخلص كما يقول أهل البلاغة .

ولهـذه الأمور كلهـا ولضعف المحصول اللغـوي عند المتـرجم أو الكـاتب ولغياب ضوابط وقواعد النحو والإملاء غياباً شبـه كامـل ، فقد جـاءت عباراتـه غـامضة مبهمـة في بعض الأحيان وبسيـطة ساذجـة في أحيان أخـرى ، وهو قـد يستعمل التراكيب اللغوية الإنكليزية إستعمالاً خاطئـاً فتنقل عكس المعنى الـذي يريده وخاصة وإنه مولع ولعاً شديداً بـإستعمال صيغـة النفي ونفي النفي ، فهو إذا أراد أن يقول مثلاً : « من الـواجب على المسلم صيـام شهر رمضـان » ، فهو يقولها في قالب غريب معقّـد من صيّغ النفي فيقـول مثلاً : ليس من الـلاواجب المحتم على المسلم إلا أن يأكل في رمضان » . وقد يوقعه هيامه بصيغ النفي هذه وقلة محصوله من اللغة في أخطاء جسام ، إذ تخونـه صياغـة الجملة أو تسقط منه إحدى أدوات النفي فتأتي الجملة على عكس معناها .

وفي كتابه سمة أخرى أضفت على أسلوبه مسحة من السذاجة والظرافة ، هي طريقة لفظه للأسماء العربية وكتابته لها . فمع أنه قد شرح بإسهاب طـريقته التي إتبعها في كتابة الأسماء العربية ، فكل الذي تستطيع أن تفهمه منها أنه كتب هذه الأسماء بالطريقة التي تلفظ بها باللغة الإيطالية ، ولكن محصول هذه الطريقة كان شيئاً فجـاً غريبـاً يبعث على الضحـك وعلى الحيـرة ، إذ لم يعد من السهـل التعـرف إلى أصـل هـذه الأسـماء ، ولقـد عسر علينـا فعـلاً الإهتـداء إلى بعض الأسـماء ، فإستشـرنا ، في أمـرها بعض الأصـدقاء وتـوصلنا عن طـريق القرائن والدلائل إلى المقصود من غالبها ، وغاب علينـا فهم المقصود من بعضهـا . وإننا لندرج للقارىء بعضاً من هذه الأسماء ليتبين غرابتها وبعدها عن النطق الصحيح وعن الطريقة المألوفة عند الغربيين في كتابتها :

عبد العزيز	Abd allahaziz
آسيا	Ascia
البحرين	Bahreem

Bussora	البصرة
Beduini	البدوي
Bellùcci, Belluchees	البلوش
Buscier	بوشير
Bengas, Beniac	بني ياس
Calagat	قلهات
Cierek	شيرك
Chiab, Ciàb	السيب
Derega	الدرعية
Eben, 'bén	إبن
Ghavaur, Giaur	الكافر
Giovasseom	القواسم
Guialam	جعلان
Hemam, Himàm	امام
Homan	عمان
Hendian	هندي
Kan - Gùne	كاكون
Monsanah, Monsonaà	المصنعة
Neschdee	نجدى
Pacià	باشا
Ras algata	راس الحد
Saàra	صحار
Nesudi	سعودي
Sciàrga	الشارقة
Seak	شيخ

شط	Sciàt
شاه	Scià
كعب (إسم قبيلة)	Tehiah, Ciàb
وهابي	Vàhabi

وبالإضافة إلى هذا الإبتكار الغريب في كتابة الأسماء فإنه يكرر الكلمة العربية مرتين أو ثلاثاً بألفاظها المختلفة ، فيضفي ذلك على أسلوبه شيئاً من السذاجة في التفكير والتعبير ، وهو وجه من أوجه المتعة والطرافة ، في كتابة شيخنا المستخلج الدكتور العبيط .

وإذ تبين لنا الآن أن لغة الكتاب الإنكليزية ضعيفة المبنى ركيكة الإسلوب بعيدة عن قواعد اللغة والإنشاء ، وإن أفكار المؤلف تتسم بالغرارة والعباطة ، وطريقة تفكيره تفتقر إلى الإتزان والإتساق ، ولأن عيوب الكتاب هذه هي سماته المميزة ، فقد حاولنا في الترجمة العربية أن نبقي على أسلوب المؤلف وطرق تفكيره وتعبيره دون تغيير أو تحسين ، لأن التحسين يغيّر من روح الكتاب وطبيعته ، ويخرج به عن المنزلة التي هو فيها .

لذلك ، جاءت ترجمتنا محاكاة للأصل ما أمكن ذلك ، فلا عجب أن تتميز بدورها بضعف الإسلوب وفجاجة الأفكار وبخروجها عن الأساليب العربية الصحيحة .

ومع هذا فإننا لنشهد أن ترجمتنا لم تستطع أن تنقل روح المؤلف وأسلوبه وطرافته في التعبير ، لأننا لا نستطيع أن نكرر ونعيد في الأسماء العربية فنقول مثلاً : « كان مهاميت ألي أو موهمد ايلي » بمعنى كان محمد علي . ولو أردنا الإبقاء على روح المؤلف الخفيف وأسلوبه الممتع لكان علينا أن نلتزم أسلوب المؤلف ونكرر الأسماء العربية بالشكل الذي عنى المؤلف في لفظها وذكرها ، ولكن لغتنا آنذاك لن تكون العربية بأية حال من الأحوال .

وعلى سبيل التجربة والتفكهة نقدم هذا المقطع ترجمة حرفية : ـ

وكان سلطان أبين أو إبن أحمد نجل همام أو هيمام أو همان أو همانا قد ذهب إلى الباصورا أو الباسورا . . لرفع الحصار عنها . . رغم جهود الغوابين أو اللوهابيين ومراكب الجيوكاسوية أو جايوواسيو بحيث أن باسيا بغداد . . . الخ .

وترجمة هذا المقطع إلى العربية هو : ـ

وكان سلطان بن أحمد بن إمام عمان قد ذهب إلى البصرة . . . لرفع الحصار ، رغم جهود الوهابيين ومراكب القواسم بحيث أن باشا بغداد . . . .

وهو رغم إدعائه الإلمام بلغة كل بلد يحلّ فيه ، فإن محصوله من العربية لم يكن شيئاً مذكوراً إلى درجة إنه لم يفقه معنى كلمة « إبن » كما يظهر من القطعة المترجمة في أعلاه فإن سلطان بن أحمد ، وأحمد أبوه ، هو الإمام لكن المؤلف ظنّ أن كلمة إبن نوع من اللقب أو قسم من الإسم ، مثل كلمة عبد في عبد الله وعبد الرحمن ، فذكر بعد كلمة إبن أنه نجل SON الإمام .

ولعل عدم فهمه معنى كلمة إبن هو سر خلطه بين السيدين سعيد « بن » سلطان وبدر « بن » سيف وإعتبارهما أخوين أخذا بكلمة « بن » على إنها إسم أبيهما دون أن يفطن إلى إختلاف أسمي الجدين كما تقدم ذلك .

وهنا يخطر على البال سؤال ملحّ ، هو بأية لغة يا ترى كان الشيخ منصور يتفاهم مع الناس وبخاصة المرضى منهم ، وهذا إذا صحّ أنه كان طبيباً ، أثناء مقامه بعمان ؟ أو إذا صح أنه أقام بعمان .

* * *

ومهما يكن من أمر الشيخ منصور وحقيقته ، ومهما يكن من صدقه أو كذبه ، فستبقى حياته لغزاً يبعث على الحيرة والتفكير ، وسيبقى كتابه أثراً طريفاً ممتعاً ، يدلّ على تعقيد صاحبه وبساطته وعمقه وضحالته وهو من بعد جدير بالقراءة والدراسة .

ولا نريد ، أن نعود من هذه الرحلة الطويلة مع الشيخ منصور وكتابه لنثقل بعدها على القراء بقصة رحلة هذه الترجمة التي طالت سنوات ، وإنما نكتفي منها بهذه الإشارة الوجيزة لنعود منها فنشكر كل من أعاننا على هذه الترجمة وشجعنا عليها ، وعلى رأس هؤلاء معالي صديقنا السيد فلان الذي إقترح علينا ترجمة هذا الكتاب وإطّلع عليها بعد تمامها وكان بوده طبع الكتاب ونشره ، ولولا أن أمره مردود إلى أمر غيره ، وأمر الغير هذا ليس له رد .

وهذا الغير بطبيعة الحال من المستخلجين المستنفطين الجدد خلفاء الشيخ منصور ولو أردنا إتباع أسلوب الشيخ منصور ، لوجب علينا أن نشكو لخلفائه هؤلاء في هذا العصر غباءهم الذي أتاح لنا فرصة القيام بهذه الترجمة ، وأن نقدّر لهم كل التقدير ذكاءهم الذي إستطاع تأخير نشر هذا الكتاب كل هذه السنوات الطوال .

وقبل الإنتهاء من هذه المقدمة ، لا بدّ من كلمة للرد بها على إنتقادات بعض من اطلعوا على مسوّدات هذا الكتاب ، والتي ستتكرر عند كثير من القراء ، وأولها السؤال عن سبب الإمتناع عن تصحيح أخطاء الكتاب وتقويم معوجه .

وقد سبق وأعلنت جوابي عن هذه النقطة في أكثر من موضع من هذه المقدمة ، فالترجمة الصحيحة في رأيي ، هي في الحفاظ على روح المؤلف وأسلوبه وأفكاره معاً ، لأن النقل الصحيح لهذه الأمور يكشف عن طبيعتها الأصلية وقيمتها الحقة ، ومن ثم عن قيمة الكتاب ومؤلفه ، وهذا لن يعني أبداً تبني المترجم لأفكار المؤلف وأحكامه ، عدا عمّا في التصحيح والتنبيه من تقليل معيب لمقدرة القارىء على الإستدلال على مواضع الخطأ والصواب وتمييز باطل القول من صحيحه ، وإضافة لما تقدم فإن لمؤلف هذا الكتاب أسلوباً متميزاً ، شرحنا خصائصه فيما سبق من قول ، فالخروج عن أسلوبه هذا بالتنسيق والتحسين أو بالتصحيح والتنقيح ، يفقد الكتاب صفته المتميّز بها ، ويضفي عليه صفات

ليست له ، ولو أردنا التصحيح والتقويم لكل ما في الكتاب من أخطاء وهنات ، وإعوجاج في الأفكار والإسلوب ، لخرجنا من ذلك بكتاب جديد لا يمت لما كتبه الشيخ منصور بأية صلة من قريب أو بعيد .

ومما يتصل بهذا الأمر من قريب الإحتجاج على الإبقاء على تسمية الخليج العربي بالفارسي .

وهنا أيضاً فإن ضرورات الترجمة تفرض علينا ذلك . فهذه تسمية المؤلف لهذا الجزء من المكان ، وهذا رأيه ، وهو رأي غالط ، ولكنه ليس الغلط الوحيد في هذا الكتاب أولاً وليس هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد في هذا الخطأ ثانياً .

وليس من الإنصاف أن نسأل مؤلفاً عاش قبل زهاء قرنين من الزمان أن يتبنى أمراً لم يكن له وجود في أيامه ، أو أن نأتي الآن بعد هذين القرنين لنقوله ما لم يقل .

وفوق هذا وذاك ، فمن رأيي أن التسمية بحد ذاتها والتشبث بها لوحدها لا يثبتان حقاً ولا يدفعان باطلاً .

وختاماً أرجو أن يتقبل القراء الكرام ترجمة هذا الكتاب بحسن النية التي عنها صدرت ونبل الغاية التي إستهدفت ، والتي من أجلها نشرت .

وما توفيقي إلاَّ بالله ، إنه نعمّ المولى ونعم النصير .

محمود فاضل

لندن ١٥ / ١١ / ١٩٨٧

مقدمة

موجهة إلى القراء الكرام الذين تفضلوا بالمشاركة في نفقة نشر مطبوعات الشيخ منصور(*)

حيث أن ظروفاً خارجة عن إرادتي إضطرتني إلى أن أقدّم إليكم هذا القسم الصغير فقط من كتابي الذي أعلنت عنه في نشرتي إليكم ، فلهذا وتجنباً لكل لوم ، ودفعاً لكل إتهام لي بنكث العهد ، والخروج عن الإلتزام الذي تعهدت به للقراء ، فإنني أرى لزاماً عليّ أن أشرح بأكثر ما يمكن من الإيجاز الظروف السيئة التي أحاطت بي واضطرتني إضطراراً على تغيير خططي الأولى .

إن النحس الذي رافقني منذ بدء حياتي ، والذي نغّص عيشي ، لم يتأخر يوماً عن وأد كل محاولة أحاولها لتحسين حالي ، قد عاد وجعلني هذه المرة أيضاً هدفاً لشرّ فعاله .

ذلك إنني حين وصلت إلى هذه المدينة العظمى لأول مرة لأقاسي الآم عملية بتر ساقي التي أصيبت منذ أمد طويل بمرض عضال ، كان نتيجة الإرهاق

(*) حين قابل مؤلف هذا الكتاب السلطان السيد سعيد لأول مرة ، سأله السلطان عن إسمه ، فلمّا أجابه المؤلف إنه VINCE NZO إستغرب السلطان الإسم وسأل عن معناه باللغة العربية . فتذكر المؤلف في تلك اللحظة صديقه PADORA VENCE NZO عضو الهيئة التبشيرية في مصر ، والذي إعتاد المصريون أن يطلقوا عليه إسم « أبو منصور » ولهذا فقد أجاب المؤلف السلطان أن معنى الإسم هو « منصور » ، ولأن الإسم يعني الظفر والفوز في الحروب ولأن الملك العربي نفسه من أبطال الحروب وقادته فقد سرّ بهذا الإسم وإستبشر به وقال : « إذن ، فإنني سأجعل إسمك الشيخ منصور » .

والإهمال ، وفي سبيل تأمين مورد مالي يعينني على العلاج ، فقد وجدت من الضروري أن أرهن مخطوط كتاب رحلاتي عند أحد باعة الكتب المشهورين ، ومن أجل حمله على الإقتناع التام بصدق رواياتي وحقيقتها ، فقد تجرأت على توجيه خطاب إلى أحد السادة الكرام ، والتي حازت مواهبه الأدبية والدبلوماسية تقدير الناس وإعجابهم ، والذي ترك حسن صنيعه في نفسي كل عواطف الحمد والإمتنان ، التي لا تمحوها إلاّ يد المنون .

وقد تلطف هذا الراعي الكريم لجهودي ، فأجاب الناشر بكلمة موجزة تضمنت ما يلي : -

« بالنسبة لما حصل عليه المستر « فينزوينزو » من خبرة بأحوال الفرس والعرب والترك فإن السيد كور أوزلي يتعشم واثقاً بأن يكون نشر رحلاته أمراً ممتعاً » .

ولا أستطيع أن أخدع نفسي فأدعي أن مصدر هذا المديح هو مجرد التحزب الشخصي بل أنه الثمرة الحقة لخلق العدالة والإستقامة ، الذي يميّز هذا الرجل الموهوب .

وكنت قد تعرفت عليه أول مرة في طهران في شهر شباط من عام ١٨١٣ م ، وكان ملك الفرس آنذاك على وشك أن يعقد إتفاقاً صارماً مع الفرنسيين ، كان أحد بنوده يقضي بوجوب طرد الإنكليز من بلاده بحجة علاقاتهم السياسية الوثيقة مع روسيا .

وكانت وظيفتي في تلك الأيام تضطرني أن أبذل كل ما أملك من نفوذ في سبيل تحبيذ هذا الإجراء . وكان الوزير الإنكليزي ، بطبيعة الحال ، يعارض هذا المسعى كل المعارضة ، وقد نجحت جهوده في هذا السبيل .

وما كان من المتصور أن تؤدي تلك اللقاءات العابرة التي كانت تحدث بيننا آنذاك ، إلى ترك شعور طيب في ذهنه تجاهي .

وبصرف النظر عن هـذه الشهادة التي تفصـح عن الغرض التي تهيأت لي لجمع المعلومات ، فإن بائع الكتب المشار إليه من قبل ، قـد رفض القيام بـطبع كتابي ، بحجة الخسـارة التي يمكن أن يتعرض لهـا . وخاصـة وأن قصة رحـلاتي مكتوبة باللغة الإيطالية وتحتاج ترجمتها إلى الإنكليزيـة إلى بعض النفقات ، عـدا عمّا فيها من متاعب ، ولذلك فقد وجد نفسه غير قادر على الإلتزام بـطبع كتـابي هذا .

وإذ خـابت هكذا آمـالي العظام ، فقـد حاولت أن أجمـع الإشتـراكـات ، وبعد أن قرأ السير كور أوزلي الرسائـل العشر الأولى من كتابي ، تقـدّم ثانيـة إلى مساعدتي ، وسمح لي أن أضع إسمه على رأس القائمة .

ولكن مشكلة جـديدة ظهـرت هنـا ، وهي متى يمكن جمـع الإشتـراكـات لندفع منها إلى من يقوم بترجمة الكتاب ؟

إلا أن هذا العائق قد زال بفضل شهامة أحد الأدباء الذي تبرع أن يضـع الرسائل جميعها في قالب إنكليزي .

ولو لم تعيق بعض الكوارث العـائلية فـاعل الخـير هذا عن إتمـام ما تبـرع بالإلتزام به ، لما كنت في حاجة الآن إلى مساءلة أصدقائي العذر والغفران .

ويبـدو أن حظي التعس قـد تعدى إليـه بعد أن دفعتـه شهـامتـه وغيـرتـه للإهتمام بخيري ومصيري .

وحين كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها ، أبدى أديب آخر من أصـدقائي إستعداده لترجمة هذا القسم الذي أقدّمه الآن بين أيدي القراء فقط ، دون بقيـة الكتـاب . ولهذا فمن الضـروري أن أشـرح الآن الأسبـاب التي دفعتني إلى نشر هذا القسم الصغير من الكتاب منفصلاً عن بقيته .

فقد بلغني من أناس بعيدين عن الكذب والإختـلاق ، كما تـأيدّ لي ذلـك حين قرأته في الصحف بعد ذلك ، إن إبراهيم باشا نجل محمد علي باشا القائـد

العام للقاهرة العظمى في مصر ، قد غزا الوهابيين ودحرهم ، واحتل عاصمتهم الدرعية ، وأخذ رئيسهم عبد العزيز أسيراً وأرسله إلى القسطنطينية حيث حكم عليه بالموت .

وقد أثارت فيّ هذه الأنباء رغبة عظيمة لتعريف العالم بأصل هذه الملة المحمدية ، وفي نفس الوقت لإعطاء صورة عن مضامين مراسلاتي مع أوروبا عندما كنت في الشرق ، وهي تتكون من ثمانين رسالة تروي نتاج ذهني الجوال المتعدد جوانب المعرفة .

وكانت رغبتي في تقديم هذه الرسائل إلى القراء الكرام تزداد يوماً بعد يوم ، ولكن مما زاد في حدة هذه الرغبة هو التشجيع الذي تلقيته من أذكى رحالة وأنجح دبلوماسي عرفه الشرق منذ زمن طويل ، فقد إستطاع هذا الرجل بصفاته وبذاته الأدبية والفكرية أن يكسب إحترام الفارسيين وتقديرهم ، وأن يكون له نفوذ لا يرد على الملك الفارسي ولربما هو الذي منع القوقاز الذين كان لهم الأثر الفعّال في مساعدة أوروبا على الحفاظ على إستقلالها ، من البقاء في بلادهم للدفاع عنها ضد مائة ألف جندي فارسي .

هذا الشخص الجزيل الإحترام الذي أطريت صفاته في أعلاه يشهد لي بصدق المصادر التي تهيأت لي لجمع المعلومات المفيدة والممتعة ، والتي كان هدفي من كتابة رسائلي هو تسطير تفاصيل هذه المعلومات ونتائجها بصدق وإخلاص ، وعندي القناعة أن جهودي هذه ستقابل بالقبول الحسن من لدن أصحاب العقول النيرة .

وقد لا يبدو كتابي ممتعاً بالدرجة التي كان يمكن أن يبدو بها لو أني تركت لخيالي العنان ليصوّر الأمور بالألوان البهيجة التي تروق للناظرين وتستهوي الألباب ، لكن ضميري منعني من سلوك هذا السبيل الشديد الإغراء ، والذي يصعب على المعاصرين ، إثبات عكس ما يأتي به من أخبار وقصص . ولذلك

فكل الذي دونته هو الحقيقة الكاملة ، بكل تفاصيلها الدقيقة ولكن بكل بساطة ودون تزويق .

ولكي يستطيع المساهمون في هذا الكتاب تقدير مدى المتعة والفائدة التي سيجنونها من الرسائل التي سأنشرها حال ما تنتهي جهودي التي لا تكل بالعثور على المترجم المطلوب ، فإنني أتجرأ ، كما قلت سابقاً ، فأقدّم صوراً سريعة عن محتويات تلك الرسائل ، وكذلك عن تاريخ حياتي ، وأرجو ألّا يعرّضني هذا الأمر إلى تهمة الغرور والأنانية .

حين تركت « الكوليج رومان » ، حيث أكملت فيها تعليمي ، وكنت آنذاك في سن الشباب السعيد ، حيث لم تحطم بعد خيبات الحياة المتكررة أخيلة الأمل الذهبية السابحة في أجواء الذهن ، وجدت أن بلادي قد إنقسمت إلى أقسام عديدة نتيجة الغزو الفرنسي لها . ولذلك فقد فضّلت أن أترك وطني ومسقط رأسي ، البلد الذي تزدحم فيها أجمل ذكريات الطفولة ، بدلاً من أن أضرّج يدي بدماء أقرب الناس إليّ لإن إختلافنا في الآراء ، قد وضعنا في موضع العداء والخصومة أحدنا للأخر . فهم متمسكون بالنظم القديمة ، وأنا أتوق إلى روح الحرية التي كانت آنذاك تكتسح أوروبا ، لذلك عبرت إلى اليونان ومنها إلى القسطنطينية ، ثم إلى آسيا ، حيث كنت أقيم في كل بلد ما يكفيني أن أتعلم هناك لغتها وعادات أهلها ، وقد ساعدتني حرفتي على هذا كل المساعدة . ففي عاصمة العثمانيين كنت طبيباً خاصاً للقبطان باشا سيد علي ، وكان مستركاً آنذاك في معارك بحرية مع الروس .

وفي الأناضول ومصر عرّفتني مهنتي على مجموعة كبيرة من الناس ، وفي « مخا » كنت أعتبر الوكيل الرسمي للحكومة الفرنسية . وفي مسقط صحبت السلطان طبيباً خاصاً له ثم صار لي الشرف أن أكون قائداً لجيوشه . وفي بغداد عالجت عدداً كبيراً من عليّة القوم وفي كردستان كنت مدير المدفعية تحت قيادة محمد علي مرزا ، نجل ملك فارس . وخلال عملي هذا تعرّف عليّ المستر

ليندسي ، وهو ضابط بريطاني يعمل عند الملك المذكور .

وفي أذربيجان وقعت أسيراً بيد الروس ، وحين أطلق سراحي توجهت إلى طهران حيث كتب لي النجاح التام في إنجاز أمر بالغ الدقة فشل في إنجازه فشلاً تاماً الجنرال دي كاين .

ومن إيران سافرت إلى الهند ، وحين هبطت البرازيل في طريق عودتي إلى أوروبا تعَرضت إلى أسوأ كارثة في حياتي تركتني في أشد حالات العوز والفاقة وعلى شفا الموت مهملاً ومنبوذاً من الجميع .

وإنني لا أدعي العلم بالتأليف ، لكن سرد هذه المغامرات ، مهما خلا من الصنعة والتزويق ، لا بدّ وأن يترك أثراً في الذهن ، ويمكن لحسن الحظ أن يشهد على صحة رواياتي الكثير من الشهود الأحياء .

وهكذا ، فإن القارىء الجالس على ضفاف نهر التيمس ، يستطيع أن يتابع مجرى أحداث طويلة كثيرة وقعت على سواحل البسفور ، أو الخليج الفارسي أو على ضفاف نهر النيل أو نهر الفرات أو دجلة أو الكانكز .

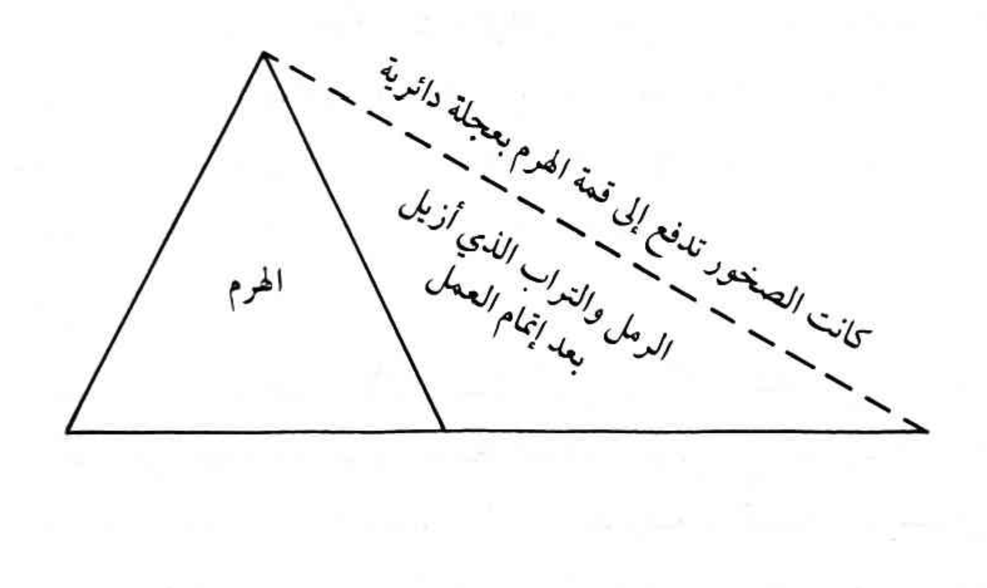
وفي خلال رحلاته هذه ، فإن الشيخ منصور ، الذي ترك بلاده شاباً غراً لا خبرة له في شؤون السياسة ولا في أساليب الترحال ، قد تحوّل بالتدريج إلى رحالة متمرس ودبلوماسي محترف . وهذا التغيير في السلوك والطباع الذي رصد بعناية ودقة قد يهتم به أولئك المعنيون بدراسة الظواهر الفكرية والنفسية .

هذه النبذة التي قدمتها أعلاه ، هي خلاصة رسائلي التي تحتوي بصورة رئيسية على حقائق الوقائع والأشياء التي حدثت لي أو شاهدتها شخصياً ، والتي تصوّر سلوك وعادات وطرق حياة وديانات شعوب كبيرة شهيرة .

وكنت في بعض الأحيان أتجرأ بتواضع على نقد سياسة مختلف الحكومات ، ولكنني قد كنت أجهد في تجنب تكرار ذكر ما تذكره كتب الرحالين الآخرين .

وكنت أحياناً أحاول ، بخطوات خجولة متئدة ، أن أسلك مسلك الأدب والعلم . وفي مشاهداتي عن الهرم في مصر فإنني أتفق تماماً مع « ديود وروس سيكولوس » وأريد أن أنص هنا على تأييدي لنظريته في طريقة إنشاء هذا الصرح العظيم ، والتي تذهب إلى أن هذا البنيان الشاهق ، الذي قد يكون رمز المجد أو علامة الجنون ، قد بني في ذلك العصر الذي كانت فيه المهارات الميكانيكية في أول طفولتها ، عن طريق دحرجة الآلاف من الصخور الكبيرة التي يتكوّن منها هذا البناء إلى الأعلى على تعلية ترابية منحدرة أقيمت إلى جانب الهرم ثم أزيلت بعد إتمام العمل .

ولعل الشكل المرسوم مع هذا الكلام أن يوضح الفكرة التي يبدو أنها التفسير المقنع لما هو حتى الآن موضع الخلاف بين العلماء .



هذه هي قصة رحلاتي ، وقد أوجزتها قدر الإمكان ، وقد تمّت ترجمة القسم الأكبر منها وستنشر بكاملها حين تسمح بذلك وارداتي المحدودة وجهودي المتواصلة .

وعند ذكر الأسباب التي دفعتني إلى إقتطاع هذا الجزء من كتابي ونشره دون بقية الأجزاء ، والذي يبدو ، وهو في الحقيقة كذلك إلى حد كبير ، وكأنه عملية

بـتر ، أرى من الضـرورة القصـوى أن أتقـدم ببعض المـلاحـظات عن الحـادث الفريد(*) الذي لا يمكن لتجاربي الخاصة ولا لأبعد المراقبين نظراً توقعه . وكانت هذه الحوادث جديدة عليّ جدة كتابي هــذا عـلى جمهور القـراء ، وعلى كـل فإني أنظر إلى قراري هـذا نظرة إستحسـان وتقديـر ، مشفوعـة بالثقـة بأنـه مهما يكن الحكم الأخير على هذا القرار فهو حكم ذهن حر متفتح .

ولهؤلاء الأشخـاص الكرام الـذين تطوعـوا في دفـع الإشتـراك لنشر كتبي فإنني أتقدم بأجزل عواطف الشكر والإمتنان ، ولعل خير مكافأة لهم على عملهم هـذا هو علمهم أن مسـاعداتهم القيمـة هذه في اليـوم الأسود هي وحـدهـا التي أنقذتني من شرور العوز والمرض واليأس حين أوشكت عواصف الأيام أن تقذف بي إلى الهلاك .

وبعد تجوال واسع في البر والبحـر إمتدّ إلى كـل قطر من أقـطار المعمورة ، وبعد أن شاهدت أشكال الحكومات وأنواعها ، من الحكومات المستبـدة المطلقـة إلى الحكومات الملكية المستبدة فقـد تحققت رغباتي بـالمقام في هـذا القطر السعيـد أنعم بالحماية والمساواة في ظلّ قوانينها ودستورهـا المجيد ، وإني لآمـل أن أضمن لي حياة مستقرة محترمة في الحاضر وحماية كافية ضد المـرض والعجز والشيخـوخة في المستقبل .

وقـد بقي لي أن أقـول الآن ، بـأن الـظروف التي مكنتني من وضـع هـذه النبذة الموجزة عن مملكة مسقط ، وتاريخ عاهلها ، ومن جمع المعلومات الأخـرى التي يضمّها هذا الكتـاب ، كانت في الأصـل قد وضعت كملحق للرسـائل التي سبق أن تكرر الكلام عنها ، لذلـك فإن أي خـروج عن الأساليب الشـائعة قـد يظهر في ترتيبها ، فإنما مردّه إلى هذا السبب دون غيره .

(*) حاول عدة باشوات اتراك التغلغل في أملاك الوهابيين ولكن جهودهم كلها لم تنجـح ، إلا أنه في عام ١٨٠٥ وصل علي باشا من بغداد بجيشه إلى بعد خمسين ميلاً من الدرعية ، ولكن نفاذ المؤون أجبره على العودة من حيث أتى .

وقد كان وصولي إلى مسقط أول مرة في عام ١٨٠٩ ، وقد عينني السلطان سعيد في الحال طبيبه الخاص براتب كبير . ومع عنايتي بالعاهل الحاكم فقد كنت أعمل كثيراً في عيادتي الخاصة .

ومن طبعي أن أجمع المعلومات عن كل بلد أحلّ فيه ، ولهذا فإن الإختلاط مع الناس يهيىء فرصة نادرة وثمينة لجمع مثل هذه المعلومات ، ليس عن ممتلكات السلطان فحسب بل وايضاً عن كل ما يتعلق بأحوال مقاطعة عمان بوجه عام ، وبمناطق الخليج الفارسي المجاورة لها .

ومن الطبيعي أن الظروف التي تمّ فيها إغتيال بدر لا يمكن أن تكون موضوعاً عاماً للحديث والمناقشة طالما أن قاتله قد إحتلّ عرشه ، وخاصة أمام رجل مثلي معروف بوثيق صلته بالسيد سعيد . ومع هذا فأستطيع أن أذكر أن روايتي عن هذه المجزرة البشعة هي الحقيقة بكاملها وقد رواها لي أحد أصحاب الدور البارزين في ذلك الحادث والذي ليس له ما يدعوه إلى الكذب والإفتراء .

وكنت قد سمعت من أحد الإيطاليين العاملين في خدمة الجنرال دي كاين الحاكم العام لجزيرة « فرانسة » بأن المعلومات العامة المتداولة عن وفاة السيد بدر ليست هي المعلومات الصحيحة ، وإن الضربة التي أفقدته الحياة إنما سددتها له يد أخيه .

ومع عدم تصديقي هذه الأقوال في حينها لمعرفتي بالمشاعر الإنسانية والعواطف الدينية والشعور بالعدالة التي يتسم بها دوماً مسلك السيد سعيد ، ومع هذا وتصميماً مني للوصول إلى الحقيقة ، فقد كنت أغتنم الفرص لأسأل عبيد الملك القتيل وخدمه أسئلة معينة عنه ، لا تكشف قط عن شكوكي حول الموضوع ، ولكنها تؤدي بشكل غير مباشر إلى الكشف عن خوالج الطرف الثاني وأحاسيسه .

وقد حدث أن تلقيت في أحد الأيام أمراً من السيد سعيد بالذهاب لمعالجة أحد عبيده المقربين له والذي كان يشكو قرحة خبيثة في معدته طال عليها

الأمد . وقد وجدت مريضي رجلاً من أهل النوبة في حوالي الأربعين من عمره أسود السحنة وذا بنية قوية .

وفي أثناء ترددي عليه كنت أسمعه يستنزل اللعنات على سيده السلطان لأنه تركه يشكو الحاجة والعوّز في حين أن ما قدمه للسلطان من خدمات يستحق أعظم المال وأحسن الثواب .

وفي خلال صرخاته المتقطعة سمعته يتهم السيد سعيد بقتل أخيه بدر ، وقد إستطعت بعدئذ أن أعلم من هذا الرجل النوبي أصدق التفاصيل عن الطريقة التي نفذت فيها هذه الجريمة الشنعاء والتي سأرويها في موقعها من هذا الكتاب ، وقد كان هذا النوبي بالذات هو الذي سدد الضربة القاتلة للسيد بدر .

أما عن النبذة التاريخية القصيرة والتفاصيل الأخرى ذات العلاقة بالوهابيين فقد أستقيت بعضها من المصادر التاريخية المعروفة ، واستقيت أكثرها من محادثاتي المتكررة مع مبعوث سعود أميرهم السابق ، الذي كان ميالاً إلى المناقشة في شؤون دينهم وحكومتهم وسلوكهم ، وكان من حسن حظي أيضاً ، أن كتب لي التعرف شخصياً على مطلك ، وهو قائد وهابي ذا سمعة ومقام مرموقين ، وطالما قاد جيوشهم إلى النصر المؤزر ، وكان له الفضل الكبير في نشر مذهبهم وشهرتهم في شتى أنحاء الجزيرة العربية .

أما روايتي عن الممتلكات المسقطية وعن إيرادات السلطان الحالي وعن وصفي للبلدان الواقعة على ساحلي الخليج الفارسي ، فهي في أغلبها تستند على تحرياتي الشخصية الخاصة ، وفي حالة قصور ذلك عن الإلمام الكافي بالموضوع ، فإنني كنت أرجع إلى إستكمال ذلك من بعض الثقاة ممن كان في مقدوري الوصول إليهم .

كما إنني لم أتردد حين تستدعي الحاجة ذلك ، من الإستعانة بالعمل المضني الجبار الذي قام به نيبهور ، كما كنت من الجهة الثانية أصحح له في

بعض الأحيان ما غيرته الأيام من معلومات .

أما الحكايات الشخصية التي أوردتها في ثنايا الكتاب فقد إخترت منها ما يستحق الذكر فقط ، وما هو أوضح في تصوير ميزات الناس وسلوكهم وطرق تفكيرهم . وهنا عليّ أن أقول بأن من الواجب على كل سائح أو رحالة يحاول التعرف على طرق السلوك الصحيحة والأصيلة لأحفاد إسماعيل كما كانوا عليه من أقدم العصور ، أن يوجه إهتمامه الأكبر إلى حياة البدو في الصحراء ، فهم أصدق تمثيلاً لهذه العادات والسلوك . أما سكان المدن وموانىء البحار المتحضرون فقد أصبحوا عنصراً هجيناً بسبب إختلاطهم المتزايد مع الأيام بالبلوش والهنود والفرس والأتراك وغيرهم من الشعوب الوافدة الأخرى حتى فقدوا أصالتهم العربية وتأثرت عاداتهم وأخلاقهم بالتدريج بأخلاق هؤلاء المهاجرين .

إن صعوبة كتابة اللفظ الصحيح للكلمات الآسيوية والإرتباك الناجم عن ذلك أمر معروف للقراء ، فاللفظة الواحدة قد تكتب عدة مرات من قبل كتاب متعددين بأشكال متعددة ، حتى يصعب الإستدلال على أنها كلمة واحدة .

ويمكن أن نعزو هذا الأمر بصورة ما إلى وجود الأصوات في اللغات الشرقية التي لا مثيل لها في اللغات الأوروبية والتي لم تعتد الأذن الأوروبية على إقتباسها وتمييزها ، كما يعود بعض السبب أيضاً إلى غموض طرق الإملاء في اللغة الإنكليزية .

وللتغلب على هذه الصعوبات فقد تبنّيت إقتراحاً قدمه السيد ويليم جونز ، وهو أن أكتب الكلمات العربية والفارسية والتركية بنفس الحروف التي ينبغي عليّ إستعمالها لو أردت نقل أصوات هذه الألفاظ إلى اللغة الإيطالية ، مع إضافة العلامات الصوتية فوقها ، إلا إذا كان اللفظ المذكور قد تكرر في الكتابات الإنكليزية وإتخذ شكلاً معيناً بحيث يصبح من الحذلقة السخيفة محاولة تغييره .

ومن الجهـة الثانيـة وفي سبيل مسـاعدة من لا يحسن اللغـة الإيـطاليـة من القراء ، فإنني دونت بكل دقة أمام بعض الكلمات طريقة لفظها بطريقة الإملاء الإنكليزية ، وأعتقد أن هذه الطريقة التي لها صفة الإبتكار على الأقل ، ستكون لها الأفضلية على الطرق الأخرى المستعملة لحد الآن .

والآن وقبل أن أختم حديثي هذا ، لا بدّ من تكرار تقديم أخلص الشكر إلى مترجم هذا القسم من الكتاب على المساعدات التي قدمها لي .

وليس لي في سبيل الإعتذار عن النواقص العديـدة التي إرتكبها في تـرجمته إلا القـول بأنـه رجل غـير معروف في عـالم الأدب وغير خبـير بأسـاليب الكتابة والإنشـاء ، علاوة عـلى أن الإستجابـة للنداءات المستعجلة التي تقتضيهـا مهنتـه المتعبة يشغل كـل أوقاتـه . ولهذا فهـو لا يسعى للمديـح والثناء ولا يـطلبهما إلا بقدر تمسكه الدقيق بالنص ، وعلى قدر ما تسمح بـه الفوارق اللغـوية والنحـوية بين اللغتين الإيطالية والإنكليزية . ولهذا فهو يأمل بعد هذا الإعتـراف الصريـح منـه ، أن ينظر إلى نتيجـة عمله نظرة أقـرب إلى الشكر والتقـدير منهـا إلى النقد والملام .

تاريخ السيد سعيد
سلطان مسقط(*)

الفصل الأول

الطريقة التي إستولى بها السيد سعيد بن سلطان بن الإمام على عرش مسقط .
نبذة عن هذه المدينة وما جاورها . إيراداتها وقدرتها العسكرية والبحرية .

الحب الصادق والعميق للحقيقة والرغبة في التحري عنها ، يجب أن يكونا رائد كل من يتصدى لوصف الأمور والأشياء . وتكون هاتان الصفتان أكثر وجوباً وإلزاماً إذا كان هدف المرء وصف الوقائع التاريخية أو الأمور الجغرافية .

وتتأتى هاتان الصفتان من الإلتزام الدائب الدقيق بالصدق والأمانة . ولكن إذا ما إستطاع الكاتب أن يضيف إلى هذا المبدأ الإخلاقي : حسن الإنتفاع من الإلمام التام بلغة البلاد التي يصفها ومن وجوده شخصياً على مقربة من الأحداث التي يرويها ، وفي مركز مرموق يمكنه من إستقصاء أسبابها الحقيقية ودوافعها البعيدة ، فمن الواضح أنه يمكن الإعتماد كلياً على دقة أخبار مثل هذا الكاتب وإن خلت كتاباته من الصنعة وتزويق الكلام .

وبعد هذه الكلمة الموجزة عن دواعي الوثوق التام بي ، فإني لأرجو أن تعود قراءة هذا الجهد المتواضع على القراء الكرام بالمتعة والفائدة .

في حوالي عام ١٨٠٥[1] وبينما كان السيد سلطان بن الإمام عائداً من حملة بحرية له ضد القواسم (وهم قوم سأتكلم عنهم بعد حين) ، عزم على أن يترك

(*) إعتدت دائماً أن أخاطب عاهل مسقط بلقب السلطان كما كانت تفعل ذلك غالبية رعيته وكانوا قد توقفوا عن إستعمال لقب الإمام منذ وفاة جده السيد سعيد . (الصحيح أن جده هو الإمام احمد بن سعيد ـ المترجم) .

(١) كان مقتل السيد سلطان في شهر أيلول من عام ١٨٠٤ (المترجم) .

إسطوله وينتقل سراً إلى مركب صغير لينقله إلى مسقط ، وما أن فعل ذلك حتى باغتته بالهجوم عليه في خليج لنجة عصابة من القراصنة ، إستطاعت قتله بعد عراك مرير . وقد إستطاع أحد أتباعه المدعو الشيخ عبد الله عن طريق دفع المال الجزيل ، أن يستعيد من المهاجمين جثة سيده وأن يدفنها في مكان قريب .

وكان هذا الأمير قد ظل لأمد طويل يتنازع شرف الظفر مع سعود الأمير الثالث ، للوهابيين ، وقد وقف بكل صلابة ضد محاولات توسعه وحمى عدة أماكن من هجماته ، وقد إستطاع في خلال حصار البصرة أن يؤمن بقاء البحر مفتوحاً ، لوصول المؤون والمدد إليها ، رغم جهود أسطول الوهابيين والقواسم دون ذلك ، وقد إستحق من أجل عمله هذا تقدير باشا بغداد الذي قرر له منحة سنوية وأصدر أمره للمدينة التي رفع الحصار عنها بإن تؤمن إستمرار دفع هذه المنحة له كل عام .

ولكن ما أن صدّ الأعداء عن المدينة ورفع عنها الحصار وعاد إليها الإطمئنان حتى جر الإهمال ذيوله على هذا الإلتزام فتوقف دفعه ، وقد جر الرفض المتكرر للمطالبات المسقطية العديدة بحقها بهذه المنحة إلى وقوع الخصام بين مدينتي مسقط والبصرة[1] .

ونأتي الآن على ذكر أولاد السيد سلطان الثلاثة الذين ما أن سمعوا بخبر وفاة أبيهم المسكين حتى بدأوا يتآمرون ضد بعضهم البعض في سبيل خلافته على ممتلكاته . ولكن أكبرهم السيد بدر إستطاع أن يمسك بمقاليد الحكم في يديه ،

---

(١) الواقع أن هذه المنحة قررتها السلطات العثمانية في العراق لحكومة عمان منذ أيام الإمام أحمد بن سعيد إذ هو الذي أنقذ البصرة ، ورفع الحصار عنها الذي كان قد وضعه الفرس عليها ولم يكن للوهابيين أو القواسم دخل فيه . والواقع أيضاً أن السيد سلطان لاقى حتفه أثناء عودته من مدينة البصرة التي ذهب إليها للمطالبة بدفع المتراكم من هذه المنحة المقررة التي توقفت السلطات التركية في البصرة وبغداد عن دفعها . وعلى هذا فإنه لم يكن ـ في هذه المرة بالذات ـ في حملة ضد القواسم . ولعل المؤلف أراد رواية الحادث بهذا الشكل فخانته ذاكرته أو معلوماته أو لغته أو ترجمته ، وإلا فما معنى زج البصرة وحصارها في هذا المكان بالذات وهو لا علاقة له البتة بسياق الكلام الذي أورده المؤلف . (المترجم) .

ورغم تجبره وإستبداده بأخويه فإنه لم يستطع الإمتناع عن منحهما بعض مظاهر الشرف والإمتياز ، فعين السيد سعيد والياً على بركا ، وعين أصغر الأخوة السيد سالم على ولاية المصنعة وما جاورها[١] .

وقد أرضت هذه الترتيبات الأخوة وقضت ـ لوقت قصير ـ على الدس والمؤامرات . لكن وقت الهدوء هذا لم يستمر لأمد طويل ، إذ ما أن سمع سعود ، وكان سياسياً لبقاً ومحارباً شجاعاً ، بوفاة خصمه اللدود السيد سلطان حتى بعث بحملة عسكرية كبيرة إلى مسقط عام ١٨٠٦ ، وقد بدا أول الأمر وكأن هذا الخطر الزاحف على البلاد قد أبعد ـ ولو إلى حين ـ الخلافات الداخلية بين الأخوة ، ولكن مع هذا ، فإن خواء بيت المال عاق إتخاذ الإجراءات الضرورية لصد هذا الزحف الكبير الذي يهدد البلاد بأعظم الأخطار .

وكان السيد محمد بن خلفان ، شقيق العاهل الراحل السيد سلطان[٢] قد إستطاع أن يكسب ثقة أولاد أخيه وأن يقنعهم بالوفاق ونبذ الحزازات ، وبهذا وحّد كلمتهم ، وجمع منهم من المال ما إستطاع به أن يجهّز جيشاً كبيراً قادراً على صد المعتدين .

وقد تولى السيد بدر قيادة هذا الجيش وسار به إلى البريمي ، وهي بلدة على حدود بلاده ، ليقف فيها في وجه الزحف الوهابي . وقد بذل هذا الأمير المغوار كل جهده لرد الوهابيين المغيرين ، ولكن إذ غلبته في النهاية كثرة جموع

---

(١) ناقشنا في المقدمة الخطأ الواضح الذي تورط به المؤلف بإعتبار السيد بدر أخا للسيدين سعيد وسالم إبني السيد سلطان ونريد هنا أن نصحح أن السيد سالم كان أكبر أبناء السيد سلطان ولم يكن أصغرهما كما يقول المؤلف ، وكان السيد سعيد ثانيهما وكان لهما أخ صغير آخر إسمه حمد قتل في إحدى حملات أخيه السيد سعيد على البحرين (المترجم) .

(٢) المقصود هنا هو السيد محمد بن خلفان الوكيل البوسعيدي ، وهو ـ بالبداهة ـ قريب السيد سلطان وليس أخاه . ولعل ما ورّط المؤلف بهذا الخطأ الجسيم والواضح ، هو الرواية القائلة أن السيد محمد كان صهراً للسيد سلطان ، ولأن كلمة صهر بالإنكليزية هي « أخ بالمصاهرة » Brother-in-law فقد إختلط الأمر على المؤلف أو المترجم ولم يميزا بين الصفتين . (المترجم) .

الأعداء الغفيرة لم يـر أمامـه من وسيلة لتجنيب بلاده الخـراب التام إلا بمصـالحة سعود .

ولا شـك أن شروط هـذا الصلح كانت قـاسية مـزرية ، ومـا كـان يمكن القبول بها لو لم تمليها عليه الضرورة القصوى . وفيما يلي أهم هذه الشروط : ـ

أولاً : يكون السيد بدر حاكـماً على مملكـة مسقط دون منازع ، وعليـه أن يدفع إلى الدرعية خمسين ألف دولار في كل سنة .

ثـانياً : يقيم في مسقط ، وبصفـة دائمة ، ممثـل من سعـود ليشـرف عـلى حسن إداء المواطنين للشعائر والفروض الدينية على مذهب عبد الوهاب .

ثالثاً : ترابط قوة وهابية مكوّنة من أربعمائة فـارس بالقـرب من « بركـا » لتأمين عدم الإخلال بالمعاهدة .

رابعاً : أما وقد أصبح بدر تابعاً لسعود ومعتنقاً للمذهب الجـديد ، فعليـه أن يطيع أوامر سعود في كل الأمور ، وأن يقدّم للحكومة الوهـابية كـل مساعـدة ممكنة حين تطلب إليه ذلك .

ومع أن بدر قد أصبح بموجب هذا الإتفاق مجرد تابع بسيط خاضع لسعود فإن مما خفف عنه مرارة شعوره بالمهانة حصوله في شخص سعود على مؤيـد قوى إستطاع أن ينادي به علناً سلطاناً على بلاده ورئيساً لعائلته[١] ، وقد أعلن رسمياً أن قوة الإحتلال المرابطة في « بركا » إنما ذهبت إليها بطلب خاص من السيد بدر للدفاع عنه إذا ما أعلن أخواه الثورة عليه .

لكن هـذه الإحتياطـات لم تنفع في دفـع الشر المحتـوم عنـه ، وإن كـانت بعض فعاله غير المرغوب بها قد عجلّت بحلوله أيضاً .

---

(٥) ألمحنا في مقدمة الكتاب إلى مجافاة هذه الكلام لواقع الحال كما تشهد بذلـك غالبيـة كتب التاريخ المترجم .

ذلك أن السيد بدر بدأ عند عودته إلى مسقط يتحكم في شؤون الحكم ، ولكن قبل شرح الحوادث التالية ، لا بدّ لنا أن نذكر في هذا المقام أن ملوك مسقط إعتادوا منذ قديم الزمان على إصطناع الجنود الأجانب حرساً خاصاً لحمايتهم والدفاع عنها . وكان هذا الحرس الخاص الأجنبي يشبه من بعض الوجوه الحرس السويسري الذي يصطفيه بعض ملوك أوروبا حرساً خاصاً لهم .

وكان يطلق على هؤلاء الصعاليك المرتزقة أسماء « البلوش والجيديكال » . فأما البلوش فهم سكان مقاطعة مكران الذين يدفعهم الفقر وبؤس الحال في بلادهم إلى البحث عن الخدمة في خارجها .

أما الجيديكال[1] فهم من أهل السند ويمتازون بالقوة والشجاعة وقد إختاروا الخدمة تحت علم السلطان السابق أملاً في ما يكسبونه في الحروب من إسلاب ومغانم .

وكان هذا الجند القديم - بطائفتيه - شديد الولاء والإخلاص لسيده السابق ، ومن ثم إنتقل هذا الإخلاص لجميع أبناء سيدهم القديم دون تفضيل لأحد على آخر . وهذا الأمر بالذات أثار نفرة السيد بدر منهم وريبته فيهم ، لأنه كان يريد أن يكون هو وحده محور الولاء والإخلاص ، ولهذه الأسباب فقد فكّر في التخلص من هذا الجيش ، الموزع الولاء وإستبدال حرس خاص جديد به يختاره من بين الأربعمائة وهابي الموجودين في « بركا » .

وكان السيد سعيد من جهته يراقب تصرفات أخيه وينظر إليها بعين الغيظ والريبة وخاصة لإتفاقه الأخير مع الوهابيين . لذلك فقد قرر ألا يدخّر فرصة تمر إلا ويعّرض فيها بأخيه ويهاجم تصرفاته .

وقد بدأ التعريض به وإنتقاده أمام البلوش والجيديكال الذين ما أن علموا أن بدراً قد بيّت النية على التخلّص منهم حتى إنضموا إلى السيد سعيد وإتفقوا معه على خلع السيد بدر عند أول بادرة تبدر منه ضدهم .

---

(١) التسمية الشائعة هي الزدكال - المترجم .

وقد حدث بعد شهور قليلة من بدء هذا الإضطراب السياسي أن وصل السيد سالم من مكان ولايته في المصنعة إلى مسقط دون إذن من السيد بدر مما أثار حنق الأخير وغضبه فتوعده بالقتل جزاء فعلته هذه . فخاف السيد سالم الوعيد وتسلل سراً إلى أخيه السيد سعيد الذي إستبقاه معه في حصن « بركا » .

وقد ألهب هذا العمل نيران الغضب والإنتقام في قلب السيد بدر ، الذي ما أن علم بإلتجاء السيد سالم إلى أخيه حتى هاج وماج وطالب السيد سعيد بتسليم أخيهما اللاجىء إليه في الحال ، وبتجريد سالم من جميع إمتيازاته وبمصادرة حصان أصيل ثمين له ورثه عن أبيه .

وقد طلب السيد بدر أن تنفذ أوامره بالتمام خلال ثلاثة أيام فقط وإلا فإنه سيزحف لتنفيذها بنفسه .

وقد رفض السيد سعيد الرضوخ لمطالب السيد بدر أو الإهتمام بتهديداته ، ولكنه في نفس الوقت تهيأ للدفاع عن نفسه وبلده وأخبر تابعه المخلص « المجمدار » أي قائد البلوش والجيديكال بما حدث وأسر له عن عزمه القاطع على قتل أخيه إن تجرأ ووصل إلى « بركا » .

وأسر السيد سعيد أيضاً بنواياه إلى إبن خاله[1] محمد بن ناصر الذي وافقه على خطته في إغتيال أخيه والذي طال تفكبر السيد سعيد بها وإستعداده لها .

وثقة من الأمير بنفسه وشجاعته وإصراراً منه على تنفيذ أوامره وجهلاً منه بما كان يدبّر ضده من مؤامرات ، فقد توجه إلى بركا وليس معه إلا نفر قليل من أتباعه ودون أن يخبر بسفرته هذه العسكر الوهابي الموالي له والمرابط بالقرب من بركا ، ولم يكن يدري إنه يقترب من أجله في كل خطوة يقترب بها من المدينة .

وقد وصل السيد بدر إلى المدينة ومشى إلى القلعة ودخلها ثم ولج إلى

---

(١) كلمة cousin في الإنكليزية تعني إبن العم أو العمة أو إبن الخال أو الخالة وبناتهم ، وقد إخترنا « إبن الخال » إعتباطاً . وقد تكون أقرب للواقع خاصة وإن علاقة المصاهرة كثيرة بين عائلة محمد بن ناصر والعائلة الحاكمة (المترجم) .

الغرفة التي كان فيها السيد سعيد والسيد محمد بن ناصر ، وكان على بابها حارس نوبي كان هو الآخر ضالعاً في المؤامرةوقد إستقيت منه شخصياً كل تفاصيل الحادث .

وقد جلس الرجل المسكين دون حذر بين أخيه وإبن خاله ، ثم بدأ في الحال يلوم السيد سعيد على مخالفته لأوامره معيداً عليه شفاهاً ما كان يكتب به إليه .

ولم يرد السيد سعيد على هذا الكلام بشيء ، وإنما نهض من مجلسه ، وبحركة سريعة بارعة إنقض على السيد بدر ، وإنتزع من وسطه خنجره وأسرع فأغمده في صدر أخيه .

لكن الضربة لم تكن عميقة قاضية فنهض بدر في الحال يريد الخروج من الغرفة ، فألفى حارسها النوبي قد أغلق الباب دونه ، فلم يجد له مخرجاً منها إلا بإلقاء نفسه من نافذتها إلى الخارج . وقد سقط على كوم من التبن مما خفف من أثر صدمة السقوط عليه ، ثم نهض وتوجه إلى الأصطبل حيث وجد حصاناً مسرّجاً ، على عادة العرب بإبقاء بعض خيلهم مسرجة لتسهيل الهرب عليها عند الحاجة ، فإمتطاه وعدا به نحو الجيش الوهابي المرابط في جوار المدينة .

وقد تبعه السيد سعيد والسيد محمد بن ناصر على جواديها مستدلين على أثره مما يثيره حصانه من غبار ، حتى إنتهوا جميعاً إلى بستان نخل . وكان السيد سعيد يركب أحد جياد أبيه الأصيلة فلحق بالسيد بدر وسبقه وإضطره ـ بسلاحه ـ أن ينعطف نحو اليمين حيث ظهر أمامه محمد بن ناصر فسدد إليه بدر طعنة نجلاء نافذة من رمحه أفقدته وحصانه التوازن فسقطا على الأرض .

وقد إستغّل بدر سقوط أحد مطارديه فتابع جريه ، رغم نزيف الدماء المتدفق من صدره ، حتى صار على مرمى البصر من معسكر جنده الوهابي ، وصار من النجاة قاب قوسين أو أدنى ، لو لم يعاجله النوبي الحارس بطعنة سديدة من رمحه أردته قتيلاً في الحال .

وما أن عاد السيد سعيد وأتباعه إلى القلعة حتى تجلّت له جسامة فعلته ووخامة عواقبها ، فبدأ يفكر ويخطط لتدارك الأمر ودفع الشر ، فطلب من السيد محمد بن ناصر أن يخفي نفسه في القلعة لا يخرج منها ، وفي نفس الوقت أرسل رسله إلى جميع القبائل في أنحاء البلاد كافة يذيعون أخباراً مختلقة يتهمون بها الوهابيين بمقتل السيد بدر ويستثيرون همم العرب ومشاعرهم للإنتقام منهم لمقتله .

وحين كانت هذه الإجراءات تأخذ سبيلها ، سمع الجند الوهابي بطريق الصدفة من إمرأة عابرة بالمصير الذي إنتهى إليه حليفهم بدر فركبوا خيولهم وجاءوا القلعة وحاصروها يريدون تسليم القاتل إليهم .

وما أن رآهم السيد سعيد حتى إدعى جهله بالأمر وطلب إليهم البحث الدائب عن محمد بن ناصر ، إذ لن يكون القاتل ـ كما إدعى لهم السيد سعيد ـ شخصاً آخر غيره قط .

ولكن الوهابيين كانوا يعلمون حق العلم بطلان إدعاءات السيد سعيد هذه ومجافاتها لواقع الحال بسبب علمهم المسبق بالمؤامرات التي كانت تحاك في الخفاء منذ زمن طويل . ولهذا فقد إقتحموا أبواب القلعة وفتحوها عنوة بدعوى التفتيش عن القتلة ـ الذين ما زالوا حسب إعتقادهم ـ داخل القلعة لم يخرجوا منها . وقد أوشك السيد سعيد أن يفقد الأمل بالنجاة ، فإستعد للدفاع عن نفسه ، ولكن سرعان ما جاءه الخلاص من حيث لم يقدّر ، إذ إرتفعت بغتة أمام الأنظار سحابة كثيفة من الغبار أثارها تدفق الأعراب إلى مسقط[1] من شتى أنحاء البلاد ، ومن أجل الإنتقام لمقتل أميرهم الشاب من الوهابيين قتلته المزعومين .

وسرعان ما إختلط الحابل بالنابل وساد الهرج والمرج وإرتفعت الصيحات

---

(١) يلاحظ أن مسرح الأحداث هو مدينة بركا ، أو في واقع الحال ، قرية النعمان من أعلى بركا ، وليس مسقط (المترجم) .

بطلب الإنتقام من الوهابيين الذين وجدوا أن من المستحيل عليهم إثبات براءتهم من الحادث أو الصمود أمام هذه الجحافل الغفيرة المتكاثرة من البشر فإنسحبوا إلى خارج المدينة ومنها واصلوا إنسحابهم إلى الدرعية وهم يهددون السيد سعيد بإنتقام سعود وبطشه .

وقد تبع العرب أثر الوهابيين ليلحقوا بهم قبل الفرار فخلت المدينة من هؤلاء ، وأولئك وعاد إليها الهدوء مما هيأ الفرصة للسيد سعيد لمغادرتها إلى مسقط سراً وعلى عجل وليس معه من أتباعه إلا إثنان أو ثلاثة ودون أن يخبر السيد محمد بن ناصر بخطته هذه .

وقد إستقبله السكان في مسقط ، وخاصة منهم البلوش والجيديكال ، بالتحية والترحيب ونادوا به سلطاناً على البلاد ، وهكذا جلس السيد سعيد ، وهو في السادسة والعشرين من عمره[1] على العرش الذي ضرّجه بدماء أخيه .

وبعد أيام من سفر السيد سعيد خرج محمد بن ناصر من مخبأه ، وكان قد إتفق مع السيد سعيد على إقتسام السلطان بينهما إذا نجحت مؤامرتهما على السيد بدر ، ولكنه ، وقد وصلت إليه أخبار السيد سعيد في مسقط ، فقد دهش من غدر شريكه به وخيانته له ، فأسرع يغذ السير نحو مسقط للمطالبة بحصته من الغنيمة .

وما أن رأى السلطان الجديد صاحبه قد حلّ في مسقط حتى راح يمنيه بمعسول الكلام بقرب تنفيذ ما بينهما من إتفاق ولكنه في الوقت نفسه كان ينصّب سراً باللائمة عليه أمام وجوه القوم ورؤسائهم بإعتبار أن السيد محمد بن ناصر ـ هو ، وما من أحد غيره ، القاتل الوحيد للسيد بدر ، ويتآمر في الوقت نفسه أيضاً مع جنده القديم من البلوش والجيديكال المخلصين لسيدهم كل الإخلاص ، على القضاء على السيد محمد بن ناصر والخلاص منه للأبد .

---

(١) لم يكن السيد سعيد قد بلغ العشرين من عمره عند وقوع هذه الأحداث (المترجم) .

ولكن السيد محمد ـ وهو نفسه متآمر عريق ، طالما أذاق الغير كؤوس الردى ، فهو يعرف مداخل الأمور ومخارجها ، لم تنطل عليه مكائد السيد سعيد ونياته ، فأحسّ بالخطر يقترب منه ، فهرب سراً إلى أزكى[1] ، وهي مدينة في داخل عمان على مسيرة حوالي الخمسة أيام من مسقط ، وهناك تهيأ للدفاع ضد أي هجوم محتمل قد يشنه عليه السيد سعيد ، وكتب في نفس الوقت إلى سعود يطلب منه الحماية والعون في حين كان السيد سعيد ينعم في مسقط بالطمأنينة والهدوء وينعم أخوه سالم بمثل ذلك في ملكه الصغير بالمصنعة

وقد بدأ السلطان الصغير حكمه بإستمالة رؤساء القبائل والتقرب إليهم واستشارتهم في أمور الحكم والسلطان ، ولكنه في الواقع لم يكن ليستمع لأحد في هذا الموضوع غير خاله محمد بن خلفان[2] ، الذي وجد أن سلامة إبن أخته أمر هام وضروري لتقدم المملكة وازدهارها ، ولذلك فقد نصحه أن يتصرف في المستقبل بمنتهى الروية والحذر وأن يعمل على رتق الفتق الذي أحدثه مقتل السيد بدر في علاقته مع سعود ، بأن يوفد إلى الدرعية أحد شيوخ القبائل الكبار حاملاً منه رسالة ترضية إلى سعود .

وقد بعث السيد سعيد بهذه الرسالة ، وكان محتواها كما يلي : ـ

ابتدأت أولاً بالتعبير عن الأسى والحزن الذي يحسّه السيد سعيد من جراء الجريمة المنكرة التي أودت بحياة أخيه واضطرته أن يخلفه على عرشه . ثم أشارت إلى أن قاتله الوحيد قد فرّ إلى أزكى فرارا من العقاب المحتوم الذي يستحقه ، وإنه ادعى هناك أنه طلب حماية الوهابيين ، وهو أمر لا يصدقه السلطان ، لأنه لا يعتقد أن سعود يمد حمايته على قاتل صديقه وحليفه ، بل إنه يتوقع العكس من ذلك من سعود ، بأن يتخذ كل الإجراءات لحبس المجرم وعقابه إذا ما وقع بين يديه .

---

(١) يكتبها المؤلف Zecch المترجم .

(٢) يستعمل المؤلف Uncle وهي تعني الخال والعم ، وإذ لم يكن محمد بن خلفان ، وبالتأكيد عما للسيد فقد إخترنا له لفظة الخال . أنظر هامشنا رقم ٢ ص ٦٩ .

ثم تمضي الرسالة إلى القول بتأكيد إستعداد السلطان للوفاء بكل الشروط التي التزم بها بدر في إتفاقه مع سعود ، كما يطالب أن يعود الجنود الوهابيين الأربعمائة إلى « بركا » ويتعهد بمنحهم كل الإمتيازات والحماية التي كانت لهم من قبل أيام السيد بدر .

وتنتهي الرسالة بمراجعة كل ما حدث مع تضمين أصدق تحيات الود والإحترام للمذهب الوهابي ولحكومة سعود .

ولكن سبق لسعود أن علِم بواسطة وكيله المقيم في مسقط بحقيقة كل ما جرى من أحداث ، ولذلك فقد أجاب السلطان برسالة مشابهة ، إستجاب فيها إلى كل طلبات السيد سعيد عدا طلب إعادة الجند الوهابي إلى « بركا » لأن الواقع ، كما قال سعود في رسالته ، أن ما من أحد يرضى بالمجازفة بحياته بالذهاب إلى مكان غير آمن ، ثم أبدى سعود رغبته في أن يعفو السلطان عن السيد محمد بن ناصر ويترك له ولاية أزكى ليعيش فيها بسلام .

وهكذا خططت الدرعية للإحتفاظ بتابع وعندها كل المبررات للشك في ولائه . ومن جهة أخرى فقد أدرك السيد سعيد خواء هذه الصداقة المزعومة من أية عاطفة حقيقية من عواطف الود والإخلاص ، ولكن ضعف قواته العسكرية يضطره إلى تجزئة خططه التي أعدها للإنتقام من شريكه في الجريمة ولإعادة إستقلال بلاده وتأجيلها إلى فرص مؤاتية أخرى .

* * *

كان السيد سعيد شاباً حلو الملامح مربوع البنية بشوش المحيا فيّاض الحيوية جذاب المعشر وكان يتمتع بإدراك سليم للأمور ورغبة في الإستزادة من المعرفة وهذا ما جعله ميالاً إلى الإستفسار من الأوروبيين الذين يفدون على مسقط عن الأمور التي لا معرفة لأهل بلاده بها .

وكان حبه الدائم للإنصاف وللعدالة ورقته الشهيرة تأسران قلوب الناس ولا يقتصر أثرهما علينا نحن رعيته المقربون إليه فحسب ، بل ويمتد إلى جميع

عبيده وخدمه فيجعلنا نحاول أن ننسى بشاعة الجريمة التي جاءت به إلى العرش .

وتقع عاصمته ، مسقط ، على رأس جبل يمتد في البحر إلى مسافة طويلة على خط العرض الشمالي ٢٣و٣٢ . ولأنها محاطة من جميع جهاتها بجبال صخرية جرداء تعكس أشعة الشمس المحرقة ، لذا فإن حرارة الجو في مسقط لا تطاق حتى لسكانها الأصليين ناهيك بالأجانب الذين لم يعتادوا مثل هذا الحر القاسي في بلادهم .

وفي سبيل إعطاء صورة عن أثر المناخ على السكان فإني لا أستطيع إغفال رواية حادث شهدته بنفسي : فقد قتل يوما ما عربي بضربة سيف على رأسه ، وعند الكشف على موضع الإصابة وجدت أن الجمجمة قد إنفلقت تماماً وأنها على درجة من الخشونة والصلابة وكأنها كعب حذاء . وهذه ظاهرة نادرة لا أستطيع أن أعزوها إلا إلى قوة أشعة الشمس وشدة حرارتها .

والعرب في هذه المناطق لا يغطون رؤوسهم أبداً في أي موسم من مواسم السنة[١] باستثناء الرؤساء وكبار التجار وبعض سكان مسقط .

ويلبس بعض البدو ال fus [٢] وهو لباس للرأس شائع الأستعمال في بلاد الشرق عامة .

ولشدة الحر في مسقط ، فإن السلطان وعليّة القوم يخرجون إلى « بركا » خلال شهري حزيران وتموز حيث يكون الجو فيها ألطف منه في مسقط .

وميناء مسقط دائري الشكل ، ويتألف من جزيرة قطرها ميل إيطالي ،

---

(١) ليس من عادة العرب كشف رؤوسهم دون غطاء ، فعدا عن أن حرارة الشمس في بلادهم في النهار وبرودة الجو في الصحراء مساءً تحتم عليهم السعي إلى تغطية الرأس فإن من المعلوم أيضاً أن كشف الرأس أمر مستهجن عند العرب ، وعلى كل حال فسيعود المؤلف بعد حين فيناقض نفسه . (المترجم) .

(٢) هكذا أوردها المؤلف وقد يكون أقرب الأشياء أن نأخذها على أنها Fez بمعنى طربوش إلا أننا لا نستطيع أن نصدق أن المؤلف يريد القول أن البدو يلبسون الطرابيش (المترجم) .

وتقع في مواجهة المدينة تماماً وتجعل الإرساء فيها سهلاً وأميناً ، وتوجد بالقرب منها بعض الآبار التي تؤمن ماء صالحاً للشرب ، كما أن الفواكه والمخضرات متوفرة فيها ، وهذه تشمل التمور والبرتقال والليمون وغيرها . . وكذلك تتوفر لحوم الماشية والدواجن وتباع بأرخص الأسعار ، عدا عن أن البحر يزوّدها يومياً بأطنان من السمك ، وهو مع الرز والتمر قوام غذاء السكان . وما يفضل لديهم من الأسماك وهو كثير ، فيعطونه علفاً للماشية والأغنام . وإذا رغب ربان أحد السفن بالحصول على ماء جيد فعليه من أجل ذلك النزول إلى البر ، ولو أن ماء الساركال (وهو ماء تجهزه الحكومة للسفن) على درجة كبيرة من الجودة ، وخاصة وأن السلطان قد أمر بفتح قناة توصل هذا الماء إلى شاطىء البحر مباشرة .

وعلى الإجمال ، فليس على سواحل الخليج الفارسي كله مكان غير مسقط يستطيع تزويد السفن بحاجتها من الماء والغذاء ، وهما الأمران الضروريان للحياة وربما يعزى تفوقها التجاري إلى قدرتها هذه .

وتعجّ شواطىء مسقط ، وسواحلها بأعداد غفيرة من الأسماك الصدفية ذات الطعم اللذيذ والشكل الجذاب . وتوجد أكثر هذه الأصداف خالية من حيواناتها ، وتكثر في مياه البحار الضحلة حيث يمكن - لصفاء الماء - رؤيتها بألوانها الزاهية المتنوعة في قاع البحر .

وقد وجدت ليالي مسقط ، حين تخلو سماؤها من الغيوم ، وحتى عند غياب القمر ، مضيئة ضوء ليالي المدن الأوروبية حين يحتل فيها القمر كبد السماء ويرسل على الكون أشعته المنيرة ، وما ذلك إلا لأن لمعان النجوم ، وتكسّر الأمواج يعكس على كل موجة منها أضواء النجوم فينتج عنها مهرجان من الضوء .

وينضاف إلى هذا أن البحر مملوء بمجموعات من الحيوانات الفسفورية التي يخطف لمعانها الأبصار في ظلمة الليل .

والصخور العظيمة التي تحيط بميناء مسقط موحشة جرداء لا خضرة فيها عدا عن بعض الأعشاب القليلة ، ومع هذا فالثعالب تسكن الجزيرة التي تكوّن مدخل الميناء ، وليس لهذه الحيوانات ما تعتاش عليه في هذا المكان إلا السمك الذي يرميه لها البحر أو تتهيأ لها الفرصة لصيده ، كما وليس هناك ماء تشربه إلا ما يتجمع في الحفر وشقوق الصخور من مياه الأمطار ، وهذا مورد شحيح إذ قد تنقطع الأمطار عن البلاد سنين متعاقبة . ولذلك ففي هذه الحالة ، تكون دماء السمك هي السائل الوحيد المتيسر لديها .

والقسم الأعظم من مسقط مبني بالحجارة بشكل جيد ، وعندما تركتها كان السيد سعيد مشغولاً ببناء قصر أنيق له على الطراز الأوروبي ، والذي سيكون ، حين يكمل ، منظراً مخالفاً ومقبولاً للمنظر القديم للمدينة .

وهناك ، في مسقط ، كنيسة قديمة بناها البرتغال عام ١٥٣٠م ، وما تزال قائمة ، وهي بمظهرها تشبه الأديرة ، وتستعمل الآن مركزاً للمحاكم واسمها الحالي « الكريزة » وهو تحريف لكلمة أكريجا البرتغالية ومعناها « الكنيسة » .[١]

وقد أحاط السيد سعيد عاصمته بسور عال ، لكن عوارض الصخور الكبيرة الملساء التي كونتها الطبيعة والتي أقيمت عليها أبراج المراقبة ونقاط الحراسة تمنحها حماية أكثر . وهناك قلعتان برتغاليتان تحميان الميناء يطلق العرب على أكبرهما اسم المراني وعلى الاخرى اسم الجلالي. وربما يحمل هذان الإسمان شبهاً لاسميهما الأوليين . وقد وضعت الآن بعض بطاريات المدافع في هاتين القلعيتن .

وفي مسقط أعداد كبيرة من السكان ، وإن لم يمكن ضبط العدد الصحيح لسكانها ، بسبب إستمرار هجرة الأجانب إليها نتيجة الأزدهار التجاري . وعلى هذا فالتجار في مسقط كثيرون ، وقد يزيد رأس مال البعض منهم على المليون دولار . وبين السكان ٤٠٠٠ بانياني ، ومهارتهم تلفت النظر ، كما أن هناك عدداً قليلاً من اليهود وليس فيها أحد من المسيحيين عدا المسافرين العابرين .

---

(١) رممت وأصلحت قبل أعوام وأتخذت قصراً لنزول ضيوف الحكومة (المترجم) .

وفي غياب المعلومات الصحيحة الدقيقة فأظنني لا أتجاوز الحقيقة بكثير إذا ما قدّرت عدد سكان مسقط لعام ١٨٠٩ م بحوالي الستين ألف نسمة .

واللباس المعتاد هو الجلباب من الكتان الأبيض أو الموسلين الرقيق مع عمامة لتغطية الرأس[1] ، ولكن إقتناء مثل هذا اللباس الثمين لا يتيسر إلا للميسورين من الناس فقط ، أما فقراء القوم فهم هنا ، كما هم في أنحاء بلاد العرب ، أنصاف عراة .

ومن عادة الرجال أن يشدوّا على أوساطهم حزاماً جلدياً شدّا محكماً بحيث يترك أثره الدائم على أجسامهم ، ويستعمل هذا الحزام مخزناً للأوراق والمحبرة وريشة الكتابة والسكين ، وكل ما يحتاج إليه العربي في حياته اليومية .

وعدا نساء الشيوخ ووجوه القوم ، فالنساء لا يضعن الحجاب على وجوههن وهن يقلدن في لباسهن لباس النساء الشرقيات ، وخاصة منهن الغانيات الفارسيات اللاتي يفدن على مسقط ويعتبرن من أجمل النساء في عمان .

وتقع إدارة الشؤون البلدية تحت الإشراف المباشر للسيد سعيد ، ويعهد بها عند غيابه إلى بعض أصدقائه المقربين . والحكم في عمان ، كما هو في كل أقطار الشرق فردي إستبدادي وقد يخضع للخرافات والشعوذة ، ولكن مع هذا كله فأن الملكية الخاصة للأفراد تتمتع بالحماية الكافية ، وخاصة منها ما يعود للأوروبيين بسبب الإحترام الذي يتمتع به الإنكليز ومع أن العرب يكرهون الفرنج وكثيراً ما يتآمرون ضدهم ، فإن السائح الأوروبي قد يقيم صداقات عميقة تهرع إلى نجدته حين يحتاج إلى المساعدة .

وهذا القطر المعرّض لأشعة الشمس المحرقة ، خالٍ تمام الخلو من كل وسائل التسلية والترفيه ، ولا تقع عين المرء فيه إلا على الملامح العربية السمراء ، أما الوجوه البيضاء البضة للجنس اللطيف فلا أثر لها هناك . وهذا ما

---

(١) أنظر هامشنا رقم ١ ص ٧٨ .

يؤدي بالأجانب إلى السأم والكآبة ، وقد يؤدي الكبت إلى الأضرار بالصحة كما يستطيع أن يفطن القارىء إلى ذلك من تجاربي الخاصة التي سأذكرها ، بأماكن أخرى من مؤلفاتي .

وفيما يلي بعض ملاحظاتي عن طوبوغرافيا البلاد والتي مكنتني رحلاتي إلى داخل البلاد من جمعها وتصنيفها .

على بعد ثلاثة أميال من مسقط يتشعب الطريق إلى ثلاثة طرق ، يذهب الطريق الأيمن منها إلى التلال الصخرية لمطرح ، وهي مدينة تقع على البحر على بعد ميلين من الشمال الغربي للعاصمة مسقط .

أما الطريق الأوسط فينتهي بالمسافر بعد أربع ساعات من السير الحثيث إلى ريام ، وهي قرية برية . بينما يؤدي الطريق الأيسر الذي يتجه نحو الجنوب الشرقي إلى قرية سداب على البحر .

وفي نقطة ما قرب (ريام) تلتقي الطرق القادمة من عمان الداخل بعد أن تمر من سور يشكل نصف دائرة حول مسقط ، ويمر من الجبال القريبة الفلج حيث للسيد محمد بن خلفان بيت جميل هناك .

ومنطقة الفلج الصغيرة خصبة جداً بسبب بعض جداول المياه التي تسير في بعض أقسامها . والسور المذكور أعلاه مبني من صخور كبيرة صف بعضها فوق الآخر ، بعرض يتراوح بين ال ٨ و ١٠ أقدام ويمتد إلى سداب وهي مسافة تقرب من العشرين ميلاً .

وبالسير من ريام بإتجاه الجنوب أو الجنوب الشرقي يصل المرء إلى بوشير وهي على مسافة مسيرة يوم واحد أو ٢٤ ميل من مسقط ، وفيها تتفرع الطريق إلى فرعين يذهب أحدهما نحو الجنوب الشرقي إلى الرستاق ، ويذهب الثاني إلى جبال إبن روى في الجنوب الغربي .

وتوجد في بوشير بعض عيون المياه المعدنية الدافئة التي يقصدها السكان المجاورون للأستحمام في مياهها .

وإذا توجه المسافر من ريام إلى الغرب تاركاً بوشير إلى يساره فإنه يصل مقاطعة أزكى في حين أنه إذا التزم في سيره الشمال الغربي فإنه سيمر بموانىء السلطان البحرية .

وبالإختصار فإن البلاد التي يحكمها السيد سعيد تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي لسواحل الخليج الفارسي لمسافة حوالي ٢٠٠ ميل إيطالي . على أن أملاكه لا تمتد إلى داخل عمان بأكثر من مسافة مسيرة خمسة أيام أو ١٠٠ ميل فقط وإذا إبتدأ المسافر من الجبال الجرداء في رأس الحد حيث تستقر على سفوحها مدينة صور ، مروراً إلى أقصى الشمال الغربي بمدينة قلهات وكلا المدينتين محاطتان بسهول خصبة خضراء فإنه يصل إلى المقاطعة التي تكون قسماً من ظفار وهي جعلان .

وتنتهي حدود هذا القطر من جهة الشمال بالقرب من مدينة البريمي ، وتقع على مسيرة أربعة أيام أو ١٠٠ ميل من البحر ، وقد احتل الوهابيون هذا المكان ، الذي تبدأ على القرب منه الصحراء الشاسعة الممتدة حتى تخوم عاصمتهم الدرعية ، وتقطع الجمال هذه المسافة عادة بحوالي العشرين يوماً .

وإلى الشمال من البريمي حيث يلتقي خط الحدود مع البحر نجد مدينة شيناص ، ومقاطعات تعود الآن للقواسم ، وكل تلك الأقسام من أملاك السلطان الأسبق التي سبق ذكرها • إنما تقع جميعها في ذلك القسم من شبه جزيرة العرب التي يطلق عليه إسم عمان .

والسائح الجريء يستطيع دون شك في أن يقطع المسافة بين مسقط ومكة بطريق البر وطبقاً للمعلومات التي إستقيتها من أحد أصدقائي البدو فإن عيون الماء ، التي تشبه الأفلاج ، منتشرة على طول هذا الطريق ، كما تستطيع القرى الكثيرة ، على كونها تقع في الجبال الصخرية المحرقة ، أن تزود المسافر بما يحتاجه من لوازم الحياة أي الماء والزاد ، نظراً لخصوبة الوديان في سفوحها .

على أنه ما من أحد يجرأ على القيام بمثل هذه الرحلة لأن العرب يعتقدون

أن سكـان الجهة الثـانية من جبـال إبن روى هم من آكلة لحـوم البشر ، الـذين يفترسون السود والبيض دون تمييز . وهذا الإعتقاد ناجم عن إنقطاع الصلة بين أهل مسقط وأهل حضرموت الذين لا ترسو السفن في سواحلهم مطلقاً .

وللسلطان الحـالي علاوة عـلى أملاكـه على السـاحل الشـرقي من الخليج الفـارسي ، والتي سبق لنا ذكـرها ، فـإن له مينـاء في مكران عـلى طـول أراضي « الكوش » في السند ، وكذلك مـدينة بنـدر عباس أو جـوندروم عـلى الشاطىء الثاني من الخليج الفـارسي ، وكذلـك جزر قشم ولارك وهـرمز ، وكـذلك فـإن جزيرة زنجبار التي يسميها العرب « السواحلي » تقترن بسيادته عليها . وتجرى في هذه الجزيرة تجارة العبيد على نطاق واسع جـداً ، وكثيراً مـا يزورهـا الأوروبيون والعرب لشراء الزنوج الذين يصلون إليها باستمرار من أواسط أفريقيا ويعرضون في أسواقها ، ويقال أن إيراد السلطان السنوي من هذه التجـارة البشعة يبلغ ٧٥ ألف دولار .

أمـا واردات الجمارك في مسقط فهي ممنـوحـة بـالإلتـزام إلى أحـد التجـار البانيان بإيجار قـدره ١٨٠ ألف دولار في السنة ، كـما يدفـع بالإضـافة إلى ذلك مبلغ خمسة آلاف دولار ، مقابل إجازة تصدير الملح من هرمز وتنتـج قشم ولارك وبندر عباس كميات مساوية من الملح .

ويدفع بلوش المكـران أتاوة سنـوية ، ولـو أنها قليلة نسبياً ، إلا أنها تبـدو لهم ، بسبب فقرهم المدقـع ، مبلغاً جسيـماً جداً ، لكن السلطان يستمـد إيراده من المقاطعات التي تخضع إلى مسقط مباشرة .

ونفقات بيت المال ليست كثيرة ، ولو أن السيـد يحتفظ دائماً بجيش قـوامه ألفا جندي ، كما قدمنا القول في ذلك ، وحوالي المئات من العرب بالإضافـة إلى عبيده وخدمه وحاشيتـه ، ويبلغ مجموعهم حـوالي الثلاثـة آلاف نسمة . كـما أن لديه عدداً من السفن الثلاثية الشراع التي يستعملها أثناء السلم في نقـل التجارة من الهند وإليها في حين ينقل عليها أيام الحروب عسكره وعتاده .

وفي إمكانه في حـالة الحـرب أن يزيـد عدد قـواته إلى ١٥ أو ٢٠ ألف من المشاة وإلى حوالي الألف من الفرسان ، ويساهم التجار في نفقات تسليحهم لأن الإيرادات الإعتيادية لا تكفي لسد مثل هذه النفقات الإضافية الباهظة .

وفي مسقط حوالي الأربعين سفينة ذوات حمولات تتـراوح بين ال ٤٠٠ إلى ٧٠٠ طن ، وكلهـا من غنـائم الإنكليـز من الفـرنسيـين والتي بيعت في جـزيـرة فـرانسة[١] أثنـاء الحرب الأخيـرة مضـافـاً إليهـا عـدد من سفن الـداو والمـراكب الصغيرة والتي سنأتي على وصفها في مكان آخر من منشوراتنا .

---

(١) جزيرة فرانسة هي ما يعرف اليوم بإسم جزيرة موروشيوس . (المترجم) .

الفصل الثاني

وصف الأقطار والمدن والسكان على ساحل الخليج الفارسي ، مع بعض الملاحظات عن التغييرات الحادثة منذ أيام نيبهور ، مع نبذة تاريخية عن الوهابيين .

مع أن هذا الفصل يبدو خروجا عن التسلسل التاريخي ، فإن وضعه هنا مهم ليشرح للقارىء بوضوح أكثر ما تبقى من أقسام الكتاب .

إلى الشمال من مملكة مسقط تقع مدن : شناص وخور كلب[1] وخو فكان والشارقة والجزيرة ، ورأس الخيمة ، وكلها تمتلكها القبيلة العربية المسماة « القواسم » ، والتي لم يلحظها أو يذكرها نيبهور في رحلاته والتي عاصمتها رأس الخيمة .

وكان مؤسس هذه القبيلة شيخاً يدعى قاسم ، وكان قد نصب خيمته على مرتفع بارز من الأرض بالقرب من الشاطىء ، بحيث أصبحت معروفة لجميع السفن المارة بالخليج فأطلق على هذا المكان أسم « رأس الخيمة » .

وعلى مدى الأيام بنيت في ذلك المكان مدينة أكتسبت هذا الاسم بالتبعية أيضاً .

وخلّف الشيخ قاسم من بعده ذرية كثيرة ، فأستغلوا وقع مدينتهم وأصبحوا على مدى الأيام قبيلة ، وإذ وجدوا أن مواردهم لا تكفيهم فقد عبروا الخليج إلى الساحل الايراني ، وأقاموا لهم مستوطنات عدة ، حيث بنوالهم هناك

---

(١) لعل خور كلب هو ما يعرف اليوم باسم كلبا .

مدناً زاهرة مثل شيرك ولنجة ولفت وقرى عديدة أخرى ، وكان سكان هذا الساحل يكونون مع اخوانهم على الساحل العربي حكومة واحدة ويحملون نفس أسمهم الأول ـ القواسم .

وخلال حكم عبد العزيز ، الأمير الثاني للوهابيين ، اعتنق القواسم مذهب هذه الطائفة الناشئة ، وانهمكوا ، بسبب هذا في حروب دائمة مع كل جيرانهم ، وبالأخص منهم حاكم مسقط .

ففي عام ١٨٠٨م كان سلطانهم يدعى **صقر**[١] ، وستشغل رواية أفعاله ، بوصفه رئيس أكبر جماعة « قرصنة » عرفتها البحار العربية ، الكثير من الصفحات التالية من هذا الكتاب .

وإلى الشمال الغربي من بلاد القواسم تقع جزيرة **البحرين**[٢] المشهورة بمصائد اللؤلؤ الثمين ، وكذلك مدينة القطيف ، ويحكمها شيخ يدعى محمد بن سلامة الذي اضطره جواره للدرعية إلى الرضوخ إلى حكم سعود .

والمحل التالي الذي له بعض الأهمية هو **القرين**[٣] ، التي تحكمها قبيلة عربية تدعى « العتوب » ، وقد فات نيبهور أن يذكرها إلا أن تكون هي نفسها التي أسماها عتبة . وهذه القبيلة في حلف مع الوهابيين ، ولكنها ليست تحت سيطرتهم ، ويعتبر العتوب من أمهر البحارة العرب وأكثرهم جرأة .

وإلى الشمال أبعد من هذا ، تقع على الساحل الغربي للخليج مدينة الزبير ويخضع شيخها لسلطة جاره والي البصرة .

وإذ تتبعنا الساحل الغربي لهذا البحر الداخلي الكبير ، فيجب أن نعبر نهر الفرات ، والذي يسميه العرب « **شط العرب** »[٤] وأول من نقابلهم من الأقوام

---

(١) أورد المؤلف أسمه هكذا : messaghera

(٢) ويسميها المؤلف «بحريم»: BAHREEM

(٣) المقصود بالقرين الكويت الحالية .

(٤) كلام المؤلف ظاهر الجهل ، بحيث لا يحتاج إلى تعليق .

هنا قبيلة تدعى « كعب »[1] وتمتد أراضيها إلى « ششتر ودسبول » وتكاد تتداخل مع المقاطعات الإيرانية ، ويخضع بعض أفراد هذه القبيلة إلى سلطة ملك العجم ، في حين يقرّ فيها بسلطة والي البصرة ، لذلك فلم يبق لهم ظل من السلطان الكبير الذي كان لهم أيام نيبهور .

ثم تأتي « بندر ريجا » وهي قرية مهجورة ولكننا أنا نزلنا إلى الساحل الهندي نجد مدينة « بوشهر » وهي المدخل الرئيسي إلى بلاد فارس ، وتعود إلى شاه إيران الذي يعين لها من وقت إلى آخر ، حاكماً عاماً ، وفي هذا المحل يقيم بصفة دائمة « قنصل بريطاني » يشرف على مصالح شركة الهند الشرقية .

وقد بنيت المدينة على رأس مرتفع من الأرض ، يمتد في البحر ، وقد احيطت بسور ، وتقع إلى الجنوب منها « كان ركون » وهو مكان له بعض الأهمية إذ يقع على النهاية القصوى لخليج يحمل هذا الاسم أيضاً . وهي تتبع بوشير .

وعلى بعد ستين ميلاً من كان ركون تقع مدينة asceio[2] وهي تعود للشيخ ناصر ، ثم إلى الجنوب من ذلك تأتي بلاد القواسم التي تقدّم وصفها .

وإلى الجنوب الشرقي من بندر عباس ، تقع «ميناوى » ويحكمها شيخ تابع للسيد سعيد ، يدفع له الأتاوة . وفي ما تبقى من ساحل مكران فأن الميناء الوحيد هو « كورمارو » ، المقابل لمسقط ، وقد أحتله منذ زمن قريب القواسم ، وطردوا منه الوالي الذي عينه السيد سعيد .

وتنتج كل هذه الأماكن التي ورد ذكرها في هذا الفصل كميات كبيرة من التمور ، ما عدا ما كان منها على الساحل الفارسي حيث أشجار النخيل ، ليست من الكثرة بحيث تسدّ حاجة الناس إلى هذا الغذاء الحيوي .

وتزدان الأراضي الرملية والصخرية في مسقط ببعض البساتين التي تسقيها مياه الآبار المجاورة .

---

(١) يكتبها المؤلف Ciab ، Tehiab .

(٢) هكذا اثبتها المؤلف ، ولم نستطع الأهتناء الى الأسم العربي لهذا المكان .

وسهلا بركا وصحار أكثر خصوبة وأكثر إنتاجاً في حين أن الرستاق التي تبعد عن مسقط مسيرة يوم واحد أو على بعد أربعة وعشرين ميلا من البحر ، تسمى بستان الجزيرة العربية .

وتصدر البصرة التمور إلى أقطار أخرى ، في حين تعتبر بندر عباس مخزناً للفواكه الممتازة ، التي تجلب إليها من داخل إيران ، ومنها تصدّر إلى مسقط .

وأحاول الآن أن أعطي صورة دقيقة لسكان هذه الأقطار الذين أدى أزدياد نجاحهم السريع إلى تغيير العلاقات السياسية لكل قطر تقريباً من أقطار هذا القسم من العالم .

في منتصف القرن الماضي ظهر مواطن من أهل الحلة على نهر الفرات يدعى عبد الوهاب ، وأدعى أنه رأى في المنام أن ناراً خرجت من جسمه وأحرقت كل البلاد المجاورة .

وقد أفضى بهذه الرؤيا غير العادية إلى أحد « الملالي »[1] ، وقد أعلن له هذا المترجم للارادة الإلهية أن تفسير هذه الرؤيا أنه سيرزق بولد يكتب له أن يؤسس دينا جديدا ، ويأتي بأعمال خارقة .

وبعد قليل حملت زوجة عبد الوهاب ، ثم وضعت ولداً أسماه أبواه محمداً[2] ، وكانت قبيلة نجد ، وهي القبيلة التي تنتمي إليها العائلة ، أول من أعتنق المذهب الجديد ، الذي بدأ وكأنه أمر منزل من السماء . وقد تهيأت لعبد الوهاب نبي هذا الدين الجديد ، وقائد جيشه الفرصة لأن ينشر سلطانه السياسي وكذلك تعاليم الدين الجديد الذي يرى نفسه مبعوثاً ورسولاً لنشرها وكان أبنه **محمد يرافقه في حملاته هذه ، ويعرضه للناس على أنه الدليل الثمين لعناية الله تعالى بالمذهب الوهابي .**

---

(١) الملالي جمع ملا ، وهو المطوع أي رجل الدين . (الترجم) .

(٢) كان ذلك حوالى عام ١٧٥٧م (المؤلف) ، والصحيح أنه ولد عام ١٧٠٣م وكل الكلام خلط في الأسماء التواريخ والوقائع (المترجم) .

وبعد وفاة عبد الوهاب خلفه أبنه محمد ، ولكن لكونه كان أعمى فقد أضطر الى أن يستخدم من يساعده في أمور الدولة فقط وليس في أمور الدين ، وكان هذا المساعد شخصاً يدعى عبد العزيز وهو أخ بالتبني لأبيه[1] .

وقد استطاع هذا الوزير أن يتابع إنتصارات البشير الراحل بيسر كبير ، إذ تمّ التغلب على مانع المعارضة الأول ، فمن الصعب وربما من العقيم أيضاً أن نعدد أسماء كل الشيوخ الذين قاوموا بالسلاح التوسع الوهابي أو الفترات المعينة لفتوحاتهم المتعددة ، فالأهم من هذا أن نعلم أنه ما أن توفي الرئيس الذي أشرنا إليه من قبل حتى كانت جميع أرجاء الجزيرة العربية قد دانت لسلطته الدينية والسياسية .

وقد خلفه في السلطة عبد العزيز الذي وسّع بالتدريج بقعة سيطرتهم .

واندفعوا كذلك حتىٰ أبواب حلب وبغداد ، وذبحوا قافلة من الحجاج الإيرانيين كانت في طريقها إلى زيارة مرقد علي في الحلة[2] ، ونهبوا الخزائن المتراكمة على مر العصور هناك ، كما وهددوا البصرة بالتخريب والدمار . لكن قصة القواسم وهذه المدينة يجب أن تؤخر إلى موضع آخر من هذا الكتاب .

وبعد سعود جاء ابنه عبد العزيز في الحكم وفي حسن التوفيق أيضاً ، ولّما مات عام ١٨١٣ خلفه عبد العزيز الثاني[3] ، وهو القائد الحالي للوهابيين ، وفي هذه السنة المذكورة أستعاد محمد علي باشا والي القاهرة مكة والمدينة وما زال يحتفظ بهما . ولكنه مع هذا لم يستطع آنذاك التوغل إلى داخل الجزيرة العربية لندرة الماء والطعام ، وهما ضروريان للجيش التركي .

---

(١) يقصد بطبيعة الحال عمه . ولكن التبني لا يسري على الأخوة والاعمام أنما يتنصر على الأولاد فالمقصود به طبعاً ابن جده بالتبني . علماً أن الاسلام لا يقر التبني والكلام من بعد محض خلط واختلاق كل خلط سخيف لا سند له في التاريخ ولا أصل له في الواقع ، وانظر مقدمة الكتاب .

(٢) يقع مرقد الأمام علي في النجف الأشرق وليس في الحلة والمسافة بينهما كبيرة (المترجم) .

(٣) يقصد الأمير عبد الله بن سعود .

وفي عام ١٨١٤ تقدّم العثمانيون نحو قرية على بعد قليل من الدرعية ولكنهم أضطروا إلى التراجع عنها بسبب الهجمات المتوالية من فرسان الجيش الوهابي الذين أحاطوا بالجيش الزاحف وهدموا كل الآبار التي كان قائدهم طوسون باشا نجل محمد علي قد أمر بحفرها .

ولا أستطيع أن أعطي للقارىء وصفاً لهؤلاء القوم الفريدين ، أحسن وأوضح من أن أنقل إليه نص المحاورة التي جرت بيني وبين الشيخ محمد مبعوث سعود في مسقط .

وقد بدأت المحادثة بالقول بأنني راغب في زيارة الدرعية وممارسة الطب فيها ، وأريد أن أعرف ما قد يتهددني من أخطار هناك .

محمد ـ على العكس ، فأن مثل هذه المهمة ستكون مربحة جداً هناك ورغم أننا نكره الكفّار إلاّ أننا نحترم الموهوبين منهم وخاصة الأطباء ، ولكنك مع هذا وذاك ، إذا ما اعتنقت ديننا فأنك تصل إلى أقصى قمم السعادة .

المؤلف ـ ما هو دينكم وهل يختلف عن الاسلام .

محمد ـ نحن لا نختلف عن بقية المسلمين ، كما نعتقد أن القرآن أنزل إلى البشر وعلى أيدي الملائكة ، وإننا نعتقد أن الانبياء ، هم بشر مثلنا ، وإنما يستحقون الاحترام والتقدير لتضلعهم في أمور الدين ، ولتقواهم وعفتهم .

ونعتقد بأنه ليس هناك إلاّ إلّه واحد كلمته هي القرآن ونحن البشر جميعاً أولاده ، ولذلك فهو تعالى محمول على حبهم ، والعطف عليهم ، ودليل محبته لهم يظهر لهم كل يوم ، والمؤمن الحق يجد متعته وواجبه في قتل الكفّار .

وليست المشروبات الروحية والمخدرة والمسكرة وحدها ممنوعة في ديننا بل الموسيقى والتدخين وكل أنواع الألعاب ، وشرب القهوة أيضاً ونعتبرها جميعا أعمالاً شيطانية تلهي عن ذكر الله . ونحن نتمسك بكل شدة بأحكام القرآن دون أن نقوم بأعمال الحادية مثل ما يفعل العثمانيون .

وإذا كنا نسمح لبعض الكفّار بأن يعيشوا بين ظهرانينا فأنهم يعيشون على شكل عبيد فقط ، وهم لذلك مضطرون الى أن يبقوا رؤوسهم مكشوفة في حضورنا . ولذلك فيسمح لك بالمقام بالدرعية حتى ولو لم تعتنق ديننا على أن تتذكر دوماً وجوب معاملة كل وهابي بالتجلة والاحترام .

المؤلف ـ أرجو أن تخبرني عن الدرعية ، أي نوع من المدن هي .

محمد ـ تقع الدرعية بين جبلين على كثير من عيون المياه الحلوة وأرضها تنتج الكثير من الأعناب والتمور ، وتعيش في مراعيها قطعان من الماشية الكثيرة التي تزود الناس بالحليب والزبدة واللحم بكثرة .

والأراضي الزراعية الأخرى تنتج كل ما يحتاجه الناس من المنتوجات الزراعية ، كما تهيء لنا فرصاً لتربية الدواجن .

وتشتهر الدرعية بصناعة العباءات التي تلبس في كل انحاء الشرق وهي تجارة مربحة جداً .

المؤلف ـ يفهم من ذلك أن بلادكم تزودكم بكل ضروريات الحياة ، لا لما فيه كفاية السكان فحسب بل ولتمكينكم من تحمل ضغط الحروب الخارجية .

محمد ـ نفقات الحروب الخارجية لا يصرف عليها من إيراد بلادنا الداخلي فأن الأموال والنفائس التي أخذت من المدينة ومن قبر علي في الحلة لم تنفذ بعد وإلى جانب ذلك فأن جميع جيراننا يحاولون تجنب الحرب معنا بدفع الأتاوات لنا .

المؤلف ـ لكن الحروب تستهلك أموالاً كبيرة وبسرعة فائقة .

محمد : ليس بالطريقة التي نتبعها في حروبنا ففي ديننا كل فرد هو جندي مجاهد في سبيل الدين وعليه أن يخدم في الجيش دون راتب مدة عام واحد ثم يسمح له بعده بالعودة إلى أهله إلاّ في الاحوال الاستثنائية إذ تلغى كل الاجازات وعلى كل وهابي أن يبقى في معسكره حتى تزول حالة الطوارىء .

ولكل جندي جمل يركبه ويحمل مؤونته وسلاحه فإن لم يملك الجندي نفسه جملاً فالدولة هي التي تزوده به ، وفي قطع المسافات الطويلة في الصحاري الشاسعة يركب على الجمل الواحد جنديان وهكذا نصل إلى ساحات القتال بجنود مشاة كثيرين إضافة إلى الجنود الخيالة ، لم تتعب مفاصلهم من كثرة السير .

وخيالتنا ـ كما تعلم ـ ممتازة لأن خيولهم إعتادت بالتدريب الطويل أن تتحمل التعب والجوع دون أن تفقد قدرتها وقوتها مما يجعلها محل التقدير أكثر من الخيول الأخرى .

وتتكون مؤونة الجندي من قربة مملوءة بالماء وأخرى مملوءة بالتمر اليابس المعجون والمقلى بالزبد والذي نسميه « حلاوة التمر » . وبالإضافة إلى هذا فلكل جندي كيس من الشعير لكل حصان . أما الجمال فتقتات على ما تجده في البرارى من أعشاب وأشواك وعلى نوى التمر وفي حالات الضرورة تعطى كميات قليلة من الماء . وإذا حدث وردمت آبار المياه فليس أمام الجنود إلاّ أن يشربوا حليب هذه الحيوانات وقد يعيشون على لحومها أن أقتضى الحال أيضاً .

والحلاوة ، المار ذكرها يعملها الجنود في بيوتهم ، فإن لم يكن في مقدور البعض منهم ذلك ، فإن على رفاقهم الأغنياء أن يجهزوهم بها ، ومن الخطر العظيم الذي قد يهدد الحياة رفض الأغنياء تقديم هذه المعونة فطالما نحن نحارب في سبيل اعلاء كلمة الله فعلى كل فرد منا أن يبذل اقصى قدرته في سبيل تحقيق هذا الغرض ، ويعتبر الجندي الذي يدير للعدو ظهره ويهرب منه مرتداً يستحق القتل .

والآن أعود إلى ملاحظتنا الأخيرة فإن بيت المال يجهز الضروريات التي لا يستطيع الأفراد شراءها وهي تشمل في العادة البارود والرصاص أما اللباس فلا يقلقنا كثيراً فالجو في أكثر البلدان في الصيف حار وفي الربيع والشتاء مقبول .

بثقتنا بالله واعتمادنا عليه ، وبكلمة الله أكبر ، الكلمة التي تلقي الرعب

والذعر في قلوب الأعداء يوم القتال سنقهر جميع العالم .

المؤلف : أسمح لي أن أسال أي طريق تسلكون في القدوم من الدرعية إلى هذا المكان .

محمد : بعد السير عشرة أيام في الصحراء الجرداء الخالية من كل شيء وكل أحد إلّا بعض العرب الرحالة الذين يمكن الحصول منهم على بعض المؤون وخاصة اللبن الرائب ، نصل ميناء القطيف حيث ننتقل فيها إلى السفن التي تنقلنا الى مسقط في فترة عشرة أيام أخرى إذا ساعدت الريح .

المؤلف : وهل لي أن أسأل لماذا لا تسلكون طريق البر كما يفعل مطلق ؟

أصرف النظر عن ذكر جواب المبعوث الوهابي عن هذا السؤال لأنني مضطر إلى ترجمته حين أصف وضع الجيش الوهابي عام ١٨١٠ .

المؤلف : هل تعتقد أن باشا مصر قادر على تجهيز جيش قوي وكبير كما تنقل الأخبار ذلك ؟

محمد : طوسون باشا أبن الوزير ، عنده جيش قوى يستطيع أن يحتل به كل المدن والقرى على ساحل البحر الأحمر ، ولكننا في الصحراء ، نحن سادة الموقف بسبب معرفتنا دروبها وقدرتنا على تحمل التعب والحرمان ، وعندما تنفذ قوة العثمانيين ويتركون محاولاتهم العقيمة هذه فعند ذلك نعيد الكرة عليهم ونستعيد منهم المدن القليلة التي استطاعوا أن يأخذوها منا .

إن طوسون باشا رغبة منه في عبور الصحراء إلى الدرعية فقد ألحق بجيشه فرقة تسير أمامه لحفر آبار المياه الكافية لتجهيز جيشه الزاحف بالماء اللازم . ولكن ما أن وصلتنا الأخبار عن خطته هذه حتى باغتت خيالتنا السريعة هذه الفرقة بهجوم كاسح فمزقتها إرباً قبل أن يسمع قائدهم بالخبر . وقد رافقنا مثل هذا النجاح في مرات كثيرة أخرى فلم يكن أمام هذا المهاجم المغرور مفر من الإنسحاب إلى مكة . وبإنسحابه أمر سعود بردم جميع الآبار الموجودة على

الطريق بين الدرعية ومكة وملئها بالحجارة لمنع أية محاولة تسلل عبر الصحراء في المستقبل .

وبهذا إنتهت محادثتي مع هذا السفير الوهابي والتي ذكرت أهم ما فيها أعلاه ، وتقريراً مما تقدم ذكره من قول ، وإستناداً كذلك إلى معلومات أخرى فإنني لا أشك في أن أحد الأوروبيين قد يستطيع الوصول إلى الدرعية وسيكون هذا ولا بد جزاء جيداً لأتعابه . ومع هذا فالخطر يبدو كبيراً وجاداً بحيث قررت أن أمتنع عن إشباع فضولي بقبول دعوة الشيخ محمد .

إن أحسن وسيلة للتنكر يستطيع المسافر أن يتوغل بواسطتها في بلاد الوهابيين هي مهنة مصلح الساعات . فقد عرفت مرة رجلاً أرمنياً ورجلين فارسيين كانوا يزاولون هذه المهنة وإستطاعوا أن يقيموا وقتاً طويلاً في القطيف بالبحرين وهي أقرب ميناء للدرعية . وقد إستطاع أحدهم أن يدخل الدرعية وقد وصفها بإنها تشبه المدن العربية الأخرى بإعتبارها خليطاً غريباً من البيوت الحجرية وأكواخ السعف مدعياً إنعدام الجمال الخارجي فيها . ولكنها تزخر في الوقت نفسه بكل متطلبات الحياة ، كما إنه أشار إلى إنه رأى في جوار الدرعية صخوراً كبيرة عليها كتابات بلغة لم يستطع أحد معرفتها أو فك رموزها ، ويبدو لي إنها على الأكثر كتابة رومانية أو يونانية كما إستنتجت ذلك من محاولته رسم تلك الحروف بإصبعه على الرمل .

ويبدو أن حب الإستطلاع قد دفع هذا الأرمني إلى محاولة إستنساخ هذه الكتابة الأثرية ولكنه أحجم عن ذلك خشية أن يثير بعمله هذا شكوك الوهابيين الذين يعتبرونه مجرد تاجر ساعات وليس عالماً بالآثار .

كما أخبرني أنه لم يجد مهنة تصليح الساعات مهنة مربحة ، ولكنه كان يربح أكبر من عمله في تزويق السيوف والأسلحة الأخرى التي يبدو أنها السلوى الوحيدة والفخر الوحيد للشعوب المحاربة .

وقد أيد لي حكاية الأرمني فيما يخص الكتابات الأثرية على الصخر رجل

تركي كان في خدمة جيش محمد علي ثم تركه وإستقر في مسقط . وأكد أن هـذه الصخور موجودة في محل يدعى تربة قرب الدرعية ، ويحتمل إنه يشير إلى كتابات أخرى غير الأولى .

ويفتخر الوهابيون بإن فرسانهم خير من يضـرب الرمـح وإن مشاتهم خـير من يحـارب بالسيف وكثيـراً ما يـرددون مثلاً شـائعاً بينهم هـو البدوي أبـو سيف والإفرنجي أبو مدفع .

ولا توجد بين أتباع هذا الدين القاب يتميز بها بعضهم على البعض الآخر غـير لقب « الشيخ » وهـو لا يمنح قط لغـير المسلم . ولذلـك فإن أحـد الأسرى الوهابيـين في صحار لم يتمـالك نفسـه من الإنفجار في ضحـك عال حـين سمع الناس ينادونني بالشيخ منصور .

وفي الختام فإننا نجد بين الوهابيين كل أعمال الشجاعة والإقـدام التي تميز الشعوب الناهضـة كما نجـد لديهم الجـرأة في التخطيط والهمـة في التنفيـذ اللتـين تميـزان الحكومـات النشطة . وفي كلمـة واحدة فقـد أخذوا بـالكثـير من منـافـع الإستبداد وبالقليل من مساوئه .

والبدو التابعـون لسلطان مسقط هم القوم الـوحيدون الـذين يجرأون عـلى معارضتهم ومقاومتهم وهؤلاء في الحقيقة يكونون نواة القوة التي يستطيـع أن يثق بها هذا السلطان .

وإذا ما أراد القارىء أن يتابع قصة الوهابيين بتفصيل أكثر مع قائمة بأسماء القبائل المتحدة معهم فإنني أشير عليه بمطالعة كتاب نشره المسيو « دي كورانزيز » قنصل فرنسا السابق في حلب والذي يسكن الآن في سمرنه[1] .

---

(١) يشير المؤلف إلى كتاب :

CORANCEZ. Histoire des Wahabis, depuis leur origine jusquà la fin de 1809 (paris 1810).

الفصل الثالث

تتمة تاريخ السيد سعيد الذي وحد قواته مع الإنكليز في الحملة ضد القواسم الكولونيل سميث ينسحب فيندحر المسقطيون . موقف حرج للسلطان . تحصين المدن البحرية . حصار بعض المدن . داخل البلاد في تدهور .

في عام ١٨٠٩ بدأ السلطان يستعد للحرب دون أن يفصح قط عن الجهة التي ينوي أن يحاربها كما هو المتفق عليه قبلاً بينه وبين حاكم بومباي . وكان قراصنة القواسم قد قضوا على كل المراكب العربية في الخليج الفارسي ثم شجعهم نجاحهم المستمر على التمادي بالمجازفة بأسر سفينة إنكليزية تجارية إسمها مينرفا وهي في طريقها من بومباي إلى البصرة ، وقد أسرت هذه الباخرة السيئة الحظ قرب جزيرة الشيخ سعيد وقد قتل غالبية ملاحيها على الطريقة الوهابية المعتادة في مثل هذه الأحوال . أما ربان الباخرة فقد أخذ إلى مقدمتها وهناك قطع جسمه وهو ما يزال حياً - إلى أشلاء متناثرة في حين إستطاع مساعده الهرب إلى مخزن البارود حيث أمسك هناك بخشبة مشتعلة يهدد بها بنسف الباخرة وتفجيرها إن إقترب منه أحد .

وكانت في السفينة سيدة أرمنية من مواليد بوشهر ، وكانت زوجة المستر تايلور وهو ضابط إنكليزي ، وقد عوملت بمنتهى الإحترام ، ولهذا فقد توسلت إلى مساعد الربان أن يقلع عن محاولته اليائسة ، وفي نفس الوقت وعد رئيس القواسم بالإبقاء على حياته على شرط أن يعتنق دين عبد الوهاب .

وقد قبل الرجل التعيس الحظ هذا العرض المشين وأصبح مسلماً كما روى لي ذلك هو نفسه بعدئذ في بندر عباس .

وبعد هذا النجاح هاجمت مجموعة تتكون من أربعين مركباً صغيراً من مراكب القراصنة ، السفينة مورنكتون ولكن قوة الريح منعتهم من اللحاق بها ولو كان البحر أكثر هدوء للاقت هذه السفينة وركابها نفس مصير سابقتها منيرفا .

ولهذا ومنعاً لتكرار أمثال هذه المآسي فقد أصبح لزاماً إتخاذ إجراءات كافية لكفالة حرية الملاحة وسلامتها . وعلى هذا فقد شهدنا في يوم ما من شهر تشرين الثاني من عام ١٨٠٩ قوة بحرية تلقى مراسيها في مسقط وتتكون من فرقاطتين هما كارولين وشينون وسفينتين أخريين هما مورنكتون وثاينت وعدد آخر من سفن منوعة آخرى أصغر حجماً .

وقد إستبشرت المدينة بذلك وعمها الفرح ، ووثوقاً من السيد سعيد بقوة حلفائه وشدة تأييدهم له فقد أعلن صراحة عداءه للوهابيين وأمر بعثة سعود ومندوبه بمغادرة البلاد في الحال وفي نفس الوقت جمع لنفسه قوات جديدة فزاد عدد جيشه إلى الستة الآف شخص كما هيأ أسطوله على وجه السرعة وجهزه بالجديد من الأسلحة والعتاد .

وبعد أن تزود الإنكليز بالماء والطعام إستأجروا أربعاً وعشرين زورقاً عربياً لتساهم في عملية إنزال جنودهم إلى البر ، ثم أقاموا حفلة تكريم كبرى للسلطان قبل إبحار هذه القوة البحرية الإنكليزية الكبيرة نحو رأس الخيمة .

وهنا تبرز فوائد العلم والتخطيط وتفوقهما على مجرد الشجاعة الفائقة غير المنظمة ففي خلال فترة لا تتجاوز الأربعين يوماً هدمت مدن راس الخيمة والشارقة ولنجة ولفت ومدن أخرى[1] ، وأبيد المدافعون عنها ، كما أحرقت سفن القراصنة جميعها . ولم يخسر المهاجمون إلا ضابطاً إنكليزياً واحداً وخمسين نفراً من الجنود .

وفي هذه الأثناء أرسل السيد سعيد رسالة إلى صديقه صقر بنصحه فيها

---

(١) اقتصر الهجوم على رأس الخيمة فقط ودون الشارقة . أما لنجة ولفت فهما على الجانب الثاني من الخليج (المترجم) .

بمصالحة الإنكليز وتوحيد قوى القواسم مع قوات مسقط والوقوف صفاً واحداً في وجه القوة الوهابية المتعاظمة .

وقد قبل صقر هذه النصيحة وحاول أن يعمل بها إلا أن أتباعه رفضوا العمل ضد إخوانهم الوهابيين ، وما أن وصل الخبر إلى سعود حتى أسرع فغزا تابعه المتمرد وأسره وأمر به فأرسل إلى الدرعية مكبلاً بالحديد . لكن هذه النهاية السيئة لصديقه وحليفه لم تغير شيئاً في خطط السلطان وقد أبحرتُ معه على ظهر سفينة كبيرة تدعى « سالي » وذهبنا إلى بركا حيث تقرر أن تجتمع فيها قوات السلطان وكانت تتألف من حوالي الخمسة الآف رجل من المشاة والثلاثمائة فارس بالإضافة إلى سفينة كبيرة تدعى الـ « جينجيافر » وحوالي الثمانين مركباً صغيراً .

وحين نزلنا إلى المدينة قادني السلطان إلى قلعتها وإلى نفس الغرفة التي شهدت مصرع أخيه بدر الذي أدت نتيجته إلى وصول السلطان إلى حكم البلاد .

وقد قدم لنا العشاء وبعد الإنتهاء منه خاطبني السلطان قائلاً « منصور إنني لحد الآن قد أثقلتك بالافضال والآن فقد جاء الوقت لترد لي بعض الجميل بمساعدتي في هذه الحرب » .

فأجبته بإنني حاضر دوماً وأبداً لأن أضحي بنفسي في سبيله . وفي الحال بدأ السيد سعيد يعطيني التعليمات اللازمة ، وفي اليوم التالي أبحرنا ، وكان السلطان نفسه يقود الأسطول في البحر ، وأخوه سالم يقود الجيش في البر على محاذاة الساحل .

وفي صحار إنضمت إلينا جيوش السيد عزان[1] ، وهو من أقارب السيد سعيد وكان عددها يبلغ الأربعة الآف راجل والماية فارس وبضعة قوارب ، ثم

---

(١) هي في الحقيقة جيوش أبيه السيد قيس إذ كان الأب ما يزال حياً بعد وقد قتل في هذه المعركة والسيد قيس هو عم السلطان ـ المترجم .

دخلنا بلاد القواسم وكنا على إستعداد لوضع السيف أو النار في كل من أو ما يواجهنا على أسلوب العرب البربري في الحروب[1] .

وقد كنت مع السلطان على ظهر الباخرة سالي وسرعان ما إنكشف أمامنا الساحل عن منظر ساحر بديع خلاب يفتن كل من لم يفقد شعوره بالإنسانية .

ولم تبدو أول الأمر علامة لأية مقاومة ومع هذا فقد كان الجو يعج بصراخ السكان التعساء وأغلبهم من النساء ، الذين بدأت تحصدهم سيوف المغيرين ، في حين إرتفعت ألسنة اللهيب من أكواخهم المبنية من القش وسعف النخيل شاهدا على خراب تلك البيوت وتشريد سكانها .

ولما وصلنا إلى شناص وهي مدينة كانت تحميها المدفعية وتقع في سهل واسع توقف الجيش عن السير كما ألقى الأسطول مراسيه قرب الساحل ، وقد رأى السيد سعيد أن الهجوم المباشر على المدينة قد يكلفه الكثير من رجاله لذلك قرر أن يزحف على خور خيل وهي بلدة أقل تحصيناً من شناص ويؤدي سقوطها بين يديه إلى تثبيط همم المدافعين عن شناص وإستسلامهم .

وقد نفذت هذه الخطة فأنزلت أربعة مدافع إلى البر فتحت بسور المدينة ثغرة كبيرة وبعد تبادل النار مدة خمس ساعات فقط هجم البلوش والزدكال وشقوا ، بشجاعة متناهية ، طريقهم إلى المدينة يقتلون من يعترض سبيل تقدمهم . وفي حين كانت النيران تلتهم المدينة فر سبعماية رجل من السكان إلى بيت كبير مبني بالحجر وتحصنوا فيه وبدأوا يدافعون عن أنفسهم بشجاعة اليائس المستبسل فوجهت بطاريات مدافعي نحو ذلك المعقل الأخير وحين باشرت بقصفه كان السيد سعيد يعرض على القواسم الإبقاء على حياتهم بشرط أن يسلموا إلينا البيت وكل ما عندهم من سلاح وعتاد وأثاث .

---

(١) إذا كان أسلوب العرب في الحروب قتل اعدائهم ، فما هو يا ترى اسلوب الأوروبيين هل هو رمي أعدائهم بالزهور ؟! .

وقد قبل القواسم العرض بكل شروطه وإنسحبت القوة المدافعة إلى الجبال حيث إنضموا إلى بعض البدو هناك وكونوا قوة جديدة قوية بدأت بعد ثلاثة أيام مهاجمتنا ثانية . وهنا إكتشف السيد سعيد الخطأ الذي إرتكبه بعدم إصغائه إلى نصحي بوجوب حبس هؤلاء المتمردين وكان بوسعه أن يفعل ذلك دون الإخلال بقانون أسرى الحرب .

وما أن ظهر فجأة أمام جنودنا العدو الذي ظنوا أنهم أبادوه حتى بلغ الإرتباك والهلع بين قواتنا أشده ، ولدرجة إني خفت من شدة البلبلة والإضطراب على سلامة السلطان نفسه فطلبت إليه أن يسبح إلى مركب صغير مسلح يقوده أحد البرتغاليين كنت قد أعددته لأي طارىء ، وذلك أن من عادة العرب إذا ما إنتصروا في معركة ما أن ينتشروا في الحال للبحث عن الغنائم والأسلاب دون أن يخطر لهم على بال إحتمال هجوم العدو عليهم كرة أخرى .

لكن قواتنا تصرفت هذه المرة بأحسن من المعتاد ، إذ إنسحبت بوضع مقبول عبر السهل في حين أبحر الأسطول إلى مسقط تاركاً شناص وخورخيل بيد أصحابها الأصليين .

وعند وصولنا إلى ميناء مسقط حيتنا مدفعية الميدان تحية المنتصرين العظام وهكذا إنتهت حملتنا الأولى .

* * *

وصلت قطع الأسطول البريطاني إلى مسقط تقريباً في نفس الوقت الذي وصلنا إليه فيه وكان في نيتها العودة إلى بمباي ، إلا أنها تأخرت في مسقط بضعة أيام حيث كانت المفاوضات خلالها تدور بينها وبين السلطان الذي كان يتعطش للإنتقام من مغبة الفشل الذريع الذي لحق به في شناص .

وقد رجا الكولونيل سميث أن يوحد قواته مع قوات مسقط في عمل مشترك للقضاء على هذه المدينة اللعينة .

وفي هذه الأثناء وصل المدينة أحد البدو يحمل خبراً هو أن قوات وهابية كثيرة العدد قد تركت الدرعية بقيادة مطلق وهي تنطلق بأقصى سرعة ممكنة لها

لنجدة حلفاء الأمير سعود والإنتقام من أعدائه ، وكان لهذا الخبر فعل السحر فإلتقت مصلحة الإنكليز والعرب على وجوب العمل المشترك ولذلك ففي شهر كانون الثاني من عام ١٨١٠ تحركت ثانية نحو شناص قوة عربية بريطانية مشتركة .

وكنت في هذه الحملة ممتطياً جوادي وأسير مع القوات البرية لأسدي المعونة الفنية للسيد عزان الذي كان في أشد حالات الإرتباك . وكان رفيقي في هذه المسيرة رجلاً يدعى محمد بن هلال[1] ، وكان على جانب كبير من البأس وقوة الجنان . ولم يحدث أثناء تقدمنا نحو شناص حادث يستحق الذكر ، إلا إننا بين صحار وشناص كنا نرى جماعات من خيالة القواسم الذين كثيراً ما كانوا يتحرشون ببعض قطعاتنا المتأخرة أو يقتلون بعض عابري السبيل ولكنهم لم يجرأوا على المخاطرة بهجوم عام علينا .

وحين حل المساء كنت ورفيقي محمد بن هلال نسير على رأس جماعة من البلوش يبلغ تعدادها الخمسين نفر فشاهدنا جماعة من الفرسان تتقدم صوب ميمنتنا ، فناديناهم بالعربية « من أنتم » فكان جوابهم رجال السيد عزان ، وعلى هذا فقد طلبنا إليهم أن يلتحقوا بنا بمؤخرة الرتل .

وقد منعنا ظلام المساء من التدقيق المستفيض في هويات هؤلاء الحلفاء المزعومين . . واستمرت مسيرتنا دون توقع لأية مفاجئة قط . وإذا بنا نباغت بسماع صرخات الله أكبر . . الله أكبر . . تتكرر عالية ثم تبعها في الحال هجوم علينا من هؤلاء الذين زعموا أنهم أصدقاؤنا في حين أنهم كانوا في الواقع ـ من القواسم .

ولا يمكن أن أصف هنا مقدار الإضطراب الذي خلفه هذا الوضع غير المتوقع في صفوفنا ، وإنما يمكن للقارىء تخيله . فلم يكن يسمع أو يرى شيء

---

(١) المقصود بالسيد عزان هو أبوه قيس بن الإمام . أما محمد بن هلال فلعله إبن هلال أكبر أبناء الإمام أحمد فيكون بالتالي ابن عم الامام (المترجم) .

غير أصوات المسدسات ولمع الطلقات وصليل السيوف وبريقها .

وقد جرح محمد بن هلال جرحاً بليغاً من طعنة رمح في كتفه[1] ، وبدت الأمور وكأنها تنذر بشر مستطير ، وهنا ـ ولحسن الحظ ـ وصل فرسان عزان الحقيقيون فما أن رآهم القواسم حتى ولوا الإدبار في الحال وإختفوا بشكل سريع حتى لقد ظننا في صباح اليوم التالي إننا كنا نقاتل بعضنا بعضاً خطأ ، وهي حال كثيراً ما تتعرض لها الجيوش العربية في حالات الإرتباك والفوضى .

وعند وصولنا إلى مقربة من شناص وجدنا وحدة الأسطول البريطاني قد أنزلت من الجنود والسلاح والمدفعية ما يكفي لمهاجمة البلدة ، كما أخذ خيالة السلطان أماكنهم على مقربة من الموقع لينقلوا أخبار ظهور الوهابيين الذين أصبح وصولهم أمراً محققاً نظراً للأخبار الموثوقة المستقاة من المسافرين القادمين من البريمى .

وكانت أهم هذه الأخبار أن سعود لما سمع بما حل برأس الخيمة من خراب جهز جيشاً قليل العدد ولكنه يضم خيرة أتباعه وزهرة جنوده وجهزه بألف بعير ليساعده في عبور الصحراء بأسرع وقت ممكن .

وعند سماع هذه الأخبار المفزعة إتخذت كافة الإجراءات الممكنة لإجبار حامية شناص على الإستسلام السريع قبل وصول النجدة إليها .

ومن الجهة الثانية فقد كانت عروض السكان المستمرة بطلب المفاوضات ما هي إلا وسيلة للتسويف وكسب الوقت في إنتظار وصول جيش مطلق لنجدتهم .

وأخيراً قرر الكولونيل سميث أن يحسم الأمر فأمر مدفعيته بفتح النار ، فاستطاعت خلال ثمان ساعات من القصف المستمر أن تحقق نجاحاً ملموساً .

ففي الساعة الثالثة بعد الظهر إنهار الحصن وجزء كبير من حائط السور

---

(١) لم يذكر طبيبنا شيئاً عن معالجة الجرح البليغ (المترجم) .

المجاور له وتعالى من داخل المدينة صراخ الفزع واليأس مع صيحات الله أكبر فيما إستمر الجيشان المتحالفان في هجومهما في رتلين كان الأيمن منها هو الرتل الإنكليزي .

ومنعاً لإحتمال وقوع أي خطأ بسبب التشابه في السمات والأزياء بين القواسم وأهل عمان فقد وزعت قطع من قماش شراع سفينة إنكليزية على أهل عمان وطلب إليهم وضعها في عماماتهم تمييزاً لهم عن غيرهم وقد نجح هذا الإجراء في منع الخطأ والإشتباه .

وقد دافع أهل المدينة عن الحصن ببسالة نادرة حتى إضطر الكولونيل سميث إلى تركيز القصف عليهم مما أدى إلى إرتفاع عدد ضحاياهم بشكل كبير إضطرهم إلى الفرار فزعين مذهولين فاتبعهم المهاجمون في شوارع المدينة يقتلون منهم من يقع بين أيديهم ، ولم يستطع النجاة من هذه المذبحة إلا ثلاثون رجلاً وخمس وسبعون إمرأة إلتجأوا إلى حصن بعيد واستمروا يحاربون منه عاقدين العزم على الموت كراماً بدل الإستسلام إلى الفاتحين القساة .

ولكنهم ما أن رأوا السنة اللهيب تأكل ما خلفته الحملة الأولى على المدينة من دور وأكواخ حتى أسرعوا للإستسلام فتم أسرهم .

ومن المستحيل أن نقدّر على وجه الدقة خسارة القواسم في هذه المعركة ولكنها في الغالب تزيد عن السبعمائة رجل ، في حين أن خسارة المهاجمين لم تزد عن خمسة عشرة إنكليزياً وخمسين عربياً .

وقد علمت أن الأسرى القليلين من الرجال قد نقلوا إلى بمباي على ظهر السفن الإنكليزية في حين أطلق سراح النساء منهم بعد إعتقالهن أربعة أيام ولكن مصير عامة النسوة البائسات لم يكن أحسن حالاً من مصير من قتلوا في المعركة لأنهن قتلن بدورهن على أيدي أقاربهن طبقاً للشريعة المحمدية التي تقضي بالموت على كل إمرأة تتصل بالاوروبيين .

وفي هذه الأثناء ، توجه مطلق بجيشه البالغ عدده الفا شخص نحو رأس

الخيمة ولكنه إذ لم يجد فيها إلا قلة من القواسم مشغولين في إعادة بناء بلدتهم المنكوبة وإذ سمع بالخطر الحال في شناص فقد إنعطف نحو اليمين وأسرع في زحفه على أمل الوصول إلى شناص قبل خرابها . ولكن المدينة كانت قد هدمت على آخرها حين لاحت لنا في الأفق سحابات الغبار التي يثيرها جيش مطلق وقد إكتشفنا أن جيش مطلق قد ازداد عدده بإنضمام أهالي البريمي والمدن الأخرى التي مرّ بها إليه .

وفي الحال وضع الكولونيل جيشه في وضع المعركة قرب الساحل إلى اليمين وفي نفس الوقت طلب السلطان أن يقيم مخيمه إلى اليسار . وقد نفذت هذه المناورات بمنتهى السرعة والدقة ولكن عددا كبيراً من جيش مسقط وخاصة الفرسان منهم الذين إنتشروا في البلاد يبحثون عن الغنائم والأسلاب ، أصبحوا في موقف حرج وكان خمسة وعشرون فارساً منهم أفزعهم مقدم مطلق وأذهلتهم سرعته المدهشة في مسيرته فاندفعوا مسرعين بكل ما يبعثه الخوف والذعر فيهم من قوة إلى معسكرهم . وبسبب ما خلفه الفزع من إرتباك وقلق في نفوسهم فإنهم لم يروا راية السيد سعيد فانعطفوا إلى اليسار واصطدموا برتل متقدم من الجيش الانكليزي وإذ لم يستطع قائد هذا الرتل تمييزهم إن كانوا حلفاء أم أعداء ، فقد أمرهم بالعودة من حيث أتوا ولكنهم أما جهلاً منهم باللغة أو ذعراً منهم من لحاق الوهابيين السريع بهم فقد إستمروا في تقدمهم مما دفع الضابط الإنكليزي إلى الظن بأنهم الأعداء فأصلاهم بقذائف من مدفعه أردتهم جميعاً قتلى على قارعة الطريق .

وإذ كان مطلق قريباً من موقع الحادث وقد شهد بأم عينيه مقدار ما يمكن أن تحدثه المدفعية من فتك ودمار لذلك فقد قرر أن ينسحب إلى بستان نخيل مجاور خارج مدى قصف المدافع ، وأن ينتظر وجيشه هناك الفرصة المناسبة للهجوم على الإنكليز .

وقد ظلت جيوشه في هذا الموقع ثلاثة أيام كاملات في حين كانت القوات الحليفة المشتركة ما تزال متمركزة في مواقعها قرب الساحل .

وأخيراً وإذ وجد الكولونيل سميث أن هذه المعركة تبدو وكأنها ستطول كثيراً فقد أخبر السلطان بأن ما عنده من أوامر تطلب منه أن يقضي على مدن القواسم البحرية وحسب لا أن يتتبعهم داخل أراضيهم في الصحارى والسهول حيث يمنعه عدم وجود قوات خيالية لديه من إمكان تحقيق أي نصر حاسم في البر . ولذلك فإنه قرر أن يجمع جنوده ويعيدهم إلى بواخرهم ويقلع بهم إلى بومباي .

وإذ لا يستطيع السيد سعيد أن يحقق لوحده أي نصر في هذه المعركة فقد قرر عند سماعه رسالة الكولونيل سميث أن يقلع هو أيضاً بسفنه نحو مسقط .

وفي فجر اليوم التالي كان الإنكليز جميعهم على ظهور سفنهم وكذلك كان السلطان على رأس أسطوله ومعه بعض الجيش العربي ، أما باقيه ويقدر عدده بحوالي أربعة آلاف شخص بقيادة السيد عزان فقد ظلوا في مخيمهم قرب الساحل لمراقبة تحركات مطلق .

وما أن رأى هذا القائد الشجاع رحيل الإنكليز حتى إنقضّ على العمانيين المذعورين إنقضاض الأسد الجائع على فريسته . ولم تدم المعركة بين الفريقين أو بالأحرى المجزرة التي وقعت تحت نظرنا وبصرنا ، إلا ساعتين فقط وجد بعدها السيد سعيد أن جيشه قد أبيد وفني تماماً فقد قتل منه في المعركة الفا شخص . ولولا قوة خيل الباقين وجمالهم لما كتب لهم النجاة[1] .

وقد أوعز إليّ في بدء المعركة أن أصل إلى الساحل ومعي زورقان مسلحان بالمدافع ، لكن المعركة إنتهت قبل أن أستطيع فتح النار على الأعداء . ولكن بعضاً من الجنود البائسين رموا بأنفسهم في البحر وسبحوا صوبنا ، وكنا أول الأمر ننتشل من يصل إلينا منهم ونأخذهم في قاربينا ، حتى إزدحم القاربان بهم ولم يعد فيهما متسع لأي ضيف جديد ، وأصبح قبول أي

---

(١) وقد قتل في هذه المعركة السيد قيس بن الإمام احمد عم السيد سعيد والذي دأب المؤلف على تسميته بإسم إبنه عزان الذي تولى قيادة الجيش فعلاً بعد مقتل أبيه (المترجم) .

جندي آخر قد يؤدي إلى غرق الزورقين ، ولذلك وخوفاً من هذه النتيجة فقد كنا ندفع بسيوفنا بهؤلاء المتشبثين بالزورقين في طلب النجاة ونرمي بهم إلى البحر حيث تبتلعهم أمام أنظارنا الأمواج الهادرة الواحد بعد الآخر .

وقد دهش الإنكليز لجبن حلفائهم العرب وعبروا عن رأيهم هذا إلى السلطان الذي لم يكن يملك إلا الإعتذار والأسف لمسلك عسكره . وقد ظلت وحدتا الأسطولين العربي والإنكليزي في مراسيهما مساء يوم المعركة وفي صباح اليوم التالي وإذ كنا على وشك الإقلاع بسفننا إذ بفارس يظهر في الأفق متقدماً نحو الساحل واضعاً على رمحه خرقة بيضاء يؤشر بها من بعيد إشارات تعني رغبته بالإجتماع بنا .

وقد أرسل القائد الإنكليزي إلى الساحل زورقاً ومعه أحد المترجمين ليفهم الهدف الذي يريده هذا الرسول .

وقد شرح هذا الفارس الذي لم يكن إلا مطلق نفسه للمترجم رغبته الصادقة في عقد مصالحة مع الإنكليز وفق الشروط التالية : ـ

أولاً : يمتنع الوهابيون وتابعوهم في المستقبل من التحرش بالسفن الإنكليزية والرعايا الإنكليز والإضرار بهم .

ثانياً : تمتنع الحكومة البريطانية عن مد يد المساعدة للسيد سعيد في حروبه الجائرة التي يثيرها ظلماً وعدوانا ضد الوهابيين وفي رفضه موالاتهم ودفع الجزية لهم .

وقد عاد المترجم إلى الباخرة ومعه هذه العروض ، وبعد بحث ونقاش وافق الكولونيل سميث على وقف القتال وأعلن عن بقائه على الحياد في أي نزاع مقبل بين الوهابيين والسلطان .

ولم يرَ الكولونيل سميث في تصرفه هذا نوعاً من الخيانة والغدر بالسلطان لأنه لم تكن هناك معاهدة مبرمة أو إتفاق بين السلطان وبين شركة الهند الشرقية

تلزم أحد الطرفين بشيء تجاه الطرف الآخر ، عدا عن أن الكارثة الأخيرة أثبتت بما لا يقبل الخلاف عقم الفائدة من مساعدة السلطان .

وقد رأى الكولونيل سميث أنه ردّ على أهل مسقط ثمن الماء والطعام الذي ظلوا يزودون سفنه به بالخراب الذي أوقعه في رأس الخيمة وشناص وبعض المراكز القوية الأخرى للقواسم .

أما مقدار مطابقة هذا السلوك لمبادىء الأخلاق والوفاء فأمر متروك تقديره للقراء . أما من الناحية السياسية الصرفة فإنه عمل موفق يستحق الثناء إذ حقق للعلم البريطاني حرية التنقل والمرور في المياه العربية بسلام ودون إعتراض ومدّ نفوذ شركة الهند الشرقية إلى بلدان كانت مجهولة لها من قبل .

وقد تحول إيقاف القتال إلى معاهدة صلح أقسم عليها الطرفان بمنتهى الصدق في حين قدم القواسم تعهداً أكثر ثباتاً على شكل رهائن يختارون من بيوتات الرؤساء . وإذ حقق الكولونيل سميث الهدف من حملته فقد ترك الخليج عائداً إلى بومباي .

وما أن عادت وحدة الأسطول البريطاني إلى بومباي حتى أقلعنا نحو بندر عباس وبعد أن تجهزنا بقوة جديدة من الجند عدنا إلى صحار لنساعد بقايا الجيش المهزوم الذي كان يقوده عزان والذي ظل مطلق يقتفي أثره حتى اضطره إلى اللجوء إلى عاصمته ولم يبق له منه إلا مائتا رجل .

ولم يلبث الوهابيين أن ضربوا الحصار حول صحار وعند وصولنا إليها وجدنا الوهابيين مخيمين على ساحل البحر ، ولكن النيران المدمرة من سفننا اضطرتهم إلى الإسراع بتغيير مواقعهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة .

ومع هذا فإن هؤلاء المهاجمين إنتقموا من محاولتهم العقيمة بقتل كل الماشية التي وجدوها في ضواحي هذه المدينة المنكوبة وحرق كل الأكواخ وقطع كل الأشجار . ولكن أعمال التخريب هذه لم تنته عند هذا الحدفحسب بل أن مطلق ترك إبنه مع حامية صغيرة ليستمروا في الحصار في حين إندفع هو على

رأس بقية جيشه ينشر الذعر والدمار والموت في أغلب أنحاء البلاد المسقطية .

وقبل قفوله إقترح شروطاً للصلح ثم عقد إجتماع بينه وبين أحد شيوخ السلطان بالقرب من صور صحار . وقد كنت حاضراً هذا الإجتماع الذي إنتهى دون نتيجة بسبب ضخامة المبالغ التي طلبها الوهابيون ثمناً للصلح .

وقد أستغربت أثناء هذه المفاوضات من الرقة والأدب التي يتحدث بها مطلق ودماثة الخلق التي تطبع كل تصرفاته .

وإذ عرفني أوروبياً بسبب بياض بشرتي ، ذكر أنه سمع عني بأني « أبو مدفع » ، كما ذكر ، بتأثر واضح ، أن قذيفة من مدافعي قد قتلت قبل بضعة أيام عدداً من رجاله كانوا يطبخون الطعام لأنفسهم تحت ظل نخلة ما ، وقد وقعت هذه الحادثة كما يلي : -

كنت في أحد الأيام أتجول على طول الساحل في زوارق المدفعية التابعة لي ولم أكن أرى أحداً على اليابسة ولكني شاهدت دخاناً كثيفاً يتصاعد من بستان بعيد ، وفي الحال أمرت المدفعي البرتغالي أن يصوّب نار مدافعه إلى ذلك الهدف وكانت الحادثة الذي ذكرها قائد الأعداء نفسه هي نتيجة دقة الإصابة عند هذا المدفعي البرتغالي .

وخلال تقدم المفاوضات التي دامت أياماً ثلاثة لاحظت أن كثيراً من أفراد حامية صحار كانوا يترددون على مخيمات الوهابيين ذهاباً وإياباً ، مما دعاني إلى الشك بوجود مكيدة ما تدبر في الخفاء . لأن لهذا المذهب اتباعاً كثيرين بين جنود جيش السيد سعيد ولم يكن هذا المؤتمر الذي طال أمده إلا وسيلة على ما يبدو للإطلاع ومعرفة عدد ما تبقى للسلطان من العسكر بعد نكبته الأخيرة وأماكن تواجدها .

ولذلك ، وفي اليوم التالي وحين ارتفع العلم الأبيض جلست عند الباب أعترض رجالنا حين مرورهم وأسألهم عن وجهتهم وبواعث عملهم . وكانت

أجوبتهم على جانب كبير من الإرتباك مما زاد في شكوكي وفي الأخير لاحظت أحد جنودنا يسير تحت ثقل حمل كبير فأمسكت به والححت عليه لمعرفة ما تحويه الصرة الكبيرة . وكان جوابه الوحيد هو محاولة التخلص من قبضتي في حين تبعته بخطى واسعة والمسدس في يدي أهدده بإطلاق النار إن لم يكشف لي عما في هذه الرزمة . وقد نجح تهديدي وفتح لي هذه الصرة الكبيرة التي يحملها فإذا هي مملؤة بالبارود وفي الحال أخذت السارق الخائن وشاهد جرمه إلى السلطان . وقد إستجوبه السيد سعيد وكانت الأجوبة الوحيدة التي حصل عليها منه هي طلب الرحمة والرأفة باسم محمد . وبدلاً من أن يعاقب هذا الخائن أشد العقاب على جريمته ليكون قدوة لغيره كان كل عقاب السلطان له ضربة بالعصا على ظهره ثم أمره بالإنصراف بعد نعته بكلمتي . يا كافر . . يا خائن .

وهنا ولكي أقدم للقارىء فكرة عن أساليب الوهابيين علي أن أقدم صورة مختصرة لحركات جيشهم بعد فشل المحادثات التي قدمت ذكرها .

فحالما تقدم مطلق إلى البريمي مع جيشه الذي زاد عدده إلى الثمانية آلاف شخص بوصول الإمدادات الجديدة إليه ، فإنه إنقسم إلى ثلاثة أرتال ، الرتل الأول بقيادة مطلق نفسه وكان الرتلان الآخران بقيادة كل من إبنه ومحمد بن ناصر . والأخير كان الصديق المقرب للسيد سعيد وقد أصبح الآن عدوه اللدود . .

وقد سار أحد هذه الأرتال بموازاة الساحل واتجه الثاني نحو الداخل في حين سلك مطلق نفسه الطريق الوسط حيث كان يستطيع أن يراقب حركات الرتلين الآخرين على جانبيه .

أما السيد محمد بن ناصر فبعد أن سيطر على سمائل تقدم منها إلى أزكى وجبل بن روى . في حين إحتل مطلق وولده بقية أملاك السلطان والاراضي المحيطة بمسقط وبركا .

وفي هذا الوقت نفسه إنسحب السيد وأسطوله إلى مسقط بعد أن حصن

السويق ومطرح وبركا . وفي المكان الأخير كانت لي مقابلة مع هذا الأمير البائس الذي كان في وضع يرثى له حقاً . وقد سألني النصيحة حول الإجراءات الواجب عليه عملها لإنقاذه من الخراب التام . وقد إنطلقت بكل حريتي في إقتراح بعض الخطوات التي وإن لم تتفق مع الأخلاق السياسية في أوروبا إلا حسب التعاليم المكيافيلية إلا أنها لا ترفض في الشرق إلا من عدد قليل من حكامه . ولكن السيد سعيد لاحظ في الحال أن إقتراحاتي تخالف تعاليم القرآن وشريعة الله ، ولكي أمتحن مدى متانة مشاعره الدينية فإنني أجبته إنه حين يتعلق الأمر بمصلحة الملوك والشعوب فإن من الضروري أن نتجاهل بعض الوقت تعاليم الدين وأن نقارن بين ضرورات هذه وتلك .

ولكنه ، وقبل أن أنتهي من كلامي قاطعني محتداً ومبدياً إشمئزازه من آرائي ومصرحاً بكل جرأة ووضوح بأنه يفضل أن يخسر ملكه وحياته من أن يخالف أمراً من أوامر الله أو ما يمليه عليه الضمير الحر .

وربما كان عليّ في هذه الحال أن أذكره أن ما من جريمة شنيعة تخالف أوامر الخالق أكبر من جريمة قتل الأخ . ولكن مثل هذا القول قد يدفع المناقشة إلى منعطفات خطرة ولذلك أسقطته مكتفياً بالقول أن ضميره يكفي لأن يكون دليله ما دام أنه يمتلىء بمثل هذه الأحاسيس الطيبة .

وكان المسيو مالون ، وهو تاجر فرنسي بعثه في مهمة إلى مسقط الجنرال دي كين حاكم جزيرة فرانسة ، حاضراً أكثر حوارنا فنصح للسلطان أن يصالح الوهابيين ويدخل في دينهم . وكان السيد سعيد يكره هذا المنطق أشد الكره وكان يعتمد على المساعدات التي تقدمها له شركة الهند الشرقية الإنكليزية وقد كنت أشعر بالإشمئزاز الشديد إذ أراه يضع ثقته الواسعة في هذه الدولة التي خذلته أشدّ الخذلان في ساعة الحرج والضيق . وفي أحد الأيام أخذت حريتي في تذكيره بأن الإختلاف بينه وبين الإنكليز سواء بالدين أو في العادات هو إختلاف كبير وشامل بحيث يمنع قيام أي إتحاد حقيقي بين الطرفين ، وإنه يستطيع أن يحصل على عون أكبر لو اتفق مع الباب العالي مثلاً أو مع ملك العجم . لكن

الأمير كان يرى أن معاهدة يعقدها مع حاكم بومباي تجعله محترماً في أعين الشعب البريطاني ولكني أجبته أنه حين يتفق شعبان أحدهما قوي والآخر ضعيف فإن الضعيف يصبح بمرور الزمان تابعاً للأول . وأنه طالما كان أضعف من كل من الإنكليز والباب العالي وملك العجم فإن عليه أن يرتبط مع أحد هؤلاء الذين ـ على الأقل ـ تتشابه دياناتهم وعاداتهم مع دين وعادات قومه ورجوته أن يتذكر جيداً كيف أن إتفاقه الأخير مع الإنكليز قد عرضه وجيشه للسخرية وللخسران لأن خيم جيشهم وتجهيزاته أحسن من خيم الجيش العماني وتجهيزاته .

وهنا بدأ وكان شعوراً من البؤس والأسى قد انفجر في قلب السلطان ، وبعد أن هدأ عذاب نفسه بتكرار كلمة الله أكبر فقد جاءت القهوة وانتهت بذلك محادثتنا .

وفي أثناء إستمرار هذا الحوار ، كان مطلق قد ضرب حول بركا حصاراً مطبقاً بحيث أصبح من المستحيل على سكانها الخروج من سورها للإحتطاب ولذلك أرسلت قوة لفك الحصار عنها وحددت لها ليلة معينة لبدء الهجوم بأمل مفاجأة الوهابيين ، لكن السيد سعيد رفض أن يتولى القيادة بنفسه . وهنا يجب أن نلاحظ بأن الشجاعة الشخصية لم تكن أبداً من سمات طبعه ولذلك فقد عهدت مهمة قيادة هذا الهجوم إلى السيد محمد بن هلال وإليّ شخصياً . وقد نفذنا من باب سور بركا في تمام الساعة ١١,٠٠ ب . ظ ومعنا ماية وخمسون فارساً مسلحين بالبنادق والمسدسات والسيوف في حين كانت مدافع القلعة تطلق نيرانها بدون توقف لكي تحول إنتباه العدو وتخفي عنه مكان الهجوم الفعلي . . وقد شققنا طريقنا خلال المخيم الوهابي مطلقين النار على كل من نراه رغم سرعتنا الشديدة . ثم إنعطفنا إلى اليمين ولكننا حين وصلنا باب المدينة الشمالي وجدنا صعوبة كبيرة في إقناع أصدقائنا بفتح الباب لنا . وقد مضى بعض الوقت قبل أن نجد أنفسنا ثانية في أمان داخل جدران السور .

ولما إرتفعت الشمس كان جيش مطلق قد إختفى عن الأنظار وتراجع إلى

أكثر من عشرين ميلاً مع أن خسـائرهم لم تكن كبيـرة . ومن جانبنـا لم يجرح أو يصب أحد منّا بشيء أبداً . وإذ رفع الحصار عن بركا بهذه الصورة فقد عدنا إلى مسقط التي سرعان ما وصلها جيش العـدو وحصر السلطان نفسه داخـل جدران قصره ليصلي إلى الله الذي يسيطيع وحده أن يدفع عنه الخطر الجاثم .

الفصل الرابع

السيد سعيد يطلب المدد من ملك العجم ، وينتصر به على الوهابيين - إندحاره - مقتل مطلق على أيدي قبيلة العوبي - التحالف مع باشا مصر - نجاح السيد سعيد - حروبه البحرية مع القواسم .

في هذا الوقت اكتشفت أن الآمال التي قادتني إلى مسقط لم تتحقق وأن السلطان لم يعد يستمع باهتمام كاف إلى نصائحي كما كان يفعل من قبل . أو يوليني نفس المعاملة التي اعتاد أن يعاملني بها .

وقد تركت بلاد العرب ولم أعد إليها إلا في عام ١٨١٤ ولذلك فإنني لم أكن حاضراً بنفسي أحداث هذه الفترة التي سأرويها ، ولكنني استقيت أخبارها من أوثق المصادر وبعد تمحيص دقيق .

ففي أواخر عام ١٨١١ بعث السيد سعيد أخاه السيد سالم إلى بلاط ملك العجم في طهران[١] لمسائلة الملك امداده ببعض الجنود ، معتمداً في ذلك على عداء الشاه الشديد للوهابيين بسبب نهب وقتل أفراد القوافل الفارسية المتوجهة إلى زيارة قبر علي في الحلة[٢] .

وقد استقبل المبعوث المسقطي بكثير من الترحاب وعاد بعد اسابيع مصحوباً بقوة فارسية بقيادة سعدى خان . وهو من العائلة القاجارية الشهيرة .

وكان هذا المدد يتألف من ألف وخمسماية فارس وأربع وحدات من المدفعية الخفيفة التي يديرها بعض الجنود الروس الهاربين وعدد كبير من

(١) الواقع أن السيد سالم ذهب إلى شيراز ولم يذهب إلى طهران - المترجم .

(٢) للمرة الثالثة يصر المؤلف على أن قبر الإمام علي هو في الحلة في حين أنه في النجف المترجم .

« الزمبلك » وهو نوع من المدافع التي تحمل على ظهور الجمال وتطلق النار من الخلف .

وقد سار السيد سالم بكل هذه القوة إلى بندر عباس أو كوندروم ومنها نقل جيوشه إلى بركا على ظهور المراكب التي أرسلها له السلطان لهذا الغرض .

وقد استقبلت هذه القوة بأقصى مظاهر الابتهاج وبعد أن انضم إليها أربعة الآف عربي من جنود السلطان بدأوا حملتهم في محاولة لأرغام مطلق على الاشتباك معهم في معركة فاصلة .

ولم يتأخذر هذا القائد الشجاع عن خوض غمار المعركة التي وقعت بالقرب من نخل وهي قرية تقع على بعد بضعة اميال من البحر بين بركا ومسقط .

وبعد قتال مرير تكبد فيه الوهابيون خسائر كثيرة اضطروا إلى الانسحاب إلى سمائل . وسرعان ما زاد عدد قوات السلطان المزدهية بنصرها إلى حوالي العشرة الآف شخص ، ذلك ان العرب لم يكونوا يهتمون كثيراً بمواضيع الخلاف بين حكامهم ، وكانوا في غالب الأحيان ينظمون إلى صفوف الجانب الرابح فى المعركة . وقد تكررت هذه الحال عدة مرات ، حتى أني أعرف رجلاً غير ولاءه عدة مرات فانضم إلى الوهابيين أربع مرات ومثلها إلى قوات السلطان خلال سنة واحدة فقط .

وقد اضطر مطلق بسبب قلة قواته إلى الانسحاب إلى ازكى وهناك بدأ يحصّن مواقعه بالاتفاق مع حليفه السيد محمد بن ناصر الذي لم يكن ولاؤه لمطلق موطن شك أو ريبة وبدأ - في الوقت نفسه - يرسل إلى الدرعية طلبات مستعجلة يسألها النجدة والمدد .

ومن الجهة الثانية واعتقاداً من السيد سعيد بقضائه قضاء مبرماً على خصمه اللدود فقد سلّم قيادة قواته إلى السيد محمد بن هلال وعاد يهيء اسطوله لمهاجمة القواسم وحرق رأس الخيمة . وكان قد أعيد بناء هذه المدينة بعد مغادرة

الانكليز لها وأصبحت من جديد تضم عدداً كبيراً من السكان . على أن سكانها لم ينسوا مهنتهم القديمة وهي القرصنة ولكن إذ لم يبق لديهم إلا عدد قليل من المراكب الصغيرة فقد اقتصرت أعمال قرصنتهم على السفن العربية التي لا ترفع العلم البريطاني والذي كان رفعه فوق السفن يؤمن لها الحماية .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه السيد سالم يقوم ببعثته في بلاد العجم ، استأذن السيد سعيد حاكم بومباي لشراء بعض المدافع والمؤون . ذلك أن العرب يحبون تقليد الغير . وقد رأوا آثار التخريب الهائل الذي احدثته مدافع الانكليز أثناء حصار شناص فلم يشكوا في أن يكون لهذه الأسلحة نفس المفعول حين تصير في أيديهم . وقد تم فعلاً شراء المدافع والموتارز ونقلها إلى مسقط ، ورغبة من السيد سعيد في تجربتها فقد كلف بذلك مدفعياً فارساً يدعى أنه على علم تام في كيفية استخدام هذه الأسلحة .

وكان المقرر أن تتم التجربة على ظهر احدى سفن السلطان المسماة « فيض علم » ولكن هذا المهندس المدعي كان من الجهل المفرط بحيث أولع فتيل القنبلة قبل إحكام وضعها في ماسورة المدفع مما أدى إلى إنتشار النار والدخان مما أفزع السلطان كل الفزع وجعله يضرع إلى الله ومحمد وفاطمة ويطلب منهم السلامة والنجاة .

وكان الضرر الناجم عن هذا الخطأ الجسيم كبيراً ، إلا أن قنبلة المدفع انفجرت ـ لحسن الحظ ـ في الجو على مسافة قريبة من السفينة ودون أن تلحق أذى بأحد نتيجة دعوات السلطان كما يقول أهل مسقط .

وبعد أن جهز السيد سعيد اسطوله بالمدافع المشتراة وجند لها مدفعيين من الروس التفت من جديد إلى رأس الخيمة حيث سنتركه هناك بعض الوقت ونعود في حديثنا إلى مطلق الذي ما إن علم بمغادرة خصمه اللدود ساحة القتال حتى بدأ من جديد مناوراته الجهنمية .

فقد بدأ اتباعه يذيعون الأخبار أن ملك العجم ما أرسل المدد للسلطان

إلا تغطية لرغبته الحقيقية في السيطرة على البلاد واخضاعها لحكمه .

وقد انطلت هذه الحكاية المختلقة على الكثيرين فصدقوها ، أما الذين لم يصدقوها فقد وجدوا في مجرد هذا الافتراض ما يزري بوطنيتهم وشجاعتهم . وزاد على هذا نشوب الخلاف في المعسكر حول مرد الفضل في النصر الأخير وهل يعود للعرب أم للفرس ؟وقد وصلت هذه الخلافات حداً خطيراً بحيث أحس معه الرؤساء المتحالفون بهذا الوباء الخطير وظل الخلاف والعراك مستمرين حتى بلغ الضيق والإشمئزاز حدهما الأقصى .

وإذا رأى مطلق نجاح خططه في بث الفوضى والإنقسام وإثارة الشغب في صفوف جيش عدوه ، فقد قدر أن وقت العمل الحاسم قد حان ، فبدأ الهجوم قرب سمائل بطريقته الجريئة المعتادة وكانت مقاومة جيش السلطان ضعيفة وبالتالي فقد كان انهياره عاماً تاماً ، فقد تشتت شمله وتبعثرت صفوفه ولاقى صديقي محمد بن هلال حتفه في المعركة ومعه المدفعيون الروس الذين نهبت مدافعهم في حين هرب القائد الإيراني سعدي خان إلى بركا وليس معه من رجاله إلا مائة فارس فقط .

وبدلاً من أن يتابع هذا القائد المنتصر طريقه إلى رأس الخيمة لانقاذها من هجوم السيد سعيد فإنه انعطف نحو مسقط فوصل مطرح وهي احدى ضواحيها فاشعل فيها النار ثم تقدم منها واحتل طرق المواصلات والتموين إلى مسقط .

وما أن علم السيد سعيد بالإندحار الكامل الذي أصاب جيشه وبالخطر المحدق بعاصمته حتى عاد أدراجه مسرعاً إليها للعمل على انقاذها ، ولكنه وصلها ليرى النيران تلتهم ضواحيها فلم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً إلا أن يلوم نفسه على ما سبب تسرعه وقلة تبصره من خسائر كبيرة لا تعوض .

ولكنه ما لبث أن تغلب على أثر الصدمة واستطاع ان يستعيد صفاء ذهنه ومرونته فأعاد سعدي خان إلى بندر عباس مثقلاً باللوم والتأنيب، ثم شرع في

الحال في تقوية حصون مسقط والمدن والقرى الأخرى التي ظلت تابعة للسلطان ، وإن كانت الشكوى منه والتذمر مما سببه من مآسي تملأ اجواءها . ومن الجهة الثانية فقد أحكم مطلق الحصار على ما تحت يده من المناطق وأخذ بالترغيب والتهديد يرغم سكانها المنكوبين على اعتناق المذهب الوهابي . وقد تذمر البدو وعلت شكواهم من هذه المحاولات الرهيبة والمهينة لحملهم على ترك دين أبائهم وأجدادهم . ولكن مطلق لم يلق بالاً إلى همسات السخط والشكوى ولم يقدر - إلا قليلاً - الأخطار التي يعرض نفسه لها بإثارته هذا الشعور .

وسرعان ما بدأ مطلق يعاني نتائج هذا الحال فأضاف بذلك برهاناً جديداً على الآف البراهين السابقة على صحة المثل القائل بوجوب عدم اهمال أي أمر في الحرب استصغاراً لشأنه وأنه كلما علا شأن الأمر زاد احتمال تعرضه للسقوط وحسب المثل الإيطالي :

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

فالحظ الذي خدم مطلق في كل اعماله طيلة هذه السنين عاد فتخلى عنه الآن . ففي يوم ما ، وفي طريق عودته من جعلان إلى سمائل مع نفر قليل من صحبه ، هجم عليه بعض أفراد قبيلة العوابي ، وهي قبيلة محاربة تسكن تلك الأطراف وقتلوه بعد معركة عنيفة قاسية ، ثم قطعوا رأسه وحملوه مع عدة سلاحه إلى السلطان الذي لم يصدق ، رغم الدليل المادي المحسوس أمام عينيه خبر موت خصمه اللدود الذي ستبقى آثار شجاعته ومهابته باقية لا تمحى .

وهكذا سقط في شهر تشرين الثاني من عام ١٨١٣ ضحية الغرور الذي خلفه له نجاحه المستمر ذلك القائد الكبير الذي ظل اسمه لسنين عديدة يثير الفزع والهلع في قلوب اهل مسقط . وكان مطلق رجلاً حسن الشكل له سمة المحارب وقسوته تمازجها بعض آثار الرقة والدماثة التي تكسبه في الحال احترام تابعيه ومحبتهم ، وقد يعزو البعض هذه الشجاعة الممتازة التي طبعت سلوك هذا الرجل إلى جبن خصومه وتخاذلهم وقد يذهبون إلى القول لو أنه نازل الانكليز في معركة ما لقل حظه من النصر . ومع هذا فنحن لا نستطيع إلا أن نعجب بفطنة

هذا القائد لما أبداه من الحذر في شناص حيث ظل مختفياً فترة من الزمان حين أحس بوجود الأوروبيين مظهراً لهم إدراكه مقدار تفوقهم عليه بامتناعه عن منازلتهم . وبالحق ، ومن دون مبالغة ، فإنني اعتبره أقدر سياسي وأشهر قائد شهده الشرق منذ أمد طويل .

وقد عهد سعود بعد وفاة مطلق بالقيادة في هذه المنطقة إلى ابنه ولكن الأبن لم يكن مثل أبيه شجاعة وفطنة وسرعان ما فقد الوهابيون الأمل في إخضاع مسقط لسلطانهم .

وفي نفس الوقت الذي وصل فيه رأس مطلق إلى مسقط وصل إليها مركب صغير من جدة وكان على ظهره صقر ، سلطان القواسم المخلوع الذي استطاع الفرار من الدرعية الى مكة حيث وضع نفسه تحت حماية العثمانيين . وكان باشا القاهرة قد انهمك منذ مدة في حروب مع الوهابيين ولكنه لم يفطن من قبل إلى ضرورة التحالف مع السيد سعيد .

وعلى كل حال، فبعد وصول صقر ، وهو الصديق القديم للسلطان ، إلى معسكر الاتراك فقد فطن محمد علي باشا إلى الانتفاع من هذه الأداة السياسية في إحداث انقسام في الجانب الثاني من بلاد العرب ولذلك فقد ارسله إلى مسقط سائلاً السيد سعيد أن يحميه وأن يعيده ـ إن أمكن ـ إلى عرشه في رأس الخيمة . وفي نفس الوقت فقد أهتم الباشا بنقل أخبار النجاح العظيم الذي حققته جهوده لحد ذلك الوقت ليسأل بعد ذلك السلطان أن يمده بعدد من السفن والمراكب وخاصة المؤون التي تنفعه في مشاريعه المقبلة. وفي الحال بدأت الأمال تساور السيد سعيد لأصلاح أوضاعه المنهارة وقد أحس بالزهو والخيلاء للاهتمام الذي أبداه تجاهه بلاط القسطنطينية العظيم . وعلى ذلك فقد أرسل إلى جدة في الحال سفينة محملة بالمؤون من زاد وعتاد . وأكد في نفس الوقت لطوسون بن محمد علي باشا بأن يعتمد عليه في كل مساعدة تستطيع مسقط تقديمها طالما ظلت جهوده منصبة على محاربة العدو المشترك . وكذلك فقد جهز عدداً من السفن ووضعها

تحت قيادة صقر ليحاول بها استعادة ملكه المفقود بالقوة أو بإثارة ولاء رعاياه القدامى له .

وكانت رأس الخيمة من القوة والمنعة بحيث يتعسر النجاح على كل من يهاجمها ولكن صقر وإن فشل في إخضاع رأس الخيمة ، فإن لنجة وبقية املاك القواسم على الجانب الثاني من الخليج اضطرت إلى التسليم إلى سيدها السابق الذي استطاع أن يزيد عدد قواته بفضل مساعدات مسقط المالية .

وتبعاً لذلك ، فقد انقسمت الآن هذه القبيلة المحاربة إلى قسمين ظل احدهما الذي يسكن الساحل العربي على ولائه وتبعيته للوهابيين في حين خضع القسم الثاني منها الذي يسكن الجزر المنتشرة قرب الساحل الفارسي من الخليج إلى حكم صقر .

ولا شك أن سعادة السيد سعيد قد بلغت مداها الآن ، فبعد أن كان غير قادر على حماية نفسه إلا بصعوبة بالغة أصبح الآن يساعد على توزيع العروش للآخرين ، وكان والي جدة يبعث إليه من حين إلى حين بأخبار استعادة مكة والمدينة من الوهابيين وبطردهم من ساحل البحر الأحمر ولكنه - إذ حاول أن يتوغل إلى داخل الجزيرة العربية فارقة حظه السعيد ، ذلك أن شجاعة البدو واستبسالهم مضافاً إليها قابليتهم على احتمال شظف العيش والحرمان واستحالة تموين خطوط الاتراك الطويلة في زحفهم عبر الصحراء ، وكل هذه العوامل حمت الدرعية من احتمال أي هجوم عليها واستطاع بسببها الوهابيون رغم كل النكسات أن يستعيدوا سيطرتهم على جميع المناطق الداخلية في شبه الجزيرة العربية .

وقد لاحظ الفلاسفة والشعراء أن عجلة الحظ حين تدور فإنها تدور بسرعة واستمرار وهكذا كان الحال هنا ، فبينما كانت اخبار زحف طوسون الناجح تتوالى على مسقط ، فقط وصلها أيضاً الخبر السار بوفاة سعود قائد الوهابيين والذي كان لشجاعته وإقدامه وصواب سياسته الفضل كل الفضل في

انتصارات الوهابيين . وقد خلفه في الحكم عبد العزيز الثاني[1] الذي لا يستطيع المرء أن يعزو اليه مثل هذه المواهب القيادية .

وقد اضفت هذه الأخبار السارة المتواترة برود الأمن والإطمئنان على السيد سعيد بعد أن بدى مؤخراً وكأنه على وشك الأنهيار التام . وقد بدأت بلاده تجني ثمار الهدوء والسلام فقد بدأ بتعمير المدن التي خربتها الحروب وعاد الفلاحون إلى زراعة حقولهم التي اضطرتهم الحروب إلى هجرانها منذ زمن طويل . وعادت الإدارة الحكومية تأخذ سبيلها في الأقاليم والمقاطعات . وبدأ البدو يتوافدون زرافات وأفراداً على مسقط لتهنئة أميرهم بالأحداث السعيدة ولتأكيد ولائهم وإخلاصهم له .كما بدأ التجار - ببهجة ونشاط - مضارباتهم التجارية المربحة من جديد . وقد قرر السيد سعيد في هذه الاثناء تقوية اسطوله فأوصى على بناء سفينة حربية كبيرة في بومباي .

إلا أن تطور الأحداث السريع الذي ارضى السيد سعيد لم يرض الشيخ صالح شيخ رأس الخيمة ولكنه مع هذا لم يفقده الشجاعة والجرأة بل على العكس فقد زاده ذلك تصميماً على الاستمرار في الحروب بكل ما أوتي من قوة وهمة .

وعلى هذا فقد حاصرت مراكبة البحار المجاورة ، والويل كل الويل للملاح التعس الذي يوقعه سوء طالعه في قبضة هذا الشيخ أو اتباعه ، فلن يكون مصيره إلا الموت المحتوم ، وإن كانت الرحمة تجد في بعض الأحيان سبيلاً إلى قلبه .

وقد أراد عبد العزيز أن يدشن بداية حكمه بعمل يظهر للناس أن الوهابيين قد وجدوا بعد وفاة سعود قائداً وبطلاً آخر في شخصه يستطيع أن يقودهم إلى النصر الأكيد . وقد بدأ اعماله بانفاق عشرة الآف دولار لتسليح داو كبير جداً تسليحاً فعالاً (الدو نوع من السفن المعروفة في الخليج) وقد وضع عليه مدفعاً وكان عدد ملاحيه والعاملين فيه حوالي الأربعماية شخص . ثم بعث

---

(١) هو في الحقيقة عبدالله بن سعود - المترجم .

بهذا المركب ليمخر عباب مياه الخليج ويأسر كل سفن العرب التجارية التي يلتقي بها . وقد قاده ربانه « الشيخ جعفر » نحو مسقط وظهر فجأة قرب مينائها ، وما كانت المدينة قد سمعت من قبل بوجود مثل هذا المركب ولذلك فلا تسل عن الفزع الذي انتاب أهل المدينة أثر ظهور هذا المركب ويحتاج المرء إلى يراع شاعر مجيد ليتطيع أن يصف رعب السكان وخوفهم فقد كان ينظر بعضهم للبعض الآخر بوجوه واجمة شاحبة وأطراف مرتجفة دون أن يستطيعوا أن ينبسوا بكلمة أو يبدو رأياً يدفع هذا الشر الجاثم أمام أعينهم .

وكان السلطان ، اثناء هذا ، في قصره محاطاً بأعداد كبيرة من البدر وبقواته المعتادة وكان الميناء ممتلئاً بسفن عدة من بينها السفينة كارولين التي كان السلطان قد أوصى عليها والتي كانت قد وصلت لتوها من بومباي وأثارت الاعجاب في نفوس الناس .

وكان على السيد سعيد أن يطمئن هذا الشعب الجزع وأن يتظاهر بالشجاعة ورباطة الجأش وإن لم يكن هو في الواقع أقل جزعاً وهلعاً من بقية أفراد شعبه . ولذلك فقد ركب السفينة كارولين الجديدة ومعه على ظهرها الفاجندي وعدد غفير من عبيده وخدمه وأصدقائه المقربين وأقاربه ، واصطحب معه أيضاً سفينتين أخريين من ذوات الأشرعة الثلاثة وأبحروا جميعاً متجهين إلى مرسى الداو قرب مطرح .

فلما اقتربت الحملة البحرية من الداو اطلقت عليه كارولين النار ، ولأن الهدف كان خارج مدى مرمى المدفعية فقد استنكف العدو أن يرد عليها ، ولكنه انسحب نحو خليج قلهات .

وقد سر السيد بما اعتبره نصراً له وهزيمة لعدوه ، واكتفى بهذا المجد العظيم الذي حققه ، فعاد إلى مسقط وسط مظاهر الفرح والإبتهاج وأمر السفينتين الأخريين أن يستمرا في ملاحقة العدو .

وقد نفذت أوامره ووصلت السفينتان إلى مياه قلهات وهناك سمع أن

الشيخ جعفر قد اسر دوبتين محملتين حمولة غالية تعود لتجار عرب وبانيان وقتل جميع ملاحيها وركابها .

ولانعدام الجرأة لدى السفينتين على الأقتراب إلى أقل من ثلاثة أميال من محل الحادث . فقد عادتا أدراجهما لينقلا إلى السلطان خبر شجاعتهما ونجاحهما في حين ظل المركب الوهابي في البحر يبحث له عن ضحايا جدد .

وقد يتصور القارىء إني اصف له تمثيلة منمقة في حين أني أروي له الحقيقة كاملة وإذ لا يستطيع السيد سعيد أن يتهم ضباطه بالجبن خشية أن ينعكس هذا الاتهام على تصرفاته الشخصية أيضاً فقد وجد أن الأسهل أن ينسب سلوكهم إلى الخيانة وأن يعاقبهم باضفاء لقب الكفار المهين عليهم .

وعلى كل حال فإن التجار لم يرضهم مجرى الأمور وضجوا بالشكوى من عدم الجدوى من دفع الضرائب الكبيرة للانفاق على جيش لا يملك الشجاعة لملاقاة عدوه وجهاً لوجه .

ومع هذا فإن براءة دينهم اقنعتهم بأن ما يجدونه من سوء الطالع إنما هو قدر من الله وامتحان منه للمؤمنين منهم في صبرهم على البلاء .

وفي أثناء ذلك انضم الشيخ جعفر إلى قوة بحرية صغيرة للقواسم ووجه نشاطه نحو كورمازو ، وهي مدينة قرب كوج على شاطىء مكران . فأرسلت ثلاث سفن من مسقط لانقاذ المدينة ولكن السفن عادت كالمعتاد دون نجاح .

أرجو ألا يظن القارىء أنني مدفوع في ذكر اخطاء ونواقص سيدي السابق السيد سعيد باي عداء أو كراهية ضده . فإن اخلاقي ومبادئن تمنعاني من اخفاء أو تشويه الحقيقة والمبالغة فيها .

وسيظهر القسم التالي من هذا الكتاب مقدار الولاء الصادق الذي خدمت به السلطان والذي كان يثيره في وينميه عندي عطفه الوافر علي والذي يغطي في نظري على جميع اخطائه .

الفصـل الخامـس

حياة العرب اليومية ـ ملاحظات حول صفاتهم البارزة ـ ملاحظات سريعة عنهم وعن بعض الشعوب الآسيوية ـ وصف البانيان والصابئة واللواتيا

من معاد القول غير النافع أن تكرر هنا ما سبقنا إليه الكتاب الآخرون من وصف لـلأحوال العـامة في الشـرق ، وإن يكن مرور الـزمان قـد غير كثيـراً من عادات السكان هناك وطرق معيشتهم ولذا فإننا لن نتأخـر عن الإشارة إلى مثـل هذه التغييرات حيثما نلتقي بها .

وقد يكون من الطريف للقارىء أن يعلم بعض الشيء عن الحيـاة اليوميـة والخاصة للعرب ، ولكي اشبع هذا الفضول عند قرائي ، فإنني سأروي لهم مـا جمعتـه شخصياً من المشـاهدات في هـذا الخصوص ، وهي مشـاهدات قـد تبدو تافهة في حد ذاتها إلا أنها يمكن أن تعطي فكرة واضحـة عن سلوك هؤلاء الناس وطباعهم وهي احسن بكثير من القصص المنمقة عن الأحداث العامة .

يستيقظ العربي من نومـه أول طلوع الفجر ويبـدأ شعائـره الدينيـة بترديـد كلمـة « لا إلّه إلا الله » ثم يبـدأ بإيقـاظ أصحابـه فيمد يـده إلى من يصـدف أن يكون نائماً بالقرب منه ليهزه صائحاً به الصلاة لله . . الصلاة لله .

وهـذه الطريقـة في إيقاظ الأخـرين معمول بهـا في كـل مكـان ، وحتى في عـرض البحار ، فـإن عـلى أول من يستيقظ عـلى ظهـر السفينـة أن يـوقظ بهـذه الطريقة الآخرين لاداء الصلاة ، حتى وإن كـانوا غـرباء عنـه تمامـاً ، ولا تسبب هـذه العادة ضجـراً أو عدم رضى لأحـد ، بل يهب الجميـع لاداء الصلاة بهمـة

ونشاط إلا من كان قد أمضى الليل أو أكثره في العمل المستمر كما هو الحال مع الخدم والعبيد فإنهم يتباطأون في النهوض ما لم يدفعهم إليه دفعاً أسيادهم .

ومن عادة العرب ، أينما كانوا ، سواء في المدينة أو الريف ، في البر أو البحر أن يناموا جماعات ، ويكون لكل جماعة « ملا » خاص بها ، فإذا حدث ولم يكن بينها رجل الدين هذا ، فإن أكبر أفراد الجماعة سناً والذي يفترض فيه أن يكون أكثرهم علماً بشؤون الدين يبدأ بهم الصلاة بتلاوة من القرآن ، وبترديد جملة « الصلاة خير من النوم » فتكررها الجماعة من بعده في نفس الطريقة والنغم ويجب أن يلاحظ أن الدين الإسلامي يشترط على المسلم ألا يقف بين يدي الله إلا وهو في كمال طهارة الذهن والبدن . لذلك فهم لا يقفون للصلاة إلا بعد أن يغسلوا أيديهم ووجوههم وأرجلهم . فإذا لم يتيسر لهم الحصول على الماء كما لو كانوا في رحلة عبر الصحراء ، فيقال أن الأتقياء منهم يستعملون الرمل لأداء وظيفة التنظيف[1] .

ويتناول العربي وجبة الإفطار مبكراً عند الصباح وتدعى عندهم الموزة[2] وتتألف من الخبز والسمك المجفف والحلويات والشاي والقهوة ، هذا بالنسبة للموسرين من الناس أما فقراء الحال فعليهم أن يكتفوا بالتمر مع قليل من الرز المغلي . وحوالي الظهر تحل وجبة الغذاء وتتألف من اللحم الذي يطبخ بأشكال مختلفة ولكن الوجبة الرئيسية للاغنياء كما هي للفقراء هي وجبة العشاء ، ويجري تناولها عند غروب الشمس وتتألف من كميات كبيرة من الرز المطبوخ وعليه اللحم أو الدجاج المشوي . وأما الذين لا يستطيعون سبيلاً إلى مثل هذه الوجبة اللذيذة ـ فيكتفون بالرز والسمك فقط .

والعرب، على العموم ، شعب معتدل ، ولذلك فلا وجود للسمنة المفرطة بين رجالهم وقد يكون مرد ذلك إلى حرارة الجو ، على أنهم ليسوا خاملين كما

---

(١) من الواضح أن المؤلف يشير إلى التيمم ـ المترجم .

(٢) لم نسمع بهذه التسمية من قبل ـ المترجم .

يفترض أن يكونـوا ، فإن صنـاعهم والحرفيـين منهم منهمكون في اشغـالهم بكل اهتمام شأنهم شأن امثالهم في أوروبا ، وقد رأيت رجلاً يشتغل في ثقب اللؤلؤ ، يقضي يـومه كله في أداء هـذا العمل الـدقيق المرهق . ومـع هذا فـالبعض منهم يقضي وقته في فراغ كبير ، ولكن هذا سببـه الشعور الـطبيعي بعدم الاطمئنـان الذي يبعثر الإنتاج الصناعي والذي يزيل بطبيعة الحال كل دوافع العمل .

ويشتغل الفقراء طيلة فصول السنة وهم بطبيعة الحال يفضلون العمل عند من يدفع لهم أجراً أعلى ومن الصعب أن تجـد فـي موسم جمـع التمر عـاملاً دون عمل . فهذه المادة الغذائيـة الحيويـة التي هي قوام الغـذاء للجميع هي في نفس الوقت مجال العمل الواسع لهم وهي موفورة ورخيصة ولا يعتبر المرء مذنباً إذا مـا احتفظ لنفسه بشيء قليل من هذا الثمر الموفور .

وفي أيام الرزق والعمل هذه يقضي الذين لا يتطلب منهم العمـل أوقاتهم جلوسـاً تحت أشجار النخيـل يرتلون بـأنغام شجيـة سـوراً من القـرآن ، وحـين يتغلب عليهم سلطان الكرى فلا يتورعون من النوم تحت اغصان هـذه الأشجار الكريمة التي توفر لهم الطعام والظل .

ولتبرير هـذا الكسل الشـديد ، يجب أن نتـذكر أنـه لا وجود مـطلقاً بـين العرب لكل وسائل التسلية التي تشغل القسم الأعـظم من أوقات الأوروبيـين ، فدين العرب يحرم كل وسائل اللهـو ، وهذه تتضمن الأعمـال المسرحيـة أيضاً . وما كان للآلهة فاكونا هذا العـدد الغفير من الاتبـاع لو لم تكن هنـاك دور الأوبرا والموسيقى والمسارح وموائد القمار .

ومع أن صناعة البنادق والسيوف منتشرة انتشاراً كبيراً في تركيا وإيـران فلا وجود لها في بلاد العرب الواسعة ، ولذلك فإن كل ما يستعمل من هذه الأسلحة يجب أن يكون مستورداً من بلاد اخرى .

وفي مسقط يبـاع ملح البارود بكميـات وافرة إلا أنـه بسبب قلة الخبـرة أو سوء الفحم المستعمل فـإن البارود المستخـرج منه من الـرداءة، بحيث لا يصلح

للاستعمال إلا في اطلاق مدافع التحية ، وعلى الاطلاق فإن قوة البارود المستورد أربعة اضعاف قوته . واستخراج اللؤلؤ هو مهنة الغالبية من سكان عمان ، على أن صيد السمك أكثر انتشاراً بين طبقات السكان .

ويقضي البدوي وقته في رعاية قطعان الجمال والماشية أما من يدعى بالمتعلمين منهم فيقضون أوقاتهم في دراسة أحاديث النبي أو التعليقات والشروح الفائقة العدد الموضوعة عنها ، ولبعض هذه الشروح الآن نفس الحجية التي للنص نفسه ، أما السيد سعيد وشيوخه فيقضون أوقاتهم في النظر بشؤون أملاكهم أو بالقيام بجولات على ظهور خيولهم الجميلة . ولكنني طيلة مدة خدمتي للسيد سعيد لم أره هو أو أحد وزرائه قد انصرف إلى وضع التخمينات لضريبة جديدة مثلاً تزيد في إيراد الدولة ، والعربي يدرك تماماً ما ينفعه وهو شديد الحرص على المال ولا يمكن تحصيله منه إلا بأكثر الطرق مرونة وتعقلاً .

والمرأة المسقطية تمضي أكثر وقتها في تهيئة الطعام لاسرتها وفي قراءة القرآن إن استطعن إلى ذلك سبيلاً ، أما الأنوال وآلات الغزل فنادرة الوجود في مسقط ولربما كان السبب في ذلك أن حرارة الجو تنفي الحاجة إلى الملابس الكثيرة ، وإن القليل المحتاج إليه للارتداء يمكن استيراده من الهند بكلفة أرخص من كلفة الصنع المحلي ، وعلى كل حال فإن هذا القسم المتوحش من الأرض اللاهبة لم يعرف بعد النظام الاقتصادي السياسي الذي يحرم بموجبه كثير من حكام أوروبا أنفسهم ورعاياهم من كثير من أنواع الترف والنعم لمجرد أنها تصنع خارج بلادهم .

ويذهب الأطفال العرب إلى المدارس حيث يتعلمون القراءة والكتابة ، كما يحفظون القرآن عن ظهر قلب . وأنه لمضحك حقاً منظر هؤلاء الأطفال ومعلمهم إذ يرددون خلفه ما يحفظهم إياه من الكلام مع هز رؤوسهم من جانب إلى آخر .

والحاجة إلى الخدم قليلة في بلد تقل فيه متطلبات الأفراد وعلى كل حال فالأغنياء من الناس عندهم العبيد الزنوج الذين يقومون بتحميص البن وتحضير

القهوة وبعض الأعمال الأخرى التي تحتاج إلى جهد ما . ومن الممتع أن يستمع المرء إلى الأصوات المنبعثة من الهواوين المعدنية الثقيلة التي يدق فيها العبيد البن ، وهي تتردد في دقات رتيبة متزنة كأنها قرع النواقيس . وحفلات الاستقبال غير معروفة في بلاد العرب ، فإن حب الراحة عند الشرقي وحجاب المرأة قد حببا إليه الحياة الاجتماعية في نطاق العائلة .

ولكنني حضرت مرة حفلة عشاء كبرى أقامها السيد سعيد ودعى إليها أكثر من خمسين شخصاً . وكان مكان العشاء على ساحل البحر بين السيب ومطرح ، حيث أقيم هناك مصنع لسبك المدافع يديره أحد اللاجئين الإيرانيين ، وكان الدافع إلى هذه الوليمة هو الاحتفال بتجربة أول مدفع مصنوع في هذا المعمل . ولكن شرف هذه الدعوة الملكية لم يخل من بعض الاخطار ، إذ انفجرت احدى قنابل هذا المدفع على بعد خمسين ياردة فقط من المكان الذي كنت أقف فيه ، والذي كنت قد اخليته لتوى من المشاهدين خشية أن يؤدي جهل هذا المهندس المدعي إلى إصابة البعض منهم بأذى . وقد تناثرت شظايا القنبلة في كل اتجاه وأصابت احداها المظلة المرفوعة فوق رأسي دون أن تسبب لي أي أذى . وما أن رأى السلطان الحادث ، وكان يقف في مكان أمين خلف جدار ، حتى صاح مسكين الشيخ منصور . . . !. ثم أرسل لي في الحال أحد عبيده يهنئني على نجاتي من هذا الحادث الفريد .

لكن الأعجب من هذا أن هذا الإيراني الخبيث في سبيل أن يرفع عن نفسه العار ، ولربما العقاب أيضاً فإنه أصر بالحاح على أن الخطأ في هذا الحادث إنما يقع علي أنا .

وعلى كل حال فإن هذا الحادث البسيط لم يعكر بهجة المناسبة ، وسرعان ما نصب العشاء في بيت مبني من القش إلى جوار المصنع ، وقد بدأت الوجبة حوالي الساعة الواحدة . وقد مدت على أرض الغرفة حصيرة طويلة نصبت عليها أعداد غفيرة من صحون الفخار الصيني تحتوي على خمسين دجاجة وكمية من الدولمة ، وهي عبارة عن كمية من اللحم المفروم والملفوف بورقة من ورق الشوندر ،

الـذي يزرع هـو واللهانـة في كل بستـان تقريبـاً ، وإلى جـانب هـذه الصحـون صحـون اخـرى مملوءة بضلوع الغنم وفي وسط هـذا كله يقـوم إنـاءان خشبيـان كبيران عليهما الخراف الكاملة مشوية ومحشوه بالرز .

وحين رفعت هذه الـوجبة جيء بمـا يمكن تسميته بـالحلويات ويتـألف من مربي الأناناس وقشور البرتقال مع البندق . وكان نهاية هـذا العشاء إعـداد كبيرة من البـرتقال الجيـد الذي جيء بـه من بندر عبـاس خصيصاً للسلطان . وكـان الشراب الوحيد في هذا الحفل هو الماء وحده .

وكان الضيوف جلوساً على الأرض وقد ثنوا أرجلهم دون مـراعاة لقـواعد القدم والأسبقية وكان هؤلاء الضيوف يتكونون من بعض الشيوخ العرب وبعض التجـار والمهندس الإيراني وبعض أقارب السيـد سعيد ، وكـان هذا العـاهل قـد جلس قـريباً مني وكـان يضحك من كـل قلبه عـلى ما كـان قد وقـع لي في ذلـك اليوم .

وعندما انتهى كل شيء نهض القوم يردد كل منهم كلمـة « الحمد لله » ثم عادوا إلى مسقط بالمراكب التي جاءت بهم منها . وكان الخدم والنوتية والعبيد قد أتوا على ما فضل من العشاء دون أن يتركوا حبة منه .

ومع أن العرب ليسوا ـ بصفة عامة ـ شعباً مرحـاً ولكنهم كثيراً مـا يؤنسون أنفسهم ببعض الألعاب . فمن هذه الألعاب أن يصف اثنا عشر فنجاناً ويـوضع خـاتم تحت أحداهـا . والفن في هذه اللعبـة هو في معـرفة هـذا الفنجان المعين واكتشـاف الخاتم تحتـه ، ومن هـذه الألعاب أيضـاً أن يشـدوا عيـون أحـدهم بعصـابـة كثيفـة ثم يمسـه بعض الحـاضـرين بـأيـديهم والمـطلوب منه أن يحـزر اسماءهم .

وعنـدهم بعض الألعاب المشـابهة الأخـرى ويجمع بينهـا كلهـا السـطحيـة والبدائية ، وهي في أوروبا لا يمكن أن تعجب أحداً غير الأطفال .

وينام أهل مسقط مبكرين جداً ، وما لم يكونوا على سفر بالبـر أو البحر ،

فإنهم ينامون قبل الساعة العاشرة وتنتهي الفترة الأولى من نومهم قبل منتصف الليل .

وينام الفقراء على الأرض المجردة في حين ينام من هم احسن حالاً على حصران من الخوص أو القش ، وقد يفرشونها على خشب مرفوعة على أربع قوائم بشكل يقرب من شكل السرير الأوروبي . أما التجار الأغنياء والشيوخ فيكون فراشهم هذا من الصوف أو القطن وقد يغطونه بالسجاد الإيراني . وهم ينامون بنفس الملابس التي يرتدونها طيلة النهار والتي لا يبدلونها ، حتى الشيوخ منهم ، أكثر من مرة أو مرتين في الأسبوع .

ويقف المسلمون بكل خشوع وتقوى ليؤدوا للخالق الصلاة خمس مرات في اليوم وفي أوقات معينة يحافظ على دقتها بكل عناية واهتمام . والصلاة الوسطى تسمى الكنيدي[1] وهي أهم صلوات اليوم وموعدها قبل الغروب بثلاث ساعات حيث يسقط ظل الرأس على بعد ثلاث ياردات من القدم .

وفي هذه اللحظة المعينة يتوجه كل أهل مسقط نحو الغرب ، نحو مكة وإذا اقتضت الظروف سفر احدهم إلى بلد اجنبي ، فهو يجهد نفسه ليعرف على وجه الدقة اتجاه سفرته ليحدد على ضوئه موقع المدينة المقدسة التي يجب أن يستقبلها عند كل صلاة ولكن لأن معلوماتهم الجغرافية في هذه البقعة من الأرض - وعلى وجه العموم - في أدنى الدرجات ، فمن الممتع أن يستمع المرء إلى المناقشات الحادة بينهم حول هذه النقطة الحساسة بالذات ، ومن الفضول المؤذي لكافر مثلي أن يتدخل في هذا الأمر .

ومتعة العمل ونشاطه الموجودان في أوروبا لا وجود لهما في الراحة الخاملة والحياة الشرقية المسترخية . والعربي لا يضيع وقته في حلاقة وجهه كل يوم او تنظيف ملابسه أو تلميع حذائه ، فإن أزياء بلده تعفيه من هذا الجهد المستمر في سبيل حب المظهر والظهور .

---

(١) لم نسمع بهذه التسمية .

وحتى المزارعون في الشرق لا يعرفون حياة الجهد والمشقة التي يعانيها أكثر السكان في أوروبا . فالنخلة هي قوام الحياة في تلك البلاد تفيض بناتجها دورياً كل عام ، أما عن الذرة التي نادراً ما تزرع هناك فإن أكثر السكان لم يذقها في حياته ، وهذا القول لا ينطبق على بغداد وما جاورها .

وتقوم النساء في بعض البلدان بالجزيرة العربية بحياكة بعض ملابسهن ولكن هذا أمر نادر جداً وغالبية النسوة يقضين أوقاتهن في تدبير شؤون اطفالهن وتنظيف النزر القليل من الأثاث الموجود في بيوتهن ثم في تزيين أصابعهن واكفهن بالحناء وفي أداء فرائضهن الدينية ثم في تجميل انفسهن ليرقن في أعين أزواجهن .

وليس في مسقط إلا مكان واحد يبدو كالمدن الأوروبية من حيث اكتظاظه بالناس والتجار ، وذلك هو الميدان الواقع إلى جوار دائرة الجمارك حيث تراه دوماً مزدحماً بالتجارة والسماسرة والكتبة والبحارة .

وإذا كان لعربي ما حظ من الذوق الموسيقي ، فإنه يقضي أوقات فراغه في الضرب على الدف أو الرباب أو العزف على الناي . وبساطة هذه الالآت وبدائيتها واضحة جداً ومع هذا فإن لها تأثيراً قوياً على هؤلاء القوم . والعرب ايضاً مغرمون بالغناء ، وحتى صلاتهم تؤدي بنوع من القراءة المرتلة .

ومع أن الدين المحمدي يبيح تعدد الزوجات للمسلمين جميعاً فإن العرب لا يستغلون هذه الإباحة كما يفعل الأتراك فلن تجد بينهم من يتزوج أكثر من واحدة أو اثنتين على أكثر تقدير . والسلطان نفسه لم يكن عنده أكثر من زوجتين اثنتين طيلة مدة بقائي في خدمته .

وتتميز حفلات الزواج بدق الطبول وعزف الأبواق التي تصدر أصواتاً لا نغم لها ولا وفاق بينها . والعروس لا تفتخر بمقدار ما تملك من الذهب أو الجواهر كما تفعل النساء في إيران والأناضول ويختتم العرس بحفلة عشاء كبرى .

والمآتم تجري بهذه البساطة نفسها فبعد غسل الجثة وتكفينها تلف بقماش من الكتان الأبيض وتحمل إلى المقبرة التي تكون عادة خارج المدن ، ويصحبها بعض الأصدقاء الذين يتناولون الطعام بعدئذٍ في بيت اقرب الناس إلى الشخص المتوفي في حين يستمر بكاء النساء وعويلهن ، المنفصولات عن الرجال ليخففن عن أنفسهن لوعة المصاب .

وفي بلد مثل مسقط تكون فيه العلاقات بين الأفراد أقل تعقيداً منها في أوربا ، وحيث تجتمع كل قوانينه في كتاب واحد فقط فليس من المفروض أن تكثر في مثل هذا البلد الدعاوى والقضايا الجنائية ، ولذلك فإن مهمة المحاماة في مسقط لا تغني عن صاحبها شيئاً ، والسجون تكاد تكون خالية . وفي خلال عام واحد لم أشهد حكم الاعدام ينفذ إلا في شخص واحد وكان هندياً وكان جريمته غريبة تستحق السرد . فقد ادعى ديناً قدره خمسماية دولار على التاجر البانياني ملتزم الجمارك . ولم يكن المدعي ذا سمعة جيدة أو سلوك حسن فقد اتهم من قبل باختلاس أجور عمال اشتغلوا عند السلطان ، وكذلك بعدم دفع رواتب ثلاثة أشهر لربان فرنسي يعمل في الأسطول السلطاني . وقد حاول الحصول على هذا المبلغ بشتى الوسائل حتى اضطر في الأخير إلى تهديد البانياني بالقتل إن لم يدفع إليه المبلغ المطلوب . وقد اشتكى البانياني في الحال عند السيد سعيد الذي خصص جندياً لحراسته ولكن الهندي جاءه في اليوم التالي وقتل الحارس بضربة قاضية ثم دخل الدار بالقوة وقتل البانياني بسيفه الذي ما يزال يقطر من دم الحارس وعند التفتيش عنه وجد بعد ثلاثة أيام مختبئاً في جامع المدينة وسلم إلى أهل القتيل العربي ، حسب التقاليد البدوية فإن المجرم تشد يداه وقدماه ويبضع بالسيف في مختلف انحاء جسده قبل أن يقضى عليه بالضربة القاضية .

وكان من عادتي أن أزور السجون فلم أكن أجد فيها أكثر من سبعة سجناء وفي مناسبة اخرى وجدت خمسة فقط ، كان اثنان منهم من العبيد الزنوج ، والثلاثة الآخرون عرباً وكانت جريمتهم جميعاً هو سرقة سادتهم أو عصيان أوامرهم .

والكـل يعرف أن السنـة العربيـة تنقسم إلى اثني عشر شهراً قمرياً أحـدها يدعى رمضان وهو شهر صيام إذ ما من أحد يأكل أو يشرب شيئاً ، وكل مـا هو ضروري لادامة الحياة من مأكل ومشرب يتناوله المرء خلال ساعات الليل .

ولا بد أن العرب وهم يعيشون في أكثر بلاد العالم حـراً واقساهـا جـواً هم أكثر المتضررين من هذا الصيام ولكن الملاحظ أن قواعد الصيام تراعى بكل دقة وعناية .

وحين كنت في القسنطينية وافق حلول رمضان في شهر تشرين الثـاني وعلى ذلـك فإن المسلمـين لم يعانـوا كثيراً من العـطش ولكن إذا وافق وقوعـه في شهـر حزيران أو تموز فإني اعتقد أن الإمتناع التام عن شرب كل سائل أمر يفوق طاقة البشر كافة حتى في البلاد الباردة .

ويستعين الأغنياء من الناس على اجتياز فترات الصيام بالنوم المستمر أكـثر ساعات النهار لكن ماذا يكون شأن الفقراء الذين يقتضيهم الحصول على القوت اليـومي الكثير من الجهـد والتعب ؟ إن مصيبتهم كبيرة ولا شـك . وهنا كـما في امثلة اخرى فإن بلاء الفقراء أكبر مما يبدو لأول نظرة .

وعلى كل حال فإن العرب بتركيب اجسـامهم وبحكم تقاليـدهم وبموجب أحكام دينهم هم بين امم الكرة الأرضية جمعـاء اكثر الشعـوب نجاحـاً في الأمور التي تحتـاج للصبر الـطويـل . وليس صبـرهم في شهـر رمضـان واحتمـالهم آلام الصيام مع الـدقة في مـراعاة مـواعيده بـالشيء المستغرب ، إذا مـا علمنا طـريقة تعليمهم الذي يدوم طيلة حياتهم .

والعربي يكتفي بقوته ببضع تمرات فقط وأكثر الرجال لم يذوقوا في حيـاتهم لـذائذ الـطعام ومـع هذا تـراه يمشي حافي القـدمين عـلى رمال الصحـراء الملتهبة ويتلقى اشعة الشمس العمودية برأسه المكشوفة دون أدنى شكاة .

ولا يتعبه السفر الطويل تحت هذه الظروف فيمشي النهار كله حتى إذا جنه الليل كانت الأرض فراشه والسماء غطاءه ومهما يكن قد لاقى من مشقـة وإرهاق

فلن تراه ينبس ببنت شفة ، وإذا برح به الألم واشتد العذاب لن تسمع عنه إلا كلمة الله أكبر .

ولم اسمع في حياتي عربياً يتشكى إلى الله أو الرسول وما مصدر ذلك إلا صلابة موروثة في العقيدة وتقبل صادق للأمور . ومع هذا فالعربي الآن لا ينظر إلى الدين نظرة المؤسسين الأوائل له من حيث الرغبة في التبشير به ونشره ، وما اعتقد أن عربياً يدفع دولاراً واحداً لمسيحي مقابل إسلامه .

ويتهم سكان الجزيرة العربية بالخمول والكسل ، وهي تهمة لا تخلو من حق كبير لكن مصدرها ليس طبع العربي كما يتبادر إلى أذهان البعض وإنما سببها طريقة الحكم الذي يظله .

ودليلنا على صحة رأينا هو هؤلاء الوهابيون الذين ما إن وجدوا القائد الصالح والحافز الصحيح حتى نفضوا عنهم لباس الكسل والخمول واستعادوا نشاطهم وهمتهم واندفعوا ينشرون في الجزيرة العربية دينهم الجديد دون كلل ولا توان . ولولا ما يؤخذ على هؤلاء القوم من تطرف وتعصب لكانوا بحق خير خلف للعرب الأوائل الذين فتحوا العالم ونشروا الدين .

ولكن إذا كان اسلافهم قد اصطدموا بهرقل ويزدجرد فإن هؤلاء القوم قد اصطدموا أيضاً بالشعوب التركية والفارسية التي تؤهلها ثرواتها وقدراتها على أن تنتفع من العلوم الحربية الأوروبية إضافة إلى ما أصابها من وعي ديني نتيجة ظهور الفرقة الوهابية المارقة وهدمها للمدن الإسلامية المقدسة .

وعندما هاجم مطلق الجيش المسقطي على ساحل بحر شناص أمام نظر السلطان ، كان هجومه في غاية من الشدة لا يمكن أن توصف . فما أن انتهى أطلاق النار حتى عمد الوهابيون إلى سيوفهم فأستطاعوا بها وفي خلال نصف ساعة فقط أن يبيدوا أو يشتتوا كل من وقف في وجوههم .

وعلى العكس من هؤلاء نجد رعية السيد سعيد شعباً خاملاً ضعيفاً لا

يعمر صدورهم حماس ديني ولا ثقة لهم بانفسهم ولا بقائدهم ، الذي لا يقل في الحقيقة جرأة وشجاعة عن مطلق ، ولم يكن عند جيش سعيد من المعرفة أو الإنضباط ما يعوض به عن فقدانه للحماسة والاندفاع ولم يكن النصر ليعني الكثير لديهم كما لا يفقدون في الإندحار شيئاً ذابال .

وقد لاحظت مرة أحد الجنود من حرس السلطان يتجنب الموت بدلاً من أن يطلبه تبعاً للرأى القائل أن من يموت في ساحة الحرب في محاربة الكفار يموت شهيداً وتكتب له السعادة في الجنات ، ولما بينت له رأيي أجاب « أن التمر حلو والحياة عزيزة » والحقيقة أن المسلمين فقدوا الحماس الذي أوجده الدين بينهم أول مرة .

وليس العرب هم ذلك الشعب المتوحش الذي يفر من الاوروبي أو يعامله بقسوة ووحشية فالاوروبي يستطيع الأن أن يقطع مغاور الصحرا وهو في زيه الوطني دون خوف أو خطر ، وقد تتجمهر حوله جموع من الأطفال والنساء الذين تثير فضولهم وعجبهم ملامحه وملابسه وقد يعبرون له عن إعجابهم بتفوقه وقوته بمناداته بـ « أبو مدفع » لانهم يعتقدون أن كل أوروبي هو مدفعي بالضرورة والقطرة ، ويتمتع الأوروبي بالحماية والاحترام في كل بلاد العرب إلاّ إذا أتي عملاً يخرج به عن هاتين الميزتين ، فالقضاة يأخذون بشهادته والتجار يأتمونونه ويثقون بكلمته التي يعتبرونها كأنها النقد ، وقد ساعد نجاح الحملة الفرنسية في مصر وانتصار رومانزوف وسيواروف واجتياز الانكليز لمضيق الدردنيل على زيادة إحترام الأوروبيين كما ساعدت الحملات التي جهزتها حكومة الهند على زيادة إحترام الانكليز إحتراماً مشوباً بالخوف .

ومن السهل محل أي أوربي أن يستمر في اداء مهمته في بلاد العرب سواءً كان طبيباً أم مهندساً أم عالماً طبيعياً بل ويستطيع الواحد منهم أن يحصل من أهل البلاد على كل العون والمساعدة ، ويحتل الطبيب مقام الصدارة بين هؤلاء نظراً لطبيعة الخدمات التي يؤديها .

والعربي مضياف بطبعه ولم يعد من النادر ، كما كان الأمر في السابق ، أن نشاهد العربي يؤاكل الاجانب من مسيحييني وغيرهم . وفي بلاد الترك كثيراً ما يشاهد المرء الاتراك يشربون النبيذ ويأكلون لحم الخنزير مخالفين بذلك احكام دينهم .

والعكيليون وهو نعت يطلق على الجنود العرب الذين يحرسون القوافل التي تعبر الصحراء ، ونهر دجلة أو نهر الفرات ، فهم اناس جديرون بأقصى الثقة للشهامة والفروسية الحقة التي يؤدون بها اعمالهم .

أما السعاة ألاتراك ، أو الططر أو التتر ، فيعاملون من يعهد إليهم بمرافقتهم كأخوة ، أما الجار قادارية ، وهم سواق البغال ، الذين ينقلون الركاب من مكان إلى آخر فهم في منتهى الخسة والنذالة ، وإن كانوا يضطرون أحياناً إلى التظاهر بالسلوك الحسن إذا كان المسافر شخصية مرموقة من التجار المسلمين أو الارمن .

ومن الافكار الشائعة أن معرفة اللغة العربية ضرورة قصوىٰ للسائح الأوربي في هذه الاقطار ، على أن تجربتي قد دلتني على أن معرفة اللغة التركية وحدها تغني عن غيرها لأن العكيلي والستاتار والجافدار كلهم يتكلمون التركية اضافة إلى لغاتهم الرجلية ، في حين أن الأرمن واليونان ، وهم كثرة في هذه البقاع ، لا يتكلمون غيرها .

وحتىٰ في بلاد العجم فإن اللغة التركية مقامها ويتكلمها التجار الاغنياء ، وهي مفهومة ايضاً في اذربيجان وجورجيا وافغانستان . وقد التقيت مع احد البلوش الذي كان يتكلمها بطلاقة متناهية . وحتىٰ مطلك ، القائد الوهابي ، والذي تحدثت معه اثناء إحدىٰ مفاوضاته مع سلطان مسقط ، كان يستطيع أن يعبر عن نفسه بهذه اللغة الواسعة الانتشار[1] .

---

(١) نشكّ في أن يستطيع العكيليون ، إلا أنفارا قلة منهم ، أو القائد مطلق التكلم بالتركية كما نشك في وجود من يتكلمها أو يفهها في بلاد عمان كافة في ذلك الزمان .

ويتكلم هذه اللغة أيضاً ربابنة السفن والمغاربة الذين يكوّنون العدد الأكبر من الملاحين في بلاد العرب .

وبالإختصار فما عدا أواسط بلاد الجزيزة العربية فإن لغة القسطنطينية هذه تكفي السافر في كل انحاء الشرق .

على أن لهجة التركمان وأهل اذربيجان تختلف مثلاً عن لهجة أهل ارمينيا أو رومانيا[1] ، ولكن هذا الاختلاف لا يكون على كل حال حائلا دون تفاهم أهل البلاد مع بعضهم البعض ، وإنما هو يقتصر على تحريف بعض الكلمات والمصطلحات .

والتاتار في تنقلهم بين بغداد والقسطنطينية ، كثيراً ما يحملون معهم رسائل الأهالي بدون أجر ، ويحتذى مثالهم في ذلك السعاة الفارسيون . أما السعاة العرب فيتقاضون أجوزا عن نقل البريد ، وقد علّمهم ذلك بعض الأروبيين في حلب .

والمسلمون ينقسمون الى أربع طوائف أصلية : هم السنة والشافعية والخوارج والمالكية والذين كانوا يكرهون بعضهم بعضاً بكل ما يحمله التعصب الديني من شدّة وتطرفّ ، ولكن الآراء تغيّرت الآن وكثيراً ما كنت أرى أفرادا من هذه الطوائف المختلفة مجتمعين معا في جامع واحد يؤدون صلاتهم معا للخالق الأعلى والأوحد للبشر والأشياء كافة .

ومع هذا فما يزال في كل طائفة بعض الأفراد المتعصبين ، وشأنهم شأن كل المتعصبين في كل الأديان في كل انحاء العالم - الذين يحملون كل الحقد والبغضاء لمن يخالفونهم رأيهم في الدين . لكن جميع أفراد هذه الطوائف هم مسلمون ، وهم ينعمون بالمسرة والغفران ما داموا يكررون الشهادتين وهي « اشهد أن لا آله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » .

وترجع أسباب الخلاف بين هذه الطوائف إلى الحروب الأهلية التي إستعر

(١) لعله يقصد الروملي وهي مقاطعة في الأناضول ، والا فلا علاقة لرومانيا بالأمر .

أوارها بين عمـر وعلي ، وأنتهت بـالقضاء عـلى الحكم الفاطمي[1] عـلى أن هذه الخلافات لا ينظر إليها في أكثر انحاء الشرق بعين الاهتمام الا في القسطنطينية ، فلو أن شافعيـاً تجّرأ على الجهر بأرائه لعرّض نفسـه الى خطر كبـير ، في حين أنني شاهدت أحدهم في بغداد يضرب سنيا في الشارع العام[1] .

اما بالنسبة إلى تفاصيل أحكام الـزواج ، فأنها تختلف من قـطر إلى آخر . ففي أيران يحق للرجل أن يتزوج ثم يطلق زوجته بعد أربـع وعشرين سـاعة ولا يحتاج الأمران إلا إلى مجـرد إعلان شفـوى أمام المـلا[2] . لكن روابط الزواج في بـلاد العرب أكـثر شدة ولا يمكن التخلص منهـا بهذه السهـولة . أمـا في تـركيـا فـالرجـال فيها يمتعـون أنفسهم بالاباحة الشـرعية التي تجيـز لهم تغيير زوجـاتهم حسب ما تمليه الحاجة أو الهوى .

ومع كل هذا ففي جميع أقطار الشرق ، وفي بلاد العرب خاصة ، أعـرف رجـالاً كثيرين يعيشـون سعداء مـع زوجة واحـدة منذ سنـين طـوال . وفي كـل الأقـطار التي تسود فيهـا الشريعـة المحمديـة فإن النسـاء يبعن في الأسـواق مثـل الأغنام[3] .

وقد حدث أن عربياً كان مديناً لي ببعض المال فـرجاني أن أمهله فتـرة من الـزمان حتى يستـطيع أن يحصـل لابنتـه ، وكـانت في غـايـة الجمـال عـلى المهـر المناسب . وكان قد دفع له فيها ١٠٠٠ قرش ولكن المبلغ كان قليـلاً في نظره ولم يكن يقبل فيها أقل من ١٥٠٠ قرش .

وقد أخبرني أحد التاتار الاتراك أن له زوجة في كل مدينة على الطريق التي يمر بها رحلاته . ومع أن الشرقي يعامل امرأته عـلى أنها أقل منـه شأنـاً فأنـه مع هذا يعاملها أمام الناس بكل إحترام .

---

(١) كـلام المؤلف هذا ومـا يليه سخف ينمّ عن الجهـل المطبق ويبعث عـلى السخريـة والاستهـزاء من قائله .

(٢) المقصود زواج المتعة .

(٣) تحريف .

ولا تهتم الحكومات الإستبدادية في آسيا بهذا القسم من الإدارة البوليسية الذي يسبب أشد الازعاج للمسافرين في شتى أنحاء أوروبا . فالناس هنا من كل دين وجنس يأتون ويذهبون دون أي معاكسة . وبالنسبة إلى تفتيش المسافرين فإن موظفي الجمارك في آسيا قد يتعلمون الكثير من الوقاحة من أندادهم في أوروبا . وعندما وصل إلى بغداد المسيو سومارببا ، سكرتير القنصلية الفرنسية أرسل الخازندار أحد موظفيه إلى دار السكرتيرية لتفتيش أمتعته ، وقد أكتفوا بفتح الصناديق وغلقها دون النظر إلى ما في باطنها من أشياء .

وتختلف المحاكم في بغداد عن دور القضاء في أوروبا بالنسبة إلى تحصيل المال كما يتضح ذلك من القصة التالية : كان الخواجه داود ، وهو أرمني من أصفهان ، قد جمع ثروته من مقاضاة الناس بالباطل ، ولم يتأخر القاضي أبداً من جعل الناس ضحاياه إذ كانوا يرون السلامة بالتضحية بجزء من أموالهم من أجل إنقاذ الكل . ولما أضطر هذا الشقي إلى مغادرة بغداد لامور تتعلق بتجارته لم يستطع القاضي إلا أن يرسل له بعض الهدايا التي أصبحت بدورها محلاً للمقاضاة ولما رفعت هذه القضايا للباشا فإنه كان مثل الأسكندر يفضل قطع العقدة على حلها[1] .

وتسكن بعض العناصر الاجنبية سواحل الخليج الفارسي ، وهم في الغالب من الصائبة واللواتيا والبانيان .

والصائبة قوم من النصارى من أتباع النبي يوحنا المعمدان وهم يميلون إلى أعتناق الاسلام بكثرة .

واللوتية قبيلة متجولة تشبه إلى حد ما قبائل الغجر في أوروبا . ويجدون باعداد كبيرة في مطرح وحواليها .

أما البانيان فهم أكثر هذه العناصر الأجنبية عدداً أو أكثرها وجوداً في كل

---

(١) القصة في نصها ودلالتها غير مفهومة مطلقا .

مكان تقريباً وإن كانـوا يكثرون بصفـة خاصـة في مسقط حيث منحهم السلطان امتيازات عدة وحيث كسبوا بحسن سلوكهم وبثرائهم تقدير الناس واحترامهم . وحتى في هذا القطر البعيد فهم متمسكون كل التمسك بعبـادة براهمـا ـ ولذلـك نجد مدينة مسقط تمتلىء بالابقار السارحة في شوارعها لا يمسسها أحد ويقـدم لها الهنود أحسن الغذاء وأوفره على أعتقاد أن الرب صعـد إلى السماء عـلى وأحد من هذه الحيوانات .

وهم يكنـون أحتراماً وافرا لكـل الحيوانـات فلا يمكن لهم بـأية حـال من الأحوال أكل اللحوم أو الاسماك وتعتبر إهانة كبيرة للواحد منهم إذا ما قتل المرء بحضوره حيواناً ما حتى ولو كان ذبابة . وقد أعتاد صيادو السمك أن يأتوا إليهم بالسمك الحي فيشترونه منهم بأعلى الاثمان ليعيدوا رميه في البحر . وقد دفعتهم هـذه التجـارب البـاهـظة الثمن إلى تجنب المـرور من الأسـواق حيث يقتضيهم الاخلاص لعقيدتهم الدينية مثل هذا الثمن الباهظ .

وقـد حدث أن رافقنى أحـد هؤلاء البانيـان في سفرة في الخليـج الفـارسي فكنت أراه عند بداية كل وجبة يرمى بالخبز إلى البحر أرضاء للالهة بإطعام بعض مخلوقاتها الضعيفة كما صرح لي هو بذلك .

ومـع أن البانياني يعيشون كليـة على الخضـروات والحليب والرز والـزبـدة فأنهم على وجـه العموم أقـوياء الأجسـام ومن الملاحظ أنهم لا يصـابون بـالجذام المنتشر بين سكان الجزيرة العربية .

والملاحظ أن البانيان إذا أحس بوخز الضمير عن عمل أتاه يبادر إلى تقديم الشعير والطعام إلى بقرته ويكرر نفس العملية إذا كا كان راغبا في نجاح عمل أو صفقة ما . والطعام في الحالة الأولى يعتبر كفارة عن الذنب وفي الثانية قرباناً .

والبانيان نشيـطون ، وقد أهلهم نشـاطهم إلى السيطرة عـلى كل الأعمـال التجارية في البلاد فهم أصحاب المصارف والأعمال هناك مثل اليهود في تركيا .

وليس هناك حادثة واحدة عن علاقة سيدة بانيانية بـرجل مسلم أو ميسحي

أو أن رجلاً من البانيان تزوج امرأة عربية ، وسبب ذلك أولاً الاختلافات الدينية وثانيا رغبتهم في الاحتفاظ بنقاوة عنصرهم .

ومن العادات الآسيوية المعروفة أن النساء يصبغن أيديهن وجفونهن بلون أزرق ، ولكني رأيت بعضهن في مسقط وقد صبغن كل أجسادهن بلون ميال للصفرة والأجانب لا يقدمون على إقامة علاقات مع هؤلاء النسوة لأن الدمار ولربما الموت هو النتيجة لمثل هذه العلاقة ، والواقع أن الشيء الملاحظ ، رغم غرابته وقد شاهدته أنا بنفسي ، أن الأوروبيين يفقدون بالتدريج قواهم الحيوية نتيجة مثل هذه العلاقات .

وعلى كل حال ، فمع الاعتدال والتحفظ ، فالبلد ليس بلدا غير صحي .

فقد كنت خلال أقامتى في آسيا ، أتمتع بصحة جيدة ، عدا اصابة واحدة قصيرة بالحمى . والشائع أن مسقط مكان غير صحي بسبب وفاة أثنين من القناصل الانكليز وثلاثه من الفرنسيين فيها خلال سنة واحده (١٨٠٩) ولكن هناك إشاعة تقول أن المسيو بيران مات مسموماً وقد دس العرب له السم بالطعام .

ويمكن على الدوام شراء العبيد السود من أسواق مسقط . وقد أذن لي السلطان أن أشتري لنفسي جارية أفريقية وكان اسمها طرنجة ومعناه البرتقاله وكان أحد خدمي يستطيع التفاهم معها بلغتها ، وقد ترجم لي عنها أنها من سكان غوندور في الحبشه ثم نقلت إلى بربرة ومنها إلى مكة . وقد علمني مترجمي بضع كلمات من لغتها فعلمت أن الأوروبي يدعى زنكو - وإن كنت لم أستطع معرفة المعنى الحقيقي لهذه الكلمة . وتعلمت أيضاً كلمة نيني جايا ؟ وهي تعني ما أسم هذا الشيء ؟ وقد استطعت بهذه الكلمة أن أصل مع هذه المخلوقة المسكينة إلى معاني كلمات كثيرة ، لا حاجة لذكرها هنا . على أن من الطرافة أن أذكر أن كلمة « جوندا » تعني عدة كلمات منها ذهب وجاء وسافر وركض وصعد وأن جوبي قد تعني كسر أو سقط أو أساء . ومن هذه الأمثلة يظهر أن

اللغة ضعيفة وأن معرفة ٢٠٠ كلمة منها تكفي المسافر لفهمها والتحدث بها ومن عادات العبيد إذا التقي أحد عبيد السلطان الزنوج بامرأة من بني جنسه فيحييها بقوله « جامبو » ومعناه الصديق أو الحبيب وقد يسألها عن صحتها بقوله « جامبو زينه » ؟ فتجيب ، زينه . . زينه على أن المسكينة طرنجة كانت تخشاني وتخاف أن آكلها يوما ما . ولذلك وفي سبيل تطمين مخاوفها فقد اهديتها إلى أحد العرب .

والناس في مسقط كما هو الشأن في غيرها من البلاد المتحضرة ، يعتقدون إعتقاداً عميقاً بالسحر والسحرة ويدعي السحرة العرب القدرة على مسخ البشر عنزاً والظاهر أن الاعتقاد بممارسة هذا العمل الشيطاني منتشره انتشارا واسعاً لدرجة أن من يريد أن يشتري له عنزا عليه أن يدقق كثيراً في ملامح ذلك الحيوان وأعضائه ليتأكد من خلوه من علاقات معينة فيه تكشف عما إذا كان حيواناً أصيلاً أم إنسانا ممسوخاً .

وقد أكد لي خادمي مرة أن عنزة ما كلمت سيدها بالعربية الفصحى ورجته ألا يذبحها وقد ذعر هذا الخادم مرة حين رآني أضرب أحد هؤلاء السحرة الذي بلغت به الوقاحة إلى حد القول أن ما يمنعه من ممارسة سحره ضدى هو خوفه من غضب السلطان عليه .

وقد أمسكت هذا النصاب من لحيته وجررته إلى أحد الملالي ليعترف أمامه بخداعه ونصبه . وقد وصل الحادث آذان السيد سعيد الذي أبدى أول الأمر غضبه تجاهي وهدد بعقابي ولكنه عاد فغير رأيه في هذا وذاك حين تغيرت الظروف إذ برهنت له بما لا يقبل النقاش أن القرآن يحرم أعمال الشعوذة والنصب هذه . وعلى كل حال فلو لم أعرف أن الحرب الدائرة رحاها آنذاك مع الوهابيين كانت تقتضى وجودي مع السلطان لعاد على الأمر بأسوء العواقب .

وقد ظل خادمي ، ولفترة طويلة ، يتوقع أن يراني أحد الأيام وقد نبتت القرون في جبهتي ، ومن العبث أن نعدد كل أنواع الخرافات التي يعتقدها

العرب وأسبابها فهي تتوقف في الدرجة الأولى على موقف الذهن من الأحداث وقدرته على تحليلها ومعرفة بواعثها .

ويضع المسلم فوق ذراعيه سوارا من الفضة ، أو من معدن آخر أرخص فيه ورقة تحتوي على بعض الآيات القرآنية المفروض أنها تحمي حاملها من الشرور .

وقد يستعيض الترك عن آيات القرآن بكلمات يخطها الدراويش المشهود لهم بالقداسة والكرامة . ولا شك أن القارىء الحصيف يستطيع أن يتذكر بسهولة أن مثل هذه الحال قد سادت في أوروبا لزمن طويل ، ولربما وجدت بعض آثارها بين بعض الجهلة في هذا القسم المتحضر من العالم ، ولذلك فلا يجب أن يسرع القارىء بالحكم على أهل الشرق الذين حرمتهم ظروفهم من فرص التعليم والثقافة .

وقد ذكر المستر نيبهور أن العرب يمضغون نوعا من أنواع الجوز وما تزال هذه العادة سارية حتى اليوم . إذ يضعون هذا الجوز مع شيء قليل من الحشيش وشيء من الليمون مع بعضه ويلفونه بورقة من نبات يدعي التامبول بقدر حجم كف الطفل ويقال أن مفعولها مفيد جداً للصحة .

ويتكون سلاح العربي من رمح طويل وسيف ودرع يعمل من جلود الحيتان أو الاسماك الكبيرة الأخرى وهو يعلق مع السيف في الحزام . وهو جد قوي بحيث لا يخترقه رصاص البنادق .

والأسلحة النارية تتكون في الغالب من البنادق، وكان خمسماية منها في جيش مطلق البالغ عدده خمسة الآف نفر، وقد أشترى السيد سعيد مؤخراً من بومباي عددا من هذه الاسلحة سلح جميع فرسانه بها . وقد أرسل له المسيو دي كين من موروشيوس مدفعين جميلين وبعض العتاد . لذلك فإن جيش مسقط قد جرى تسليحه على النمط الأوروبي .

وفي أيام السلم يحمل السيد سعيد وقائد الجيش دروعا غالية مزخرفة جميلة ولكنهم في الحرب يستبدلون بها دورعا أرخص ثمنا وأكثر نفعاً .

والأتراك والعرب والفرس ماهرون في استعمال المدفعية وقد تعلموا فنونها من الأوروبيين ولكنهم لا يستعملونها إلا ضد بعضهم البعض ـ فعندما تقدمت صفوف الجيش الروس إليهم بالحراب فإن المدفعيين تركوا أماكنهم . ومن أحسن الطرق التي تواجه بها جيشاً شرقياً ، كما أخبرني أحد القواد الروس ، هو أن تهاجم معسكرهم بالمدافع من أثقل عيار ، وبعد أن تكون الضجة قد بلغت أعلاها يبدأ هجوم المشاة على الموقع .

فما دام الأعداء بعيدين عنهم . فالعرب يدافعون بضراوة ، لكن ما أن يرونهم قد تقدموا إليهم وأشتبكوا معهم حتى تسود بينهم الفوضى والإرتباك ويحاول كل منهم أن يولي الأدبار وينجو بنفسه .

وعندما بدأت مقابلتي مع السيد سعيد كان أول ما طلبته منه أن يزودني بحصان قوي كوسيلة للخلاص إذا ما تركني جنده . ولم يغضب لمثل هذا الطلب الذي يقدر هو مقدار الحاجة إليه .

الفصل السادس

ملاحظات عن العرب ، وبعض القصص التي تصور عادتهم وأفكارهم . قصة مغادرة المؤلف مسقط

لو لم أكن أمرء شديد الالتزام بمبادئي وجاهدا لصنع الخير في ما يصدف لي من ظروف ، لاعتبرت أقامتي في بلاد العرب من أشد فترات حياتي نكدا وتعاسة إذ كنت قد عرضت نفسي للبؤس والضنك دون ما مبرر . فهؤلاء الناس مثلا ، يطلقون نعت « الكافر » على كل من لا يؤمن بمحمد ولا يتبع أحكام القرآن .

ومع أني كنت ـ بطبيعة الحال ـ أعتبر من هذا الصنف إلا أنني رغم ذلك كنت موضع العطف والاحترام . ففي ذات يوم أراد أحد معارفي أن يمدحني فقال « منصور أنت كافر ولكنك رجل خير وشجاع وشريف » . وقد يحزن بعض الناس كثيراً إذا ما نعتوا بنعوت تستعمل في الغالب في وصف الحيوانات والتي تعتبر إهانة كبرى ولكني لم أغضب وضحكت لهذه الألفاظ التي حياني بها هذا الرجل[1] .

وفي يوم آخر جاء إلى داري أحد عبيد السلطان ومعه حصانان مريضان من خيول السلطان وطلب معالجتهما وقد شعرت بإهانة كبيرة بأن اعامل أنا « الطبيب الملكي » كما لو كنت طبيباً بيطرياً . ولهذا فقد طردت الرجل وخيله وتوجهت في التو إلى القصر لاشكو للسلطان ما لحقني من مهانة . لكن السيد

---

(١) لا ندري كيف تكون هذه النعوت الجيدة صفات للحيوانات!!

سعيد قال لي « منصور ، لا تغضب إذا ما أرسلت لك خيلي لمعالجتها . ولكن لِمَ لم تطع أمري وتحاول عالج هذين الحصانين » .

وإذ لاحظت مدى الجدية الكاملة في كلام السلطان فقد أجبته ، بألفاظ مهذبة أن مهنتي التي أزاولها والتي جائت بي إلى مسقط هي الطب وليست البيطرة ـ وقد تمسك الأمير بالصبر والعقل فاجابني « عندما يقع أحد من جنودي أو حتى من عبيدي فريسة المرض فأنني أترك لكل أحد أن يعالجه . ولكن حين يمرض عندي حصان أصيل فأنني لن أرسله إلا لك فقط باعتبارك أمهر طبيب ، لانني لا أستطيع أن أعوض عن حصاني هذا إلّا بالآف الريالات ، في حين أن الفرد من رعيتي لا يكلفني شيئاً ، وبالامكان شراء العبد بخمس وعشرين ريالا فقط » .

وهنا أجبته « قد يكون المسقطي لا يساوي إلا خمسا وعشرين ريالا أو لا شيء لكن الرجال الذين أتكلم معهم وأعتبرهم أندادي هم أغلى من كل حيوانات الحمل » . وهنا أنفجر الأمير في الضحك حيث شاركه فيه الحاضرون وبذلك أعتبر الموضوع منتهيا .

وفي يوم آخر بعد هذا الحادث تمتعت بالانشراح على حساب العرب ، فقد ذهبت لفحص ماء أحد الآبار ومعي « الهايدرومتر » وسرعان ما أحاط بي جمع غفير من الناس يسألون عمّا أفعل ويطلقون ضحكات عالية ، وهم يتصايحون بأن الأوربيين مجانين ولا شك . فأجبتهم بأنهم لن يعتبروني مجنوناً إذا علموا أنني أبحث عن كنز أخبر أحد المؤلفين البرتغاليين أنه رمى به في هذا البئر، وأن القصد من بحثي الآن هو العثور على هذا الكنز ، فإذا تكلل جهدي بالنجاح فسأكون المالك الشرعي الوحيد لهذا الكنز الذي خلفه زميلي الأوروبي منذ عهد بعيد .

وما أن سمع العرب كلمة الكنز ، والتي لها عندهم دوما أثر سحري ، حتى أسرعوا برمي أنفسهم إلى البئر الواحد تلو الآخر حتى غص بهم البئر ورجعت أنا إلى بيتي أغص بالضحك .

وفي مناسبة أخرى ، وبينها كنت أسير في محاذاة شاطىء البحر رأيت عـددا كبيراً من الناس متجمعين حول جرة مملوءة بالبارود ، والتي كانت قـد أخذت من مخازن السلطان للتوزيع ، وقد أخبرتهم أن هذا المكان الذي يمرّ به في كـل لحظة أحد البلوش حاملاً أرجيلته[1] ليس بالمكان المناسب لوضع هذه المـادة الشديـدة الألتهاب .

وقد ضحكوا من وجـلي ، وغير المـألوف لـديهم عند الفـرنج ، ولهـذا فقد أجتزت المكان ، ومـا أن أبتعدت عنـه بمقدار خمسين خطوة إلا وسمعت صـوت أنفجـار شديـد ولما التفت إلى الـوراء رأيت خمسة من العـرب وقـد علقت النـار بأثوابهم وهم يتصـايحون في طلب النجـدة . وقد أومـأت لهم بأن يلقـوا أنفسهم بـالبحر ، وقـد أخذوا بقـولي وأنـطفـأت النـار . ولكنني حتى فحصتهم بعـدئـذ صعقت من الفـزع للحالـة المفزعـة التي كانـوا عليهـا ، فقـد أحتـرقت جلودهم بكاملها وتحول لونها من الاسمر إلى الأبيض وقد مات أثنان منهم ممن كانت النار قد التهمت صدريهما رغم الجهود التي بـذلتها لانقـاذ حياتيهـما بوضـع الكمادات المبلولة بدهن الزيت وبعض المركبات القاعدية السريعة التبخر .

وبعد هذا الحـادث ، وكما هـو المتوقـع فقد بـدا العرب يتـداولون البـارود بمنتهى العناية والحذر .

ويـطـلق البدو في داخـل عمان شعـور رؤوسهم ويرخـونها إلى اكتـافهم ، يشبهـون في ذلـك الشيء مـا يـطلق عليـه في إيـطاليـا اسم La chramma Di Bermica وكنت دائماً استطيع أن أميز اطفال الصحراء من هـذه العادة الشـائعة

---

(١) الأرجيلة أو النـارجيلة نوع من أدوات التـدخين ، أختـرعه الفـرس ، ويتكون من انبـوب طويـل يلحق به أناء مدور الشكل يملأ بالماء المعطر الذي يعمل على تبريد الدخـان واعطائـه رائحة زكيـة حين يمر به . (المؤلف) .
وقـد أخذ أسمـه من النارجيـل ، أي شجر جـوز الهند ، الـذي كان ثمـرة يستعمل بـدل الأنـاء الزجاجي ، ولهذا يطلق عليها المصريون أسم « جوزة » المترجم .

بينهم كما كنت في مرات كثيرة استطيع تمييزهم من فضولهم الشديدا لالقاء نظرة منهم على أي شخص أوروبي ، لاعتقادهم أن الأوروبيين جنس من الحيوان مختلف عنهم . ولكنهم عندما ما يرون الأوروبي يشبههم في كل شيء - إلا لون البشرة - يبدأون يسألون اسئلة غريبة تتعلق بأوروبا وعما إن كان فيها جبال وأشجار وخيول وأبقار وكيف يعامل الأوروبي البدوي إذا ما زاره في بلده . وكنت دائماً أجيب على أسئلتهم بأننا ننظر إلى جميع البشر على أنهم أخوان ونعاملهم على هذا الأساس .

وكان العرب ينهالون علي بأسئلة كثيرة عن « حجر الفلاسفة » وكانوا يعتقدون تمام الاعتقاد بأن الأوروبيين يعرفون السر الثمين الذي يحول الحديد والنحاس إلى ذهب .

وعبثاً كنت أحاول أن أنفي عن أذهانهم هذا الوهم ، شارحاً لهم لو أن لهذا الأمر نصيباً من الصحة لما وجدنا الأوروبيين يشتغلون ملاحين وجنوداً ، لأن وجود هذا السحر الثمين لديهم يعطيهم من المال ما يسد كل رغبة وطمع . ولكن حججي ومنطقي لم يجدا سبيلاً إلى إقناعهم وظلوا فرائس سهلة لجماعات من النصابين الإيرانيين والأرمن وحتى الأوروبيين في بعض الأحيان الذين يدعون القدرة على تحقيق هذا الحلم الثمين ، والذي يبتزون من ضحاياهم الطائعين أجزل الأموال . ومن المعتاد أن يجلب هؤلاء النصابون معهم أنابيب من النحاس ومثلها من الذهب ثم يدعون أنهم يحولون النحاس إلى ذهب بتذويبه في إناء مغلق كبير يحوي الأكسير المقدس وبسرعة كبيرة ومهارة بارعة يخرجون أنابيب الذهب من جيوبهم أمام دهشة تابعيهم وإعجابهم وبالتالي يقومون ببيع كميات كبيرة من هذا السائل المدهش إلى هؤلاء المساكين المغفلين .

وكنت كثيراً ما اطلب من السلطان بعض الطلبات التي كان يجيبها بمنتهى الرقة والأدب . وكنت أول الأمر ارتاح للطريقة التي يجيب بها على طلباتي بقوله « إن شاء الله منصور » والتي لو ترجمت إلى الإيطالية لكانت تعني الرفض . وإذ

تكـرر سماعي لهـذا الجواب فقـد استفسرت من أحـد الملالي عن أسبـاب كثـرة استعمال الفرس والترك والعرب لهذا التعبير في الجواب عن الطلبات ، فأجـابني أن ذلـك معناه إن الله سيجيب طلبـك إذا أراد ذلك ويستعمـل المسلمـون هـذا التعبير تشبهاً بالنبي محمد الـذي خرج يـوماً مـا بجيشه فنـزل منزلاً بعيـداً خطراً فكاد أن يفني هو وجيشه من شدة الجوع . وكان أصحـابه يلحـون بفارغ الصبـر عليه يسألونه عن وقت توزيع المؤون فكـان في كل مـرة يرد عليهم «غـداً» ولكن الغد يجيء وما من مؤون قد وصل . وكان أصحابه كلما كرروا هذا السؤال تلقوا نفس الجواب ودام ذلك أيـاماً متعـددة حتى كان يـوم ضجر فيـه النبي من الحاح عسكره فأجابهم إن شاء الله غداً ، وكانت نتيجة هذا الخضوع المتواضع لأمر الله ورود المؤون حقاً في اليوم التالي . ولما جادله أصحـابه بـأن الأحداث قـد كذبت توقعاته أجابهم اسمعـوا يا أولادي ، إنني كنت أعـرف أن الله لن يستجيب لكم من أول مرة لذلك كنت أقول لكم غداً فقط . ولكنني حين اضفت إليها إن شاء الله فـإن قافلة المؤون وصلت . ومـا هـذا إلا لاريكم بـطريقـة لا تنسى وجـوب إخضـاع كل أعمـالكم إلى مشيئة الله . وقـد تعلم أصحابـه هـذا الـدرس خـير تعلم .

والعرب نبلاء بوجه عام وتسيطر على عقولهم في هذا الأمر فلسفات خاصة فالمعاملة الـطيبة التي لاقتهـا المسز تـايلور اثناء أسـرها من قبـل القواسم في رأس الخيمة ما هي إلا مصداق لهذه المزية وهناك قصة أخـرى أرويها الآن تؤكـد فيهم هذا الطبع الشريـف .

في اثنـاء حصار شنـاص أصيب أحد عبيـد السلطان بطعنـة رمـح نجـلاء اختـرقت ظهره بـالقـرب من العمـود الفقـري وخـرجت من الجـانب الأيمن من بـطنه ، وكـان مدخـل الرمـح يبلغ الثلاث أصـابع عـرضاً ويبلغ مخـرجة أصبعـاً واحداً .

وقد استدعيت لمعالجته بـأمر مبـاشر من السيد سعيـد ، وتجاه نـزيف الدم

الغـزير فقـد تصورت أن الشـريان الأبهـر أو أي شريـان آخر في مثـل أهميته قـد انقطع ولذلك فإن أية محاولة لانقاذ المريض مكتوب عليهـا بالفشـل . وعلى كـل حال وإظهاراً لـرغبتي في إطاعـة أوامر السلطان فقـد شددت الجـرح بقطعـة من القماش لمنع النزيف وشجعت المصاب بكلمات طيبة ووعدته بتحسن الحال .

وقد أحس بلطف مشاعري نحوه فـأمسك بيـدي وضغط عليها وقـال « لا تتعب نفسك معي يا صديقي ودعني أموت بـسـلام فالحياة هبة من الله والـرجل العاقل إنما يطلب طول الحياة ليمضيها في خدمة سيده » . وكانت اللهجة الهـادئة التي قيلت بهـا هـذه الكلمـات قـد اقنعتني أن هـذا العبـد المملوك « فقـد كـان كذلك » يرى الموت أمـراً حقاً ، لا يـرعب إلا الأغنياء والأشقيـاء ، فالأولـون لما سوف يخسرونه في الدنيـا ، والآخرون لمـا يخشونـه في العالم الآخـر من عذاب ، ولعل راحة البال هذه كانت السبب الرئيسي في شفائه بعـدئذ . وفي اليـوم الثاني اعـطيته بعض الملح ، ووضعت عجينـة حارة عـلى الجـرح في خـاصـرتـه اليمنى والذي بدأ الالتهـاب يدب فيـه وهو ليس بـالأمر المستغـرب ، إذ يجب أن تكون أمعائه قد تقطعت الآن إلا أن يكون هذا الرجل العربي من طينة أخرى غير طينة الرجال العاديين .

وعلى كل ، واختصـاراً للقول فـإن الرجـل ـ لعجبي الشديـد شفي . وقد نسب شفاؤه إلى علمي ومهارتي فزاد ذلك من قيمتي عند السيد سعيد .

وعندما كان الرجل رهن العلاج زارني على ظهر سفينتي المستر «هـ» . وهو رجل في مركز أقوى من مركزي بكثير ، وكان قد عمل وسعه على أن يـذيع بـين العرب بأنني رجل نصاب وأن مزاولتي لمهنة الطب تتسم بالجهـل الفاضـح . وقد وجه جهوده خاصة نحو إثارة البلوش ضدي وقد ساعده اتقانـه للغة الفـارسية في هذا الخصوص كـل المساعـدة . وعلى كـل فلم يلق احد بـالاً لقصصه ولم ينجم عن حقده أي أذىً . وإذ لم تنجح خطـة المستر هـ فقد ذهب بنفسه إلى السلطان وأخبره بأنني جاسوس بونابرت عليه ، وأنني ارسلت إلى مسقط خصيصـاً لتسقط

اخباره وخططه والأخبار عنها .

وقد أكد له السيد سعيد ، الذي لم يكن يقدم على عمل إلا بعد التروي والإمعان أن الموت سيكون نصيبي المحتم إذا ما ثبتت علي هذه الاتهامات . ثم اتخذ وسائله الخاصة للكشف عن حقيقة الأمر الذي كتمه ولم يتكلم فيه إلا بعد أن فارقنا الأسطول الانكليزي ورجعنا إلى صحار .

فلما نزل إلى البر ، أرسل إلي في الحال أربعة من جنوده البلوش يستدعوني للحضور في الحضرة السلطانية . وقد ارتبت في وجود شيء ما يحاك ضدي ولذلك رفضت أول الأمر الذهاب ولكنني انصعت إليه خائفاً مذعوراً حين استل الجنود سيوفهم وهددوني وهنا أدركت مدى خطورة الوضع فجمعت كل شجاعتي وشحذت قواي الذهنية لاستطيع تفنيد هذه الاتهامات . ومن حسن حظي فإن العربي الجريح الذي رويت قصته من قبل ، قد بدأ يتماثل للشفاء وصار باستطاعته المشي ، لذلك رجوته أن يصحبني في زورقي . وعندما وصلنا البر قادنا الجنود إلى حضرة السلطان الذي بدا لي وكأنه قد نظر إلى أول ظهوري أمامه نظرة عطف عطف ونظرة رضى إلى الشاهد الصامت الواقف إلى جنبي - ثم وجه إليّ كلامه بلهجة جادة فقال : « منصور اخبرني المستر هـ ، خلال وجود الأسطول في شناص أنك لست طبيباً وإنما كنت جاسوساً لنابليون بونابرت وأرسلك إلى هنا لتخون سيدك والمحسن إليك ، ولذلك فقد قررت إعدامك في الحال ، وإذا كنت في شك من قولي هذا فاسأل هؤلاء الشيوخ من حوالينا » .

وبدون أية علامة من علامات الوجل ، طلبت من الأمير أن يسمع على الأقل دفاعي ليقرر ما يشاء الله وما عليه ضميره العادل . ثم بدأت أحاول تنفيد الاتهام بالكلمات الآتية :

إن كوني طبيباً أو غير طبيب ، فإن الشاهد عليه هو شفاء عبدك هذا ، أما كوني جاسوساً أم لا ، فأنت يا سيدي الأمير خير شاهد لي . فما هي الأسرار الممكن أن اكشفها في حين كل نواياك وأعمالك مكشوفة ومعلومة للناس كافة

وفي حين أنك لا تريد إخفاء سياستك ؟ إنه لتعب غير مجد أن أجيء إلى مسقط لمحاولة رسم قلاعك في حين أنها كلها قد وصفت بالدقة والتمام في كتب البرتغال القديمة . أما بشأن إثارة رعيتك للثورة عليك ، فتصور أي حظ ضئيل لكافر مثلي أن يقنع مسلماً . أيها الأمير ، أرجو أن ترمي بعيداً شكوكك بعاهل كبير مثل نابليون الذي وإن تكن قوته عظيمة إلا أنه بعيد عنا كل البعد ، واحذر فقط جيرانك الأقربين ، ولا تخشى أجنبياً خدمك دوماً بإخلاص وولاء ولطالما عرض نفسه للموت في خدمتك .

إن الله شاهد على براءتي وأدعوه تعالى أن ينتقم لي من خصمي الذي يتهمني ولكن الله إذ جعلني وديعة بين يديك فإني اتقبل بكل خضوع ما تصدره من حكم ولكنني أريدك فقط أن تذكر أن خصمي هو أقوى مني بكثير وكان بإمكانه أن يقتلني هو نفسه لو لم يشأ أن يجعلك الواسطة لتنفيذ آثامه ويحملك وزرها أمام الله تعالى عالماً ، أن لعنة الله تقع دوماً وأبداً على الفاعل المباشر ومطمئنا بالتالي إلى القضاء علي . وهكذا فإن جرأة الرجل لا تقل في شيء عن خبثه . وإنني اتحدى العالم كله ليشهد ما إذا كنت منذ قدومي مسقط قد قمت بعمل واحد لا يليق بالرجل الشريف .

أيها الأمير ، لقد رأيت اخلاصي وبذلي في خدمتك ، وأنني اقسم بكل ما مقدس بأنك سوف ترى الكثير منها في أي موقف خطر تتعرض له . وإذا كان قد كتب لدمي أن يراق ، فلا تدع يداك هذه التي طالما قبلتها بأعمق الولاء والإخلاص أن تفعل ذلك ، وإنما دعني اسقط صريعاً في الدفاع عن حقوق وشرف سيدي النبيل المحترم .

وفي الختام فإنني اعتذر لضعف لغتي العربية وعدم قدرتي على التعبير وأرجو أن أكون رغم ذلك قد استطعت التعبير عما أريد . . .

وما أشد فرحي حين سمعته يقول لاحد مرافقيه حال انتهائي من كلامي « منصور يحكي زين ». وهذه الجملة مع الابتسامة التي ارتسمت على محياه أكدتا

لي استمرار عطفه . وفي الحقيقة أن اتهامات خصمي لفها النسيان منذ تلك اللحظة .

وقد أذن لي بالعودة إلى سفينتي واتخاذ ما أراه ضد المستر هـ . الذي كان من حسن حظي أن سمعت بعد ذلك بشهور أنه في بوشهر . وقد توجهت إليه في الحال وبيدي مسدسي لا لانتقم منه على خسته كما يستحق ذلك بل لأنال الراحة والرضا الذي من حق كل رجل كريم أن يطلبها من الآخرين . وقد كان في كوت ، مقر القنصل البريطاني وهي على بعد ميل من المدينة ، فتوجهت إلى هناك وعند دخولي الدار وجدت فيها المستر بابينكون والكابتن هاربيت والكابتن سميث قائد الطراد البحري مركري . وإذ أدركوا من ملامحي حالة هياجي وعرفوا الهدف من زيارتي سألوني عن قصتي مع المستر هـ ، فلما شرحت بالتفصيل كل ما دار بيني وبينه والأسباب التي من أجلها قررت أن أطلب إليه أن يدفع جزاء فعاله ، أكد لي الجميع بأن تصرفي هذا هو في منتهى اللياقة لو صحت أقوالي وقد دعاني الكابتن هاربيت إلى ظهر سفينته وصحبني في اليوم الثاني معه إلى بيت المستر هـ. الذي كان يتوقع زيارتنا لذلك فما إن دخلنا الغرفة حتى بدأ بالاعتذار عما بدر منه وقال مؤكداً لي أنه في هذه الاتهامات التي وجهها إلي في مسقط لم يكن إلا أداة بيد من هو أعلى منه وهو الكولونيل سي ، الذي لا يستطيع لأوامره عصياناً .

وقد اعتبرت هذا الاعتذار بوجود شخص ثالث كافياً وفي الحال حييت تحية الأصدقاء خصمي القديم الذي اضطر عن غير إرادته إلى الأضرار بي .

لقد رويت هذه القصة الطويلة بكاملها أولًا للدلالة على شهامة السلطان وثانياً لأبرىء نفسي من الاتهام ، الذي قد تسبب علنيته بعض الأضرار بي ، وللتحقق من صحة روايتي هذه فإنني استشهد بالمستر بانيكتون ، وهو رجل كريم ذو خلق عال وقد عينه السير . أي . ملكولم مقيماً في بوشهر وقد شهد بنفسه كل أحداث هذه القصة .

وطبع الكرم في العربي لا يقتصر على الإنسان فقط بل ويمتد ايضاً إلى الحيوانات فعند الدخول إلى خيمة العربي يرى المرء الخيل والجمال والبقر والثيران مضجعة بكل مظاهر الراحة والصداقة إلى جنب سيدها وأطفاله ، ولا تبلغ القسوة بالعربي إلى حد ضرب حصانه بل يؤمن خضوعه وسكونه بمظاهر الرقة والعطف ، والاهتمام الذي يبذله العربي للحفاظ على نقاوة نسب هذه الحيوانات معروفة للكافة وأشهر من أن يذكر نظراً لغلاء قيمتها فإن العناية شديدة جداً بأطعامها ونظافتها وقد يوضع على البعض منها في أثناء الشتاء قطع من القماش الثمين لتحميها من برودة الطقس .

ولكن اللجام يستعمل في الغالب بطريقة مغايرة لطريقتنا ، إذ أنها أقوى منها بكثير بحيث يستطيع الراكب إيقاف الحصان فجأة ومرة واحدة وهو منطلق بأقصى سرعته وفي هذه الحالة فإن العرب لا يستمعون لنداء الانسانية إذ كثيراً ما تؤخذ خيولهم إلى الخلف من شدة الجر حتى يمتلأ فم الحصان بالدم .

ويقلد الفرس سكان الجزيرة العربية في العناية بخيلهم ، ولكن لأن الجو في إيران اقسى من في بلاد العرب فإن الحصان يحتاج إلى طقمين أو ثلاثة من الأغطية وبالتالي يضطر الشخص منهم إلى أن يصطحب معه ، بالإضافة إلى حصانه الذي يركبه حصاناً آخر يحمل امتعة وأغطية كافية للثلاثة .

وقد قلت قبلاً أنني استطيع أن أتكلم العربية بحيث يفهم السامع ما أريد التعبير عنه ، لكن اللهجات العربية متعددة ومتباينة في الأقاليم المختلفة مما يجعل تعلمها أمراً صعباً . فبالكاد يستطيع المصري والمسقطي أن يتفاهما ، ولهجة البدوي ولفظه خشنان وغير واضحين .

وقد اتعب المستر نيبهور نفسه في الإشارة إلى أوجه الشبه بين بعض الكلمات التي ما زالت موجودة في التداول وقد لاحظت أن لفظ بعض المصطلحات قد تغير خلال المدة القصيرة التي مضت منذ زيارته لهذا القسم من

العالم . وكمثل على ذلك فإنه يكتب « عتبه » من عشائر العرب ، في حين اسمها هذه الأيام هو العتوب » .

ومع هذا فمن المؤكد ان اللغة العربية لم تتغير تغيراً كبيراً كما حدث للغات الأوروبية وهذا يظهر بوضوح حين يمتحن المرء أساليب التعبيرات السائدة بين الشعوب نصف المتحضرة والشعوب المتحضرة فإن تدفق الآراء الجديدة أكثر بكثير وأسرع في الشعوب الأخيرة منه في الشعوب الأولى . وهذا يقتضي كلمات وتعابير ومصطلحات جديدة إلى جانب ما هو موجود منها من قبل، للتعبير بها عما يستجد من الآراء والمخترعات .

والطقس في هذه البلاد الواسعة مفيد بصورة خاصة للمصابين بالطاعون لذا فإن المصاب بهذا المرض حتى إن كانت بقايا الطفح منتشرة بجسمه فإنه يشفى تماماً عند وصوله إلى جدة بدون أي ألم . ودرجة الحرارة اكثر حرارة وجفافاً هنا منها في أكثر بقاع أفريقيا أو جنوبي آسيا فدرجة الحرارةفي مقياس الفهرنهايت خلال شهر كانون الأول تصل في السويس إلى درجة ٨٣ وفي جامبو ٨٤ وفي جده في شهر كانون الثاني إلى ٨٤ وفي مكة في شهر مارتس ٨٤ وفي الشتاء رأيت درجة الحرارة مرة في الحج بحدود ٥٢ أما إلى أي حد ترتفع في الصيف فهذا مالا أعرفه . وفي بربره على الساحل الحبشي تكثر الرطوبة وتصل الرطوبة في مسقط إلى درجة الـ ١٠٠ ولكن ساحل البحر ينعم بنسائم دائمة تأتيه من المحيط والطقس في بغداد أو البصرة أكثر اعتدالاً .

وتعج بلاد العرب بجحافل غفيرة لاعد لها من الجراد والبعوض والحشرات الأخرى في حين يمتلىء البحر بمخلوقات هلامية تطفر على سطح الماء فإذا مسكها المرء سببت له حكة مؤلمة . وما ترسو سفينة على الشاطىء حتى تغزوها الصراصير التي تنتقل إليها عن طريق العفش وبحيث تمتلىء خزانات الماء فيها بجيوش من النمل .

وعلى الشاطىء هناك اجناس غريبة اخرى من هذه المخلوقات قد ثبت لي

صعوبة حفظ ملابسي وجسمي من هجماتها وعضاتها ، كما وجدت أنها تنفر من البقاء في بعض الصناديق المعمولة في الصين من خشب الصندل .

وكانت البراغيث من الحشرات المميتة التي تكاد تزهق الروح في مسقط وهي تموت بأعداد كبيرة حين تهب الرياح من الداخل بسبب الحرارة وقد لاحظت أن هذه الحشرات تتوقف عن أعمالها خلال اشهر الصيف .

وفي جميع رحلاتي في بلاد الشرق لم أجد من الضروري أبداً أن أقدم هدايا لأحد . لأنني شخصياً لم أكن ذا مقام يؤهلني لاستلام مثلها ـ وعلى كل فإذا أراد السائح أن يحمل معه هدية تجد احسن القبول لدى العرب والترك والفرس فلن يجد اصلح لهذا الغرض من قطعة من العنبر الخام بسبب مفعول النشوة التي تحتوي عليه . وقد اعتدت أن أحمل معي دوماً حبوباً من هذه المادة مخلوطة مع الأفيون ، وكان سوق هذه البضاعة على أحسنه من الرواج في كل مكان ذهبت إليه .

إن ميل الشرقيين إلى الأساطير والخرفات أمر معروف لكل من له معرفة بالشرق والشرقيين وعلى علمي فإن القصة التالية لم تذكر في أي كتاب أوروبي وقد رواها لي احد الملالي في مسقط وهي تعطي فكرة عن نوع الحكايات التي تروى في المجتمعات الإسلامية : بينما كان أحد العرب سائراً في طريقه رأى ثعباناً يسقط في نار مشتعلة على جانب الطريق ، ولما رأى الرجل أن الثعبان أوشك أن يحترق ويموت أخذته الشفقة به فأخرجه من النار وأنقذه من الموت . ولكن ما أن أحسّ الثعبان بنجاته من النار حتى تقدم نحو الرجل والتف حول جسمه وأخرج نابه يريد أن يلدغ منقذه ، وقد بدأ الرجل يعنف الثعبان لجحوده ونكران الجميل فأجابه الثعبان « إنك منقذي ولكنك أنت من بني آدم وأنا ثعبان ومن واجبي أن الدغك حتى تموت .

وقد دهش الرجل لمنطق الثعبان ولم يدرِ ما يفعل ، فاقترح على الثعبان أن يحتكما إلى أول حيوان يلتقيانه ، فرضي الثعبان بذلك وسارا أياماً في الحقول حتى

التقيا بثور عجوز ، وقصا عليه القصة فلما سمعها التفت إلى الثعبان وقال له أيها الصديق إسرع في القضاء على هذا الطاغية الآن ، فهو الذي جعلنا نجر المحراث في شبابنا أو نرفع الماء من الآبار بواسطة آلة يركبها في أعناقنا ليسقي أرضه ثم يلقي بنا في زريبة وسخة ضيقة ولا يعطينا إلا أسوأ التبن حتى إذا أخذ منا الضعف مأخذه عاد فذبحنا شر ذبحة ليعتاش هو وأطفاله من لحومنا » .

وإذ سمع الرجل البائس هذا الكلام تملكته الحيرة ولم يدرِ كيف يدافع عن نفسه إلا أن تفكيره هداه إلى القول أن هذا الثور قد يكون لقي معاملة سيئة واقترح أن يحتكما من جديد إلى حصان كان يرعى بالقرب منهما . وذهبا إلى الحصان فقصّا عليه القصة ولكن الحصان لم يكن أقل من الثور تحيزاً ضد بني الإنسان ، فطلب من الثعبان أن يقضي في الحال على عدوهما المشترك وأكد له أن ما يتظاهر به من الرقة إنما يخفي تحته كل أنواع القسوة وضرب لذلك مثلاً عن المعاملة القاسية التي لقاها هو بالذات في صباه فقصّ للثعبان كيف أن سيده أسرجه بجميل السروج وكيف علّمه أصول الجري والنط وكيف أوقف عليه سائساً خاصاً يعنى به وقدم له كل ما يلزم لمأكله ومشربه وتسليته ولكنه ما أن بلغ أشده واشتدت عضلاته حتى حرمه من كل هذه الإمتيازات ، فحكم عليه بالعمل الشاق في إحدى الطواحين وكان يضرب أعنف الضرب إن تأخر أو توانى عن العمل قليلاً . وهنا اعتقد الثعبان أنه كان على تمام الصواب في محاولة القضاء على منقذه واندفع نحوه يريد أن يلدغه اللدغة المميتة ولكن الرجل سأله أن يحتكما إلى ثعلب كان ماراً بالصدفة بالقرب منهما ، وقد أومأ الرجل للثعلب بأن يعطيه عشر دجاجات إذا تسبب في خلاصه من هذا المأزق . ولكن الثعبان لم يدرِ بما يجري خلفه من مفاوضات فقد قبل بحكم الثعلب . وما أن سمع الثعلب القصة حتى لبس مسوح الحكمة والرأي وأجاب بعد تفكير عميق أنه لا يستطيع أن يحكم حكماً عادلاً في موضوع عريض مثل هذا لأنه لم يشهد بنفسه كل ما حدث ، ولذلك فقد اتفقوا على أن توقد نار حامية وأن يرمى بها بالثعبان وأن يهرع بعدها الرجل إلى إنقاذه . وإذ لم يفطن الثعبان إلى الخديعة فقد رضي

بهذا الحل ورمى نفسه بالنار فما كان من الرجل إلا أن أسرع إليه بعصاه فقضى عليه بكل سهولة .

وهنا طالب الثعلب الرجل بجائزته الموعودة وسار إلى أقرب قرية . وهنا طلب الرجل من منقذه أن يختفي في صخرة مجوفة لئلا تراه الكلاب وأن ينتظره فيها حتى يعود له بالدجاجات العشر وما أن انطلق الرجل نحو المدينة حتى هرع وجمع الكلاب الموجودة فيها وعاد بهم إلى حيث يختفي الثعلب الذي ما أن سمع بنباحهم حتى خرج من مخبئه وأدرك بالحال الخديعة التي وقع ضحيتها فالتفت للرجل وقال له أيها الشقي الملعون أهذا جزاء من أنقذ حياتك ثم التفت إلى الكلب وقال لهم أيها الأصدقاء لا تصدقوا كلام الإنسان ولا تطيعوا له أمراً ولكنه قبل أن ينهي كلامه هجمت عليه الكلاب وقضت عليه نهشاً وتمزيقاً .

والعرب أقل من الترك إهتماماً بأمور اللباس ودورهم ليست مؤسسة بالشكل الفاخر الذي تبدو به البيوت التركية . وفي خلال تطوافي في أنحاء الجزيرة العربية لم تقع عيني على جامع جميل الهندسة والجامعان الموجودان في مسقط صغيران وبسيطان ومدينة بغداد فقط رغم كونها في العراق فهي مسكونة بسلالة من العرب عندهم الكثير من المعابد الدينية التي تمتاز بالفخامة والجمال .

والزوارق[1] التي تملأ ميناء مسقط وتقوم بنقل البضائع من السفن إلى الساحل الشاطىء تصنع من قطعة واحدة من جذوع الأشجار التي يؤتى بها من ساحل مالابار والبعض من هذه الزوارق كبيرة الحجم ولكن معلوماتي هذه يجب ألا يعتمد عليها لقلة علمي في علم النبات . والبلاّمة (٢) على الإطلاق ، رجال موثوق بهم وهم مخلصون لسادتهم حتى وأن كانوا من الأوروبيين ولكن من

(+) الأسم الشائع للزورق اورى ولكنه يسمى في البصرة البلم وهكذا فاللغة العربية واسعة ومختلفة (المؤلف) .

(١) أوردها المؤلف Balamas ويقصد بها أصحاب الزوارق .وهي لفظة عامية شائعة .

طبعي أن أجازيهم على خدماتهم بكرم واضح ، وقد إنعكس أثر ذلك فيما قدموه لي من خدمات حين غادرت مسقط أول مرة بعد أن رفض السلطان أن يأذن لي بالسفر منها .

والظروف التي أحاطت بهذه القضية وما رافقها من أحداث جديرة بالرواية في هذا المكان .

كنت قد قررت السفر إلى إيران وأخبرت السلطان بنيتي هذه فلم يرفض طلبي رفضاً باتاً ولكنه في الوقت نفسه أراد أن يحتفظ بخدماتي لديه . ولذلك أعلن بأن لا أسافر على ظهر أي من سفنه وبالتالي فإن كل رعيته رفضوا قبولي في سفنهم خشية أن يثيروا بعملهم هذا غضب السلطان .

وكان أحد معارفي من البانيان على وشك السفر في مركب صغير إلى كوش ، وبرشوة قدرها خمسون دولار إستطعت التغلب على تردده وإقناعه باصطحابي معه ـ ولكنني لم أصعد على ظهر المركب إلا ساعة الإقلاع فقط خشية أن يصل خبر سفري إلى السلطان فيأمر بإلغائه .

وحين حل اليوم المقرر ورأيت من نافذة داري أن السفينة قد رفعت مراسيها أسرعت مع بعض حقائبي إلى القرب من قلعة الجلالي حيث أسرع أصحاب الزوارق الذين يعرفون سخائي بالأجر ، إلى نقلي إلى السفينة بكل سهولة ويسر دون أن يسألني أحد إن كنت قد حصلت على إذن السلطان أم لا . وأملاً في الإنتفاع من خدماتهم في المستقبل فقد دفعت لهم أجراً سخياً وودعت مسقط ثم أفردنا الشراع بغية السفر . . لكن النحس ظل يلاحقنا فقد كانت الريح في الأيام الثلاثة الأولى ضعيفة بحيث لم نستطع التقدم إلا قليلاً في حين توقفنا كلياً في الأيام الثلاثة الأخرى .

وكان معي خادم يدعى سيبى وهو من أهل السيب وهي قرية تقع بين بركا ومسقط وكان معنا بالباخرة عدد آخر من الزدكال الذين يعملون في خدمة

البانياني . وكان في المركب ربانان أحدهما عربي والآخر هندي كلاهما في الجهل بمهنته على حد سواء .

وفي نهاية اليوم الثالث من أيام الهدوء ، رأينا بعض الغيوم من جهة قلهات ، وسمعنا هدير الأمواج من بعيد ، وهبت علينا أول الأمر نسمة باردة لطيفة ثم تبعتها ريح صرصر عاتية رفعت الأمواج عالية في البحر فكانت كالجبال إرتفاعاً وقوةً ترتطم بالسفينة وتهزها وتوشك أن تغرقها .

وبدأ المسلمون في السفينة ينادون الله . . الله والزدكال ينادون بردا بردا . . وقد حاولت أن أحتفظ بهدوئي لمعالجة هذا الموقف الخطير . وقد بدأت العاصفة تفتر ولكن دوامات الماء ضلت تهدد المركب بالغرق في كل آن ، فأسرع الزدكال إلى قلع السارية وتمزيق الشراع ورميها في البحر ثم بدأت أصوات تنادي بلزوم التخلص من الأثقال ولكن ما من أحد أقدم على رمي شيء من البضاعة في البحر خوفاً من البانياني صاحب المركب ، فرأيت أن أتقدم بنفسي وأكون القدوة لهم فبدأت بأكياس التمر أرميها في البحر ، إلا أن البانياني التاجر توسل إلى أن أبدأ بما هو أقل قيمة وأرخص ثمناً فبدأت ببعض الأكياس المملوءة بعظام الأسماك وأشواكها والمصدرة إلى الهند لتنقل إلى الصين حيث تدخل في صناعة الآنية المزخرفة التي نسميها « البابان » وكانت هذه الأكياس ثقيلة جداً فاقتضاني حملها ورميها إلى البحر جهداً كبيراً سرعان ما شعرت بعدها بالإرهاق الذي اضطرني إلى التوقف عن هذا العمل الشاق وفي هذا الوقت جاءني البانياني ليخبرني أن الأخشاب في مقدمة المركب بدأت تتشقق مما أدى إلى دخول كميات كبيرة من الماء إلى داخل المركب . وهنا أكتشفت الحماقة الكبرى التي ارتكبتها إذ وضعت نفسي وحياتي في مركب ضعيف مثل هذا الذي يبدو أنه لم يصنع إلا لنقل ركابه وملاحيه إلى العالم الآخر .

وهذه المراكب المسماة الدنفي تشبه في الشكل السفن العربية المسماة « البغلات » ولكن سكانها يكسى بالجلد مثل أحذية الفلاحين الإيطاليين . وقد

بـــدأ المـوت المحقق يقتـــرب مني الآن فـألقيت بنفسي في الفـــراش في حـال من التعـب والإعيـاء الـذهني والبـدني لا يمكن أن يـوصف وكـانت المقصـورة قـد امتـلأت بالملاحيـن ومعهم البـانياني صـاحب المركب ، وكـانوا يتبـادلون الشتم والسباب بأقبح الألفاظ مما أثار غيظي ولكنني كنت من الإرهاق بحيث لم أستـطع أن أنطق بكلمة واحدة .

وعند منتصف الليل وإذ بدأت الريح تخف ذهبت في سبات عميق لم استيقظ منه إلا صبيحـة اليوم التـالي حيث كان الجـو قد راق والبحـر قد هـدأ وقد إستغـرق الملاحون في نوم عميق من شدة التعب والإعياء .

وكنا قد تعرضنا إلى إعصار شديد ، وهذه الأعاصير تظهر وتختفي فجأة في البحـار الحارة وهي تكـثر في مياه الخليـج في شهر مـارس من كل عـام . ويسبق ظهورها أصوات مرعبة مجلجلة كأصوات الرعد .

وقد أقنعت الربـان والملاحـين بعمل سـارية جـديدة من خشب كـان معنا لحسن الحظ وقد تم صنعها بعد تعب كبير ورفعنا فوقها شراعاً صغيراً .

وكانت بوصلة المـركب قد تلفت نتيجـة الفوضى التي سببهـا الأعصار فلم نعد نعرف مكاننا أو وجهـة سيرنـا . وفي اليوم الخـامس رأينا البـر من بعيد فمن قائل أنه أرض كوش ومن قائل أنه أرض مسقط ولكننا إذ تـوجهنا إليـه تبين أنـه رأس قانس[١] .

وقد القينا مراسينا هناك ولكننا لم ننزل إلى البر خوفاً من عصـابات البلوش المتجولة في تلك المناطق ، وبعد إستراحة يومين كان النقاش خلالهما مستمراً عما يجب علينـا عمله إستقـر رأينـا عـلى وجــوب العـودة إلى مسقط ، فنصبنـــا الشـراع وتوجهنا إليها وبعد مسيـرة سبعة أيـام لاح لنا بـر قلهات وأوشكت متـاعبنا عـلى الإنتهاء . ولكن ما أن ابتسم لنا الحظ حتى ظهرت أمامنا مراكب ثلاثـة سرعـان

---

(١) Ras Qanis ولم نستطع الإهتداء إلى هذا المكان ولا إلى إسمه العربي .

ما عرفنا أنها من مراكب القـواسم . وكانت الـريح قـد هدأت وخفت فـاستطاع القراصنة بالجدف أن يقتربوا منا ، وقد هيأنا كـل وسائـل الدفـاع وكان عـليّ أنا « أبـو مدفـع » أن أتولى أمـر المدفعيـة ، وقد إنضـاف إلى جبن بحـارتنـا المعتـاد إعياؤهم نتيجة ما لا قوة من مشاق طيلة السفرة وبسبب قلة الغـذاء الذي اقتصر في الأيام الأخيرة على كميات صغيرة من الرز .

وفي هذه الدقيقة هبت نسمة من الشمال الغربي ، ولأن القراصنة كانوا في الجنوب الشرقي فلم يعـد في مقدورهم الإقتـراب من الشاطىء الـذي قررنـا أن ندفع الدنفي إليه عند الحاجة لإنقاذ أنفسنا وقد ظهر أحد الأعداء في مدى مرمى النار فأطلقت عليه النار من بندقيتي والظاهر أنها أصابته لأنه ولى الإدبـار في فزع واضطراب وقد جلب صوت الطلق زورقـاً لصيادي السمـك إلى نجدتنـا . وقد عرضت عليهم مبلغ خمسة ريـالات مقابل نقلي إلى مسقط وقد قبلوا عرضي في الحال ولكنني ما أن انتقلت إلى زورقهم حتى شعرت بفداحة الخطأ الذي ارتكبته فقد أوقعت نفسي باختياري في خطر أكبر من الخطر الذي هربت منه . ذلك أننا لن نصل إلى مسقط إلا في صباح اليـوم التالي ، وهـذا يعني أننا سنقضي ليلة في البحر وقد اعتقد هؤلاء الصيادون من دفعي لهم أجـرة النقل مقـدماً بـأنني أحمل الكثير من الدراهم لذلك فمن المحتمل أن يحاولوا الإعتداء على حياتي أثناء الليل وكونهم خمسة يزيد من إحتمال نجاحهم.

وعلى كل حال فقد حـاولت أن أخفي كل عـلامات الإرتيـاب والوجـل ، وذهبت مـع خادمي وأخذنا مجلسنـا قرب الـدفة حيث لا يمكن الإحـاطة بنـا ، وحيث تكـون طلقـات المســدس ، الـذي كـان من حسن الحظ معي في أحـد الأكياس وسيلة مجدية للدفاع .

ولكي أظهـر للمساكـين هؤلاء عدم ارتيـابي منهم وعدم إدراكي لخططهم فقد كنت أناديهم بكلمة « يا أخـوان » وأطلب منهم أن يجذفـوا بكل مـا أوتي من سرعة وعزم .

وقد وصلنا بالأخير إلى صخرة في البحر تقع في طريقنا واقترح رفاق السفر أن ننزل إلى هذه الصخرة لنهيء بعض الأسماك للعشاء هناك ونبيت ليلتنا عليها . ولأن مخالفتي لرغباتهم هذه تظهر إرتيابي من سلوكهم ولذلك فقد وافقت على الإقتراح وقلبي يرتجف من هول إرهاق الموقف للأعصاب .

وقد أسرعنا فنزلنا عند الصخرة وأشعلنا ناراً وجلست قرب النار أستعرض الحال التي نحن فيها وأهيأ الخطط للمستقبل .

وعندما تمت تهيئة العشاء دعاني أصحاب الزورق بكل أدب وإخلاص لمشاركتهم العشاء الأمر الذي أزال شكوكي وريبتي منهم ، ولم أستطع إخفاء فرحي باقترابنا من مسقط وافلاتنا ـ بمحض الرعاية الآلهية ـ من أسر محقق .

ولما انتهى العشاء تمدد الصيادون للنوم وعلى الرغم من أني كنت قد قررت أن أبقى يقظان طول الليل ، إلا أن تعب الجسد والذهن كان من القوة بحيث القاني بالتدريج في أحضان السبات الذي لم انهض منه إلا في الصباح الباكر لليوم التالي إذ أيقظني خادمي سيبى لنكمل سفرتنا .

وقد عدنا إلى زورقنا ، وبعد جذف مستمر لعدة ساعات وصلنا عند الظهيرة إلى مسقط . وقد توجهت فور وصولي إلى قصر السلطان حيث استمع السيد سعيد إلى تفاصيل قصتي بالعجب والإستغراب ، ثم تفضل فوعد أن يأذن لي بالسفر إلى بوشهر دون أي تعطيل .

وقد بر السلطان بوعده وبقيت خمس سنوات كاملات أتجول في بلاد العجم والعراق وما وراءها ولم أعد إلى مسقط إلا عام ١٨١٤ حيث أوفدني السلطان إلى السويق وهي ميناء مهم على بعد ماية ميل إلى الشمال من عمان على رأس بعثة وجهها لعمه السيد أحمد بن الإمام [1] .

---

(١) ليس للسلطان سعيد عم باسم احمد وإنما الامام احمد بن سعيد هو جده والإمام سعيد بن احمد عمه .

وقد قابلني الرئيس بكل تحية واحترام ، وأخذني معه إلى الرستاق ، وهو مكان على غاية من الأهمية في بلاد عمان . وقد شرح صدري حسن موقعه الجميل ، وسوف يظهر وصفي الدقيق له والذي ضمنته إحدى رسائلي أن الرستاق لم تأخذ لقبها عبثاً ، وكانت الرستاق والسويق قد لقبا باسم بساتين العرب . وبعد عودتي إلى مسقط بوقت قصير عدت فتركتها على ظهر إحدى البواخر الإنكليزية المسماة برنس أوف ويلز .

والآن وفي الختام لا بد لي من القول أن عدداً من رسائلي مؤرخة من البلدان في الجزيرة العربية التي كنت أقيم فيها أثناء كتابة الخطاب ، كما تحوى هذه الرسائل في نفس الوقت على قصتي الشخصية ، وحكاية العادات والطرق لسكان هذه الأماكن النائية .

ولهذا فإن إشاراتي في هذا الكتاب التي لا تخص أهل مسقط بالذات أو رعايا السيد سعيد فإنها تعتبر عامة ، ويخضع لها كافة سكان شبه الجزيرة العربية .

* * *

الفهرس



ص. ب. ١٣/٥٣٤٨ تلكس ARATRD LE ٢٣١٠٧
هاتف ٣٥٢٥٩٨ - ٣٥٣١٩٤ - ٤٢٩٩٨١ / ٢
بيروت - لبنان

